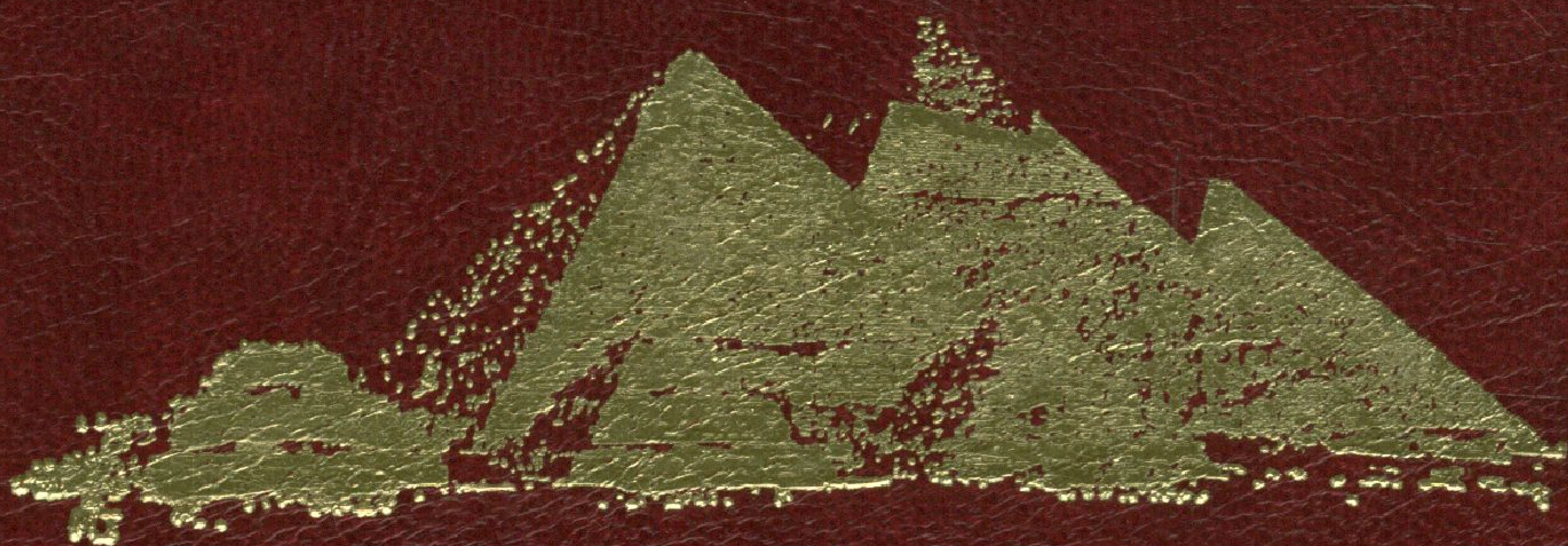


موسوعة تاريخ مصر



موسوعة

التاريخ المصري

(١٠)

ميخائيل شاروبيم بك

موسوعة

التاريخ المصري

المجلّد العاشر

الكافــــــي

في تاريخ مصر القديم والحديث

الجزء الثاني ـ ١ ـ

عن فترة من ٦٤٠م إلى سنة ١٥١٢ م

٢٠هـ إلى سنة ٩٢٢ هـ

دار نوبليس

اسم الموسوعة: موسوعة التاريخ المصري

اسم الكتـــاب: الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث
الجزء الثاني ـ ١ ـ

اسم المؤلـف: ميخائيل شاروبيم بك

قياس الكتـاب: ١٧ × ٢٤

عدد الصفحات: ١٨٠

عدد صفحات الموسوعة: ٨٨٤٠

مكـان النشـر: بيروت

دار النشر والتوزيع: دار نوبِليس

تلفاكس: ٧٥ ٣٤ ٥٨ (١) ٩٦١

هاتـف: ٢١ ١١ ٥٨ (١) ٩٦١ ـ ٢١ ١١ ٥٨ (٣) ٩٦١

صندوق بريـد: ٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان

بريد إلكتروني: info@nobilis-int.com

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

EAN 9786144031339

ISBN 978-614-403-133-9

المحتويـــات

(المقالة السادسة)

فى كيفية ظهور الخلافة العباسية بالقاهرة بعد موت الخليفة المستعصم بالله وفيها فصول:



بسم الله الرحمن الرحيم

لما كان من الواجب معرفة بعض شىء من أخبار العرب فى الجاهلية وطباعهم وعوائدهم ونسبهم وسكناهم وغير ذلك مما يتعلق بتاريخ أيامهم قبل الإسلام تتميما للفائدة المقصودة من التاريخ ولكى لا يكون إتياننا على تاريخ دولهم بعد الإسلام قليل الفائدة فسنذكر هنا فذلكة من تاريخهم القديم نقلا عما جاءت به كبار أصحاب التاريخ من الشرقيين والغربيين لتكون مقدمة يتوصل بها القارئ إلى معرفة حوادث أيامهم فى مصر بعد الفتح.

وقد قسمنا هذا الجزء إلى ست مقالات وفى كل منها عدة فصول وبالله سبحانه الاستعانة وهو نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

(المقالة الأولى)

(فى أخبار العرب فى الجاهلية)

وفيها فصول

الفصل الأول

(فى نسب العرب وطوائفهم)

قال المقريزى: اختلف الكتاب فى نسب العرب وأصل تسميتهم فقال جماعة: إن اسمهم اشتق من الإعراب بمعنى الإبانة لقولهم أعرب الرجل عما فى ضميره إذا أبان عنه والأصح أنهم نسبوا إلى عربة وهى من تهامة ودعى جيلهم جيل الجاهلية لما كان عليه العرب من الجهل بالله وشرائع الدين والكبر والتجبر ا.هـ.

وقد قسم المؤرخون العرب إلى ثلاثة أقسام: عاربة ومتعربة ومستعربة ، أما العاربة فهم العرب الأول الذين ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم لتقادم عهدهم وفى رواية أنهم قوم أتوا فى غابر الأزمان من الحبشة وعبروا إلى اليمن من بحر القلزم بالقرب من الموضع الذى فيه الآن عدن فاستوطنوا تلك الناحية ثم صار لهم بها مملكة ولم تزل دار ملكهم إلى أن خربت بسيل العرم، وأما العرب المتعربة فهم عرب اليمن من ولد قحطان، وأما العرب المستعربة فهم ولد إسماعيل، وفى رواية أنهم من إفريقية أيضاً ولكنهم عبروا إلى الحجاز من خليج العقبة وانتشروا فى البلاد حتى تاخموا العراق من جهة والشام من أخرى وخالطوا السريان والفرس واليهود ولذا كانت لغتهم إلى السريانية أقرب واختلط بها شيء من ألفاظ الفرس والعبريين أيضاً، وكان العرب العاربة شعوبا كثيرة وهم عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الأولى وقد سمى أصحاب التاريخ هذا الجيل أيضاً بالعرب البائدة يعنى الهالكة لأنه لم يبق

على وجه الأرض أحد من نسلهم قالوا وربما سموا بالعرب العاربة إما بمعنى الراسخة فى العروبية كما يقال ليل أليل وصوم صائم أو بمعـنى الفاعلة للعروبية والمبتدعة لها بما كانت فى أول أجـيالها وقد استـدل بعض المحققين على أصلهم الحـبشى بشكل جماجمـهم وما فى لغتهم من ألفاظ الحبـشة كتبع من أسماء ملوكـهم ومعناه القوى وحمير ومعناه الأحمر.

وأما بنو عاد فـقد كانت مواطنهم الأولى بأحقاف الرمل بين اليـمن وعمان إلى حضرمـوت والشحر وكان أبوهم عاد أول ملك من العرب وذكـر المسعودى أن الذى ملك منهم بعد عـاد شداد وهو الذى سار فى المهـالك واستولى على كثـير من بلاد الشام والهند والعـراق ولما اتصل ملك عاد وعظم طغيـانهم وعتوهم وانتحلوا عـبادة الأصنام والأوثان أبادهم الله وهلكوا عن آخرهم .

وأما ثمود فكانت ديارهم بالحجر ووادى القرى فـيما بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم فى الجبال فكانوا أهل كفر وبغى فأنذرهم بعض الأنبياء فلم يصيخوا إلى دعائه فهلكوا جميعا حيث كانوا من الأرض ودرجوا فى الغابرين .

وأمـا جديس وطسم فكـانت ديارهم اليمـامـة وهى إذ ذاك من أخصب البـلاد وأعمرها وأكـثرها ثمارا وحدائق وقصـورا وكان ملك طسـم غشوما مـصابرا لجديس مستذلا لهم حتى قام الأسود وقتله غيلة.

وأما جرهم الأولى فكانت ديارهم باليمن وكـانوا يتكلمون بالعربية فكانوا على عهد عاد ولتـقادم انقراضهم ذهبت حقائق أخبـارهم وانقطعت أسباب العلم بآثارهم قال بعض المحقـقين: وأما جرهم الثـانية فليسوا من البـائدة بل هم من ولد قحطان وبهم اتصل إسماعيل بن إبراهيم .

وانما سـمى بنو قحطان الذين هـم القسم الثـانى بالمتعـربة لنزولهم بالبـادية مع العرب العاربة وتخلقهم بأخلاقهم وهم بنو قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام قـال بعض أهل التاريخ: وقحطان هذا مـعرب يقطان وهو أول من ملك أرض اليمن ولبس التاج قبل الميلاد المسيحى بألفين وثلاثين سنة وكان بنو قحطان معاصرين لإخوانهم من العرب العـاربة ومظاهرين لهم على أمورهم ولم يزالوا مجتـمعين فى مجالات البادية مبعدين عن رتبة الملك وترفهه الذى كان لأولئك فأصبحوا بمنجاة من الهرم الذى يلزمه الترف والنضارة فتشـعبت فى أرض الفضاء فصائلهم وتعددت فى جوِّ القفـر أفخاذهم وعشائرهم ونمى عـددهم وكثر إخوانهم من العمـالقة فى آخر جيلهم وزاحمـوهم بمناكبهم واستـجدّوا خلق الدولة بما استأنفـوه من عزهم وكانت

الدولة لبنى قحطان متصلة فيهم، قالوا: وكان يعرب بن قحطان من أعاظم ملوك العرب ويسمى أيضًا يمنا وبه سميت اليمن وهو أوّل من حياه ولده بقولهم (أبيت اللعن) و (أنعم صباحا) وقيل: إنه أول من نطق بالعربية وملك بعد يعرب ابنه يشجب وكان واهى العزيمة فاستبدّ أعمامه بما فى أيديهم من الممالك وملك من بعده ابنه عبد شمس وأكثر الغزو فى أقطار البلاد فسمى سبأ لكثرة ما سبى وكانت قاعدة ملكه مدينة صنعاء ومن مدنه مأرب على ثلاث مراحل منها.

وعظم أمر سبأ المذكور وعلت كلمته فبنى فى مأرب سدًا ما بين جبلين بالصخر والقار حقن به ماء العيون والأمطار وساق إليه سبعين واديا وترك فيه خروقا على قدر ما يحتاجون إليه فى سقيهم وهو الذى يسمى العرم ومات قبل أن يتمه فأتمه ملوك حمير من بعده وأقاموا فى جناته عن اليمين وعن الشمال ودولتهم يومئذ أوفر مما كانت وأترف وأبذخ وأعلى يدا وأظهر فلما طغوا وأعرضوا أجحفهم السيل وأغرق جناتهم وخربت أرضهم وتمزق ملكهم وصاروا أحاديث وكان هؤلاء التبابعة ملوكا عدة فى عصور متعاقبة وأحقاب متطاولة لم يضبطهم الحصر ولا تقيدت منهم الشوارد وربما كانوا يتجاوزون ملك اليمن إلى ما بعد عنهم من العراق والهند والمغرب فاختلفت لذلك أحوالهم ووقع اللبس فى نقل أخبار أيامهم ومع ذلك فسنأتى بإيراد ما صح منها على قدر الاستطاعة لعدم الوقوف على أخبارهم مدوّنة فى مؤلف واحد.

وكان لسبأ المذكور كثير من الأولاد وأشهرهم حمير وعمرو وكهلان فكانت التبابعة تعزى إلى حمير والمناذرة إلى عمرو وتنتهى الغسانية إلى كهلان، قال المسعودى: قيل لملوك اليمن تبابعة لأنه يتبع بعضهم بعضا كلما هلك واحد قام آخر ولم يسموا الملك منهم بتبع حتى يملك اليمن والشحر وحضرموت ومن لم يكن له شئ من هذا يسمى ملكاً ولا يقال له تبع ا.هـ.

قلت: وهذا خلاف ما يقوله غيره فى معنى تبع التى هى من الكلمات الحبشية وأما حمير فقد يعرف أيضا بالعرنجج وكان ظهوره قبل الميلاد المسيحى بألف وأربعمائة وثلاثين سنة وقيل هو أول من تتوّج بالذهب وأخرج ثمود من اليمن إلى الحجاز ثم ملك بعده ابنه وائل ولم يزل ملكهم على اليمن حتى مضت قرون وآل الأمر إلى شداد فغزا البلاد إلى أن بلغ أقصى المغرب وبنى المدائن والمصانع وأبقى الآثار العظيمة ثم اضطربت أحوال حمير وصار ملكهم فى طوائف إلى أن استقر فى الحارث وهو تبع الأوّل ثم فى بقية التبابعة وقد لقب الحارث بالرائش لأنه راش

الناس بالعطاء مما كان أصابه فى غزواته من السلب والغنائم .

ثم ملك أبرهة ذو المنار ثم افريقش وذلك قبل الميلاد بألف وثمان وتسعين سنة وذهب بقبائل العرب إلى إفريقية وبه سميت وساق البرابرة إليها ولما افتتح المغرب وسمع رطانتهم قال ما أكثر بربرتهم فسموا البرابرة ثم ملك بعد إفريقش أخوه عمرو ذو الأذعار ولم يحسن السيرة فى الرعية ولم يعبأ بوصاية أبيه أبرهة وكان أنشده عند وفاته .

يا عمرو إنك ما جهلت وصيتى	إياك فاحفظها فإنك ترشد
يا عمرو لا والله ما ساد الورى	فيما مضى إلا المعين المرفد
يا عمرو من يشرى العلا بنوا له	كرما يقال له الجواد السيد
كل امرئ يا عمرو حاصد زرعه	والزرع شىء لا محالة يحصد

ولما ذعرت حمير من جوره خلعت طاعته وقلدت الملك شرحبيل فجرى بين شرحبيل وذى الأذعار قتال شديد قتل فيه خلق كثير واستقل شرحبيل بالملك حتى مات ثم ملك بعده ابنه الهدهاد وذلك سنة خمس وستين وألف قبل الميلاد المسيحى ثم ملكت بلقيس ابنة الهدهاد وكانت على عهد سليمان عليه السلام ووفدت عليه بنفيس الهدايا وبقيت فى ملك اليمن عشرين سنة وماتت ثم قام بعدها بالملك مالك ناشر النعم لأنه قلد أعناق رعيته أطواق النعم والمنن وسار غازيا إلى المغرب فبلغ وادى الرمل فلم يجد فيه مجازا لكثرة الرمل وعبر بعض أصحابه فلم يرجعوا فأمر بصنم من نحاس نصب على شفير الوادى وكتب فى صدره بالخط المسند هذا الصنم لناشر النعم الحميرى ليس وراءه مذهب فلا يتكلف أحد ذلك فيعطب. **قلت**: ومن رام معرفة ما هو الوادى المذكور فليراجع ما قاله ابن خلدون فى مبدأ مقدمة تاريخه، ثم ملك بعد ناشر هذا ابنه أبو كرب شمر مرعش سمى بذلك لارتعاش كان به وهذا هو تبع الآخر وهو المشهور من ملوك التبابعة ذوى المغازى والآثار البعيدة وكان من أشد ملوك العرب نكاية بالأعداء وأبعدهم مغارا وقد حكم قبل الميلاد بمائتين وخمسين سنة. قال بعض أصحاب التاريخ: ووطئ أرض العراق وفارس وخراسان وافتتح مدائنهم وخرب مدينة الصغد وراء جيحون فقالت العجم شمركند (أى شمر خرب) يعنى خرب البلاد وبنى مدينة هنالك فسميت باسمه هذا وعرّبته العرب فصار سمرقند وشخص من اليمن غازيا ومر بالحيرة فتحير عسكره ثم رجع إلى اليمن وهابه الملوك وهادنوه وأخذ بدين اليهودية بإغراء بعض أحبار اليهود من بنى قريظة

ثم عاد إلى غزو بلاد فارس فوطأ المسالك وذللها وعمد إلى الصين. قال النويرى: وكان لملك الصين فى ذلك الزمان وزير شديد البأس سامى الهمة فلما بلغه مسير ملك اليمن جدع أنفه ولحق بأبى كرب وسعى إليه بأمره وشكى من ملك الصين وتظاهر أنه يدل أبا كرب على خلل يمكنه من الفرصة فى إلقاء بلادهم بالقياد وفتحها فسر به تبع وبالغ فى إكرامه وأصاخ لقوله فنهض الوزير بجيشه وهو يقدمهم حتى انتهى بهم إلى أرض مسبخة فتوغلوا فى فلوات سحيقة لا ماء فيها فأجهدهم العطش فماتوا . ا.هـ.

ثم قام بعده ابنه أبو مالك وهلك فى بعض غزواته وتعاقبت الملوك على اليمن دهرا طويلاً حتى ملك عمرو بن عامر الأزدى وقيل له مزيقيا لأنه كان يلبس كل يوم حلة فإذا أراد الدخول إلى مجلسه رمى بها فمزقت لئلا يجد أحد فيها ما يلبسه وقيل: إنه على عهده كان سيل العرم أى بعد الميلاد بثلثمائة سنة وستين اثنتين فانفجرت مياه سدّ مأرب فاحتمل السيل أنعامهم وخرّب ديارهم فتفرقت القبائل المجاورة له أيدى سبأ.

ولم تزل تتوالى الملوك على حمير حتى آل الملك فى سنة ثمانين وأربعمائة ميلادية إلى ذى نواس واتفق أهل الأخبار كلهم على أن ذا نواس هو ابن تبان أسعد واسمه زرعة وأنه لما تغلب على ملك آبائه التبابعة سمى يوسف وتعصب لدين اليهودية وحمل عليه قبائل اليمن فاستجمعت معه حمير على ذلك وأراد أن يكون أهل نجران عليها أيضاً وكانوا من بين العرب يدينون بالنصرانية ولهم فضل فى الدين واستقامة ولهم رأس يقال له عبد الله بن تامر، وكان هذا الدين وقع إليهم قديماً من بقية أصحاب الحواريين من رجل سقط لهم من ملك التبابعة يقال له (فيمون) وكان رجلاً صالحاً ورعاً مجتهداً فى العبادة مجاب الدعوة وظهرت على يديه الكرامات فى شفاء المرضى، وكان يطلب الخفاء عن الناس جهده، وكان لا يأكل إلا من كسب يده ويعظم يوم الأحد فلا يعمل فيه شيئاً ففطن لشأنه رجل من أهل الشام اسمه صالح فلزمه وخرجا فارين بأنفسهما حتى وصلا بلاد العرب فاختطفتهما سيارة فباعوهما بنجران وأهل نجران يومئذ على دين العرب يعبدون نخلة لهم طويلة ويعلقون عليها فى الأعياد من حليهم وملابسهم ويعكفون عليها أياماً وكان قد ابتاع (فيمون) رجل من أشرافهم وابتاع صالحاً آخر فكان فيمون إذا قام فى الليل فى بيت له أسكنه إياه سيده استسرج له البيت فوراً وهو فى غير مصباح حتى يصبح الصباح فأعجب سيده ما رأى منه فسأله عن دينه فأخبره به. وقال له: إنما أنتم على باطل وهذه الشجرة لا

تضر ولا تنفع ولو دعوت عليها إلهي الذى أعبده لأهلكها وهو وحده لا ند له. فقال له سيده: افعل فإنك إذا فعلت هذا دخلنا فى دينك وتركنا ما نحن عليه . قال الراوى: فدعا فيمون فأرسل الله ريحاً فقلعت النخلة من أصلها وأطبق أهل نجران على أتباع دين المسيح، فانتشرت من ذلك العهد النصرانية بنجران. وأما عبد الله بن تامر فكان يجلس إلى فيمون كل يوم ويسمع منه شيئاً عن المسيح حتى فقه وظهرت على يده الخوارق والمعجزات ودان الكل بدينه فسار إليهم ذو نواس بجنوده واستدعى رأسهم عبد الله بن تامر. وقال له: أفسدت عليّ أهل بلدى وخالفت دينى ودين آبائى ثم أمر به فقتل وعرض على أهل نجران القتل فلم يزدهم إلا ثباتا فى النصرانية فخدّد لهم الأخاديد وأوقد لهم نارا ثم امتحنهم فجعل يقول للرجل والمرأة، إما أن تترك دينك وإما أن نقذفك فى النار فيقول ما أنا تارك دينى لشىء فيقذف فيها فيحرق فبقيت امرأة ومعها صبى رضيع عمره سبعة أشهر فجزعت وتهيبت فقال لها الغلام يا أماه لا تنافقى فإنك على الحق ولم يتكلم من ذى قبل فاحترقت. قالوا: وقتل وأحرق ذو نواس حتى أهلك منهم فيما قال ابن إسحق عشرين ألفا أو يزيدون وأفلت منهم رجل اسمه درس، وكان من سبأ ويقال له أيضاً درس ذو ثعلبان فسلك الرمل على فرسه فأعجزهم فقدم على قيصر صاحب الروم يستنصره على ذى نواس، فلما علم القيصر حقيقة الخبر أخذ من ساعته فى التأهب لقتال ذى نواس وبعث إلى ملك الحبشة يأمره بنصره فجاءته السفن وأجاز فيها العساكر من الحبشة وأمر عليهم رجلا منهم اسمه أرياط وعهد إليه بقتلهم وسبيهم وخراب بلادهم فركبوا البحر ونزلوا ساحة اليمن فلقيهم ذو نواس فيمن معه فانهزم فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجه بفرسه إلى البحر وخاض ضحضاحه ثم أفضى به إلى غمرة فأغرقه فيها فكان آخر العهد به وانقرض بموته أمر التبابعة وذلك سنة تسع وعشرين وخمسمائة للميلاد، ووطىء من ثم أرياط اليمن بالحبشة وأذل رجالات حمير وهدم حصون الملك ثم انتقض على أرياط أبرهة أحد رؤساء جيشه وجذب معه رعاع الحبشة وغطاريفهم فاقتتلوا فحمل أرياط على أبرهة وعلا وجهه بالحربة فشرم أنفه وبذلك لقب بالأشرم وحمل أبرهة على أرياط بالسيف وعلا به رأسه فأسرع السيف فى دماغه وسقط عن جواده فمالوا حينئذ جميعاً وصاروا مع أبرهة وأقاموه ملكا.

قال أهل التاريخ: وكان أبرهة رجلا قصيرا حادرا لحيما ومداحا ذا دين فى النصرانية فبنى بصنعاء إلى جانب غمدان كنيسة محكمة العمل وسماها القليس. قال ابن إسحق: وكان القليس مربعا مستوى التربيع وجعل طوله فى السماء ستين ذراعاً وجعل بين ذلك كله حجارة تسميها أهل اليمن الجردب منقوشة مطبقة لا يدخل بين

أطباقها الإبرة، وكان له باب من نحاس يفضى إلى بيت فى جوفه طوله ثمانون ذراعا فى أربعين ذراعا معلق العمل بالساج المنقوش ومسامير الذهب والفضة وعقوده مضروبة بالفسيفساء (شجرة بين أصنافها كواكب الذهب ظاهرة) ثم يدخل من البيت إلى قبة جدرها بالفسيفساء وفيها جلب منقوشة بالذهب والفضة وفيها رخامة مما يلى مطلع الشمس من البلق مربعة تعشى عين من نظر إليها من بطن القبة تؤدّى ضوء الشمس والقمر إلى داخل القبة وكان تحت الرخامة منبر من خشب اللبخ وهو الآبنوس مفصل بالعاج ودرج المنبر من خشب الساج ملبسة ذهبا وفضة . اهـ.

وانتشر خبر بناء هذا البيت فى العرب فلما كانت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة للميلاد مات أبرهة فملك بعده ابنه يكسوم وبه كان يكنى واستفحل ملكه وعلت كلمته وأذل حمير وقبائل اليمن فقتل رجالهم واستخدم أبناءهم، ثم مات يكسوم فملك مكانه أخوه مسروق وكان طاغية جبارا ساءت سيرته وكثر عسفه، قال ابن خلدون: ولما طال البلاء من الحبشة على أهل اليمن خرج سيف ذى يزن الحميرى من الأذواء بقية ذلك السلف وعقب أولئك الملوك وذيال الدولة المفوض بالخمرد وقدم على قيصر يوستينس يستنجده على الحبشة فأبى. وقال: الحبشة على دين النصارى فرجع إلى كسرى وقدم الحيرة على النعمان بن المنذر عامل فارس على الحيرة وما يليها من أرض العرب فشكا إليه واستمهله الضمان إلى حين وفادته على كسرى ووفد معه وسأله النصر على الحبشة وشاور أهل دولته فقالوا: فى سجونك رجال حبستهم للقتل ابغثهم معهم فإن هلكوا كان الذى أردت بهم وإن ملكوا كان ملكاً ازددته على ملكك فأحصوا بثمانمائة وقدم عليهم أفضلهم وأعظمهم بيتا وأكبرهم نسباً واسمه وهزر الديلى فتواقفوا للحرب وأمر وهزر ابنه أن يناوشهم القتال فقتلوه وأحفظه ذلك. فقال أرونى ملكهم فأروه إياه على فيل عليه تاجه وبين عينيه ياقوتة حمراء فرماه بسهم فصك الياقوتة بين عينيه وتغلغل فى دماغه وتنكس عن دابته وداروا به فحمل القوم عليهم وانهزمت الحبشة فى كل وجه وفنى ملكهم فى اليمن بعد أن توارثه أربعة فى ثنتين وسبعين سنة وانصرف وهزر إلى كسرى بعد أن خلف سبأ على اليمن فى جماعة من الفرس ضمهم إليه على فريضة يؤدّيها كل عام وجعله لنظر ابن ذى يزن وأنزله بصنعاء وانفرد ابن ذى يزن بسلطانه ونزل قصر الملك وهو رأس غمدان. يقال: أن الضحاك بناه على اسم الزهرة وهو أحد البيوت السبعة الموضوعة على أسماء الكواكب وروحانيتها (وقد خرب فى خلافة عثمان) ولما استوثق لذى يزن الملك جعل يعتسف الحبشة ويقتلهم حتى إذا لم يبق إلا القليل

جعلهم خولا واتخذ منهم طوابير يسعـون بين يديه بالحراب فخرج يوماً وهم يسعون بين يديه فلما انفردوا به عن الناس رمـوه بالحراب فقتلوه فأرسل كسـرى عاملاً على اليمن واستمرت عماله إلى أن كـان آخرهم باذان فأسلم وصارت اليمن للإسلام بعد ذلك.

قال الأصـفهـانى: أما أخـبار العـرب بالعراق فى الجـيل الأول فلم تصل إلينا تفاصـيلها وشرح حـالها إلا أنه لما حدث سـيل العرم تمزقت عرب اليـمن من مدينة مأرب إلى العراق والشام فكانت تنوخ وقضاعـة وهما حيان من أحياء الأزد من بنى كهلان ممن تمزق إلى العـراق. فقال مالك بن فهم الأزدى لمالك بن القـضاعى: نقيم بالبـحرين ونتـحالف على من ناوأنا فـتحـالفوا فـسمـوا تنوخ وذلك فى أيام ملوك الطوائف فنظروا إلى العـراق وعليهـا طائفة من ملوكـها وهى شاغـرة فخـرجوا من البحـرين وسارت الأزد إلى العراق مع مـالك بن فهم الأزدى وسارت قضـاعة إلى الشام مع مالك القضاعى.

وأول من تملك على تنوخ فى العراق مالك بن فـهم وذلك سنة خمس وتسعين ومائة للميلاد، وكان منزله بالأنبار فبقى بها إلى أن رماه سليمة بن مالك رمية بالليل وهو لا يعرفه فلما علم أن سليمة راميه قال:

جـزاني لا جـــزاه الله خـيــراً ... سليـــمـــة إنه شـــراً جـــزاني

أعلـمـــــه الرمــــاية كـل يوم ... فلمــا اشـتـدّ سـاعـده رمـاني

فلما قـال هذين البيتين فـاظ (أى مات) وهرب سليمة ثم ملك من بعـد مالك جذيمة الأبرش سنة إحدى وخمسين ومائتـين للميلاد، وكان ثاقب الرأى بعيد المغار شـديد النكاية ظاهر الحزم وهو أوّل مـن غزا بالجـيوش وشنّ الغـارات على قبـائل العرب، وكـان به برص فأكبرته العـرب على أن تنعته به إعظاماً لـه فسمته جـذيمة الأبرش وجذيمة الوضاح واسـتولى على السواد ما بين الحيرة والأنـبار وسائر القرى المجاورة لبـادية العرب وكان يجـبى أموالها وغـزا طـسما وجـديسا فى منازلهـما من اليمامة وفيه قال الشاعر:

أضـحـى جـذيمة فى أشـــراف منزله ... قد حاز مـا جمعت فى عصـرها عاد

وطال ملكه إلى أن أدرك ملك سـابور بن أشك وكان جـذيمة قـد ملك مـعدا وبعض اليمن وغـزا فى آخر عمره الشـام وقتل عمر بن حـسان بن أذينة والد الزباء

ملكة الطوائف فانطوت له الزباء على طلب الثأر حتى قتلته، وكان ملك جذيمة نحو ستين سنة بالتقريب .اهـ.

ولما مات جذيمة المذكور ورث الملك بعده ابن أخته عمرو بن عدى وذلك سنة ثمان وستين ومائتين للميلاد وأمه رقاش، وهو الذى اتخذ الحيرة منزلاً من ملوك العرب، وأول ملك يعده الحيريون فى كتبهم من ملوك عرب العراق وملوك العراق ينتسبون إليه: فلما استقرّت به السلطنة همّ بطلب الثأر من الزباء بخاله جذيمة فلما أحست الزباء بنيته تحصنت فى معقل فصارت أمنع من عقاب فعمد عمرو إلى قصير وزيره فجدع أنفه بمواطأة منه على ذلك وألحقه بالزباء يشكو ما أصابه من عمرو وأنه اتهمه بمداخلة الزباء فى أمر خاله جذيمة وقال لها: وما رأيت بعد ما فعل بى أنكى له من أن أكون معك فأكرمته وقرّبته فلما تحقق منها الوثوق به غرّها وأسلم حصنها إلى عمرو فلاحمها بالسيف وأصاب ما أصاب من المدينة وانكفأ راجعا فبقى عمرو ملكا مدة عمره منفردا بملكه مستبداً بأمره يغزو المغازى ويفوز بالغنائم وتجبى إليه الأموال وتفد عليه الوفود ولا يدين لملوك الطوائف بالعراق حتى قدم أزدشير بن بابك فى أهل فارس أرض العراق فضبطها وقهر من كان له بها مناويا حتى حملهم على ما أراد مما يوافقهم ومما لا يوافقهم فكره كثير من تنوخ مجاورة العراق على الصغار فخرج من كان منهم من قبائل قضاعة الذين كانوا أقبلوا على مالك فى أيام ملكه فلحقوا بالشام وانضموا إلى من هناك من قضاعة فكان إذا أحدث ناس من العرب أحداثاً فى قومهم أو ضاقت معيشتهم يخرجون إلى ريف العراق وينزلون الحيرة. قال أهل التاريخ: فكان ذلك على أكثرهم هجنة وصار أهل الحيرة ثلاثة أثلاث. الثلث الأوّل تنوخ وهم من كان يسكن المظال وبيوت الشعر والوبر فى غربى الفرات ما بين الحيرة إلى الأنبار فما فوقها والثلث الثانى العباد وهم الذين سكنوا رقعة الحيرة فابتنوا بها والثلث الثالث الأحلاف، وعمرت الحيرة أيام ملك عمرو بن عدى باتخاذه إياها منزلا وعظم شأنها إلى أن وضع فى الكوفة ونزلها عرب الإسلام.

ولما مات عمرو ملك بعده امرؤ القيس البدء وهو الأول فى كلامهم وهو أول من تنصر من ملوك آل نصر وعمال الفرس. ثم ولى مكانه ابنه عمرو سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة للميلاد ثم أعقبه أوس بن قلام العمليقى خمس سنين ثم ثار به محجب أحد بنى فزان فقتله سنة ثمان وستين وثلثمائة وولى مكانه مدة ثم ولى من بعده امرؤ القيس الثانى سنة ثمان وستين وثلثمائة للميلاد ويعرف امرؤ القيس هذا

بالمنذر والمحرّق لأنه أول من عاقب بالنار وهو الذى ذكره الأسود بن يعفر فى قوله: ماذا أؤمل بعد آل محرق. ثم ملك بعده ابنه النعمان الأعور السائح صاحب الخورنق والسدير، وكان النعمان هذا فى أيام يزدجرد فدفع إليه ابنه بهرام ليربيه وأمر ببناء الخورنق مسكنا لابنه فأسكنه إياه وأحسن تربيته وتأديبه وجاء بمن يلقنه الخلال من العلوم والآداب والفروسية حتى نبغ وفاز بما رضيه، وكان النعمان من أشد ملوك العرب نكاية فى الأعداء وأبعدهم مغارا قد أتى الشام مرارا كثيرة وأكثر المصائب فى أهلها وسبى وغنم، وكان ملك فارس ينفذ معه كتيبتين من المقاتلين الشهباء وأهل الفرس ودوس وأهلها تنوخ فكان يغزو بهما من لا يدين له من العرب وكان صارماً حازماً ضابطاً لملكه قد اجتمع له من الأموال والخول والرقيق ما لم يملكه أحد من ملوك الحيرة والحيرة يومئذ ساحل الفرات، ولما أتى على النعمان ثلاثون سنة تنصر على يد بعض وزرائه ثم زهد وترك الملك ولبس المسوح وخرج على وجهه فلم يوقف له على أثر، حكى عن سبب زهده أنه لما بنى الخورنق والسدير أشرف عليهما يوما فأعجبه ما أوتى من الملك والسعة ونفوذ الأمر وإقبال الوجوه عليه فقال لأصحابه: هل أوتى أحد مثل ما أوتيت أنا؟ فقال له حكيم من حكماء أصحابه: أهذا الذى أوتيت شىء لم يزل ولا يزول أو شىء كان لمن قبلك وزال عنه وصار إليك. قال: بل شىء كان لمن قبلى زال عنه وصار إلىّ وسيزول عنى فقال الحكيم: فسررت بشىء تذهب عنك لذته وتبقى تبعته؟ قال فأين المهرب؟ قال: إما أن تقيم وتعمل بطاعة الله أو تلبس أمساحاً وتلحق بجبل تعبد ربك فيه وتفرّ من الناس حتى يأتيك أجلك. قال: فإذا فعلت ذلك فمالى؟ قال حياة لا تموت وشباب لا يهرم وصحة لا تسقم وملك جديد لا يبلى. قال: فأى خير فيما يفنى؟ والله لأطلبن عيشا لا يزول أبداً فانخلع من ملكه ولبس الأمساح وساح فى الأرض وتبعه الحكيم وصارا يسيحان ويعبدان الله تعالى حتى ماتا وفيه يقول عدىّ بن زيد:

وتفكر رب الخورنق إذا أشرف يوما وللهدى تفكير
سره ماله وكثرة ما يملك والبحر معرضا والسدير
فارعوى قلبه وقال فما غبطة حيّ إلى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والنعمة وارتهم هناك القبور
ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

ولما تزهد النعمان تولى الأمر بعده ابنه المنذر الأول سنة عشرين وأربعمائة

للميلاد وكان أهل فارس ولوا عليهم شخصا من ولد أزدشير وعدلوا عن بهرام لنشئه بين العرب وخلوّه من آداب العجم فاستنجد بهرام بالعرب فجهز المنذر لبهرام المذكور وقام يطلب له ملكه وحاصر تخت الملك فأذعن له فارس وأطاعوه واستوهب المنذر ذنوبهم من بهرام فعفا عنهم واجتمع أمره ورجع المنذر إلى بلاده واشتغل باللهو إلى أن مات سنة اثنتين وستين وأربعمائة ميلادية، فقام بالأمر بعده النعمان الثانى وكان وزيره عدّى بن زيد النصرانى وكان عدّى المذكور ورعاً فتزهد ولبس المسوح سنة تسع وستين وأربعمائة للميلاد ويروى عن سبب تزهده أنه خرج متصيدا ومعه عدّى بن زيد وزيره المذكور فمرا بشجرة فقال عدّى: أيها الملك أتدرى ما تقول هذه الشجرة؟ قال لا. قال: إنها تقول:

من رآنا فليحدّث نفسه أنه موف على قرب زوال
فصروف الدهر لا تبقى لها ولما تأتي به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال
والأباريق عليها فدم وجياد الخيل تجري بالجلال
عمروا الدهر بعيش حسن ثم أفنى دهرهم غير عجال
عصف الدهر بهم فانقرضوا ولذاك الدهر حال بعد حال

ثم جاوزا الشجرة فمرا بمقبرة فقال له عدى: أتدرى ما تقول هذه المقبرة؟ قال لا. قال: فإنها تقول:

أيها الركب المنجونا على الأرض المجدّونا
كما أنتم كذا كنا كما نحن تكونونا

فقال النعمان: قد علمت أن الشجرة والمقبرة لا يتكلمان وقد علمت أنك إنما أردت عظتى فجزاك الله عنى خيرا فما السبيل الذى تدرك به النجاة. قال: تدع عبادة الأوثان وتتنصر وتعبد الله تعالى وحده. قال وفى هذا النجاة؟ قال: نعم. قال: فترك عبادة الأوثان وتنصر حينئذ وأخذ فى العبادة والاجتهاد ثم تزهد كما تقدم فملك مكانه أخوه الأسود وهو الذى انتصر على عرب الشام وأسر عدة من ملوكهم ثم مات سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، فملك بعده أخوه المنذر الثانى سبع سنين ثم ابن أخيه فى سنة ثمان وتسعين وهو النعمان الثالث ثم استخلف أبو يعفر بن علقمة الزميلى سنة ثلاث وخمسمائة. قال أهل التاريخ: وزميل بطن من لخم ثم ملك امرؤ

القيس الثالث سنة ست وخمسمائة وامرؤ القيس هذا هو الذى غزا بكرا يوم دارة فى دارها فكانت بكر قبله تقيم أود ملوك الحيرة وتعضدهم وهو أيضاً بانى الغريب والضبر وفيهما يقول جبير بن بلوغ:

ليت شعري متى تخب بنا النا　　قة نحو الغريب والضبر

ولما مات امرؤ القيس الثالث قام بعده المنذر الثالث ابنه وهو ذو القرنين لضفيرتين كانتا له من شعره وأمه ماء السماء. قال الجنابى: وكان هذا لقبا لأبى عامر الأزدى لأنه كان يقيم ماله مقام القطر أى عطاء وجودا فغلب على بنيه لأنهم خلف منه وذكر أن مرة بن كلثوم قتله لخمسين سنة من ملكه وذلك سنة اثنتين وستين وخمسمائة ثم ملك من بعده الحارث بن عمرو الكندى الملقب بآكل المرار وكان شديد السلطان غزا تميما فى دارها فقتل مائة من بنى دارم يوم دارة الثانى بأخيه أسعد بن المنذر وكان ملكه ست عشرة سنة أى إلى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة للميلاد ثم ولى شقيقه قابوس أربع سنين فى زمن أنوشروان وكان فيه لين وكان ضعيفاً مهينا قتله ابن يشكر وسلبه سنة ثنتين وثمانين ثم ملك المنذر الرابع أخوه ثلاث سنين ثم النعمان الرابع أبو قابوس سنة ثنتين وثمانين وهو صاحب النابغة الذبيانى الذى بنى الغريين وتنصر أى اعتنق الديانة النصرانية.

وكان المنذر بن ماء السماء الملقب بأبى قابوس هذا قد نادمه رجلان من بنى أسد أحدهما خالد بن المضلل والآخر عمرو بن مسعود فأغضباه فى بعض المنطق فأمر بأن يحفر لكل واحد حفرة بظهر الحيرة ثم يجعلا فى تابوتين ويدفنا فى الحفرتين ففعل ذلك بهما حتى إذا أصبح سأل عنهما فأخبروه بهلاكهما فندم على ذلك وغمه جداً. وفى عمرو بن مسعود وخالد بن المضلل المذكورين يقول شاعر بنى أسد:

ياقبر بين بيوت آل محرّق　　جادت عليك رواعد وبروق

أما البكاء فقل عنك كثيره　　ولئن بكيت فللبكاء خليق

وركب المنذر حتى نظر إلى قبرهما فأمر ببناء الغريين عليهما فبنيا وجعل لنفسه يومين فى السنة يجلس فيهما عند الغريين يسمى أحدهما يوم نعيم والآخر يوم بؤس فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الإبل شوما أى سودا وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان أسود ثم يأمر به فيذبح ويغرى بدمه الغريين فلبث على هذا الحال برهة من دهره حتى مر به رجل من طيء يقال له حنظلة بن أبى عفراءِ كان آوى النعمان فى خبائه يوم خرج إلى الصيد وانفرد عن أصحابه بسبب

المطر فرحب به حنظلة وهو لا يعرفه وذبح له شاة فأطعمه من لحمها وسقاه لبنا فلما نظر إليه النعمان وافدا إليه ساءه ذلك جداً. وقال لـه: يا حنظلة هلا أتيت فى غير هذا اليوم؟ فقال: أبيت اللعن لم يكن لى علم بما أنت فيـه. فقال له: أبشر بقتلك. فقال له: والله لقد أتيتك زائراً ولأهلى من خيرك مـائرا فلا تكن ميرتهم قتلى. فقال لابد من ذلك فاسـأل حاجة أقـضها لك. فـقال تؤجلنى سنة أرجع فيـها إلى أهلى وأحكم من أمرهم ما أريد ثم أصير إليك فأنفذ فىّ حكمك. فقال: ومن يتكفل بك حتى تعود؟ فنظر فى وجوه جلسائه فعرف منهم شريك بن عمرو فأنشد:

ياشـــــريك يا بـن عــــمــــرو	يـا أخــــا من لا أخــــا لـه
ياأخـــا شـــيـــبـــان فك الـــ	ـــيـــوم رهنـا قــــــد أنالـه
يـا أخــــا كل مــــصــــاب	وحــــيــــا من لا حــــيــــا له
إن شــــيــــبـــان قــــبـــيل	أكــــــــرم الله رجــــــالـه
وأبوك الخــــيــــر عـــمـــرو	وشــــراحــــيل الحــــمــــاله
رقــــيـــاك الـيــــوم فى المجـــ	ـــد وفـى حــــسن المقـــالـه

فوثب شريك. وقال: أبيت اللعن يدى بيده ودمى بدمه وأمر للطائى بخمسمائة ناقة. وقـد جعل الأجل عامـا كاملا من ذلك اليـوم إلى مثله من القابل فلمـا حال الحول وقد بقى من الأجل يوم واحد. قال النعـمان لشريك: ما أراك إلا هالكا غدا فداء لحنظلة فقال شريك:

فـإن يك صـــدر هذا اليـوم ولى ... فـــإن غـــدا لـناظره قــــريب

فذهب قوله مثلاً ولما أصبح النعمان وقف بـين قبرى نديميه وأمر بقتل شريك. فقال له وزراؤه: ليس لك أن تقتله حتى يستوفى يومه فـتركه النعمان. وكان يشتهى أن يقتله لينجو الطـائى فلما آذنت الشمس بالمغيب قام شـريك مجردا فى إزاره على النطع والسياف بجانبه. وكان النعمان قد أمر بقتله فلم يشعر إلا وراكب قد ظهر فإذا هو حنظلة الطائى تكفن وتحنط وجاء بنادبته فلما رآه النعـمان. قال ما الذى جاء بك وقد أفـلت من القتل؟ قـال الوفاء: قـال: وما دعـاك إلى الوفاء؟ قـال: إن لى دينا يمنعنى من الغدر. قال: ومـا دينك؟ قال النصرانية. قال: فـأعرضها علىّ فعـرضها عليـه فتنصـر النعمـان وترك تلك السنة من ذلك اليوم وعـفا عن شـريك والطائى. وقال: ما أدرى أيكمـا أكرم وأوفى أهذا الذى نجا من السيف فعاد إليه أم هذا الذى

ضمنه وأنا لا أكون ألأم الثلاثة؟ قال الميدانى: وتنصر مع النعمان أهل الحيرة أجمعون، وبنى النعمان فى حاضرة ملكه الكنائس العظيمة ثم قتله كسرى بن هرمز أبرويز سنة أربع وستمائة للميلاد وانقطع الملك عن لخم ولم يلبث أن ظهر الإسلام بعد زمان، وكان آل جفنة عمال القياصرة على عرب الشام، كما كان المناذرة آل نصر فى آخر أمرهم عمالا للأكاسرة على عرب العراق وأصلهم من اليمن من الأزد بنى كهلان. قال أهل التاريخ: لأن الأزد لما أحست بمأرب انتقاض العرم وخشيت السيل تفرقت فتشاءم قوم فنزلوا على ماء يقال له غسان فصيروه شربهم فسموا غسان ثم أنزلهم ثعلبة بن عمرو الغسانى ببادية الشام والملوك بها من قبل القياصرة، وكانوا يدينون بالنصرانية فلما نزلت غسان بأرض الشام. كان لها قوم من سليح فضربوا على الغساسنة الإتاوة وكان الذى يلى جبايتها رجلا منهم اسمه سبيط فسار لجبايتها فاستبطؤه فقصد ثعلب كبيرهم. وقال له: لتعجلن لى الإتاوة أو لآخذن أهلك وكان ثعلب حليما. فقال: هل لك فيمن يربح عليك بالإتاوة؟ قال: نعم. قال: عليك بأخى جذع بن عمرو وكان جذع فاتكا فأتاه سبيط وخاطبه بما خاطب به ثعلبة فخرج عليه ومعه سيف مذهب. وقال: فيه عوض من حقك إلى أن أجمع لك الإتاوة. قال: نعم. قال. فخذه فتناول سبيط جفن السيف واستل جذع نصله وضربه به فقيل خذ من جذع ما أعطاك فذهبت مثلاً فوقعت الحرب بين سليح وغسان فأخرجت غسان سليحا من الشام وصاروا ملوكا واستقرّ ملك الغساسنة أربعمائة سنة ونيفا وكان أول ملوكهم جفنة بن عمرو المذكور وآخرهم جبلة بن الأيهم وهو الذى بنى مدينة جبلة بين طرابلس واللاذقية وسماها باسمه وكان قد أسلم فى زمن عمر بن الخطاب عند افتتاح الشام فسار إلى مكة يريد الحج بمائتين وخمسين نفرا من أصحابه فلما قرب من المدينة قلد أعناق خيله بقلائد الفضة والذهب ووضع تاجا على رأسه فلما بلغ عمر بن الخطاب قدومه تلقاه بموكب عظيم ورفع مقامه حتى كان يوم الطواف فبينما جبلة يطوف بالبيت إذ وطىء رجل من بنى فزارة طرف إزاره فانحل عنه الإزار فغضب جبلة من ذلك ولطم الفزارى لطمة هشم بها أنفه فتعلق به الرجل وانطلق إلى عمر ودمه يسيل على وجهه وشكا إليه حاله. فقال عمر لجبلة: أنت فى خيرة إما أن يلطمك هذا الرجل كما لطمته أو تفتدى اللطمة منه بالمال. فقال جبلة لعمر: أفلا يفضل عندكم ملك على سوقة؟ قال: كلا بل كلاهما فى الحق سيان فغضب جبلة من ذلك وصبر إلى الليل فاجتمع بغلمانه وخرج بهم حتى لحق بالشام وارتد إلى دينه ثم سار من هناك إلى قيصر وأقام عنده فتشعبت أولاده فى تلك البلاد

وتسموا بالأرنؤد. قلت: وقد عدّ أهل النقد ما وقع من عمر فى هذه الحادثة من الأسباب التى ترتب عليها شيء فى الإسلام.

ومن ملوك العرب ملوك بنى كندة الذين منهم امرؤ القيس الشاعر وهم من بنى زيد بن كهلان. قال أصحاب التاريخ: كانت كندة قبل أن يملك حجر عليهم بغير ملك فأكل القوى منهم الضعيف حتى ملك حجر. وكان تبع حين أقبل سائرا إلى العراق استعمله عليهم فسدّد أمورهم وساسهم أحسن سياسة وانتزع من اللخميين أرضهم وبقى وحده فى مملكته مطاعا لحسن سيرته إلى سنة ثلاث وخمسمائة للميلاد. ثم ملك بعده ابنه المقصور لأنه اقتصر على ملك أبيه ثم استخلفه الحارث وهذا عظم أمره وكبر شأنه حتى طرده أنوشروان وتبعته تغلب وعدة قبائل فظفروا بأمواله وبأربعين نفسا من بنى حجر فقتلهم المنذر عن آخرهم وكان منهم ابنان من ولد الحارث وفى ذلك يقول امرؤ القيس:

بنو أسد قتلوا ربهم ... ألا كل شىء سواه جلل

ثم استنجد امرؤ القيس ببكر وتغلب على بنى أسد فأنجدوه وهرب بنو أسد منهم فتبعهم فلم يظفر بهم ثم تخاذلت عنه بكر وتغلب وتطلبه المنذر بن ماء السماء فتفرقت جموع امرئ القيس خوفاً من المنذر وخاف امرؤ القيس من المنذر وصار يدخل على قبائل العرب وينتقل من أناس إلى أناس حتى قصد السموآل بن عادياء اليهودى فأكرمه وأنزله وأقام امرؤ القيس عند السموآل ما شاء الله ثم سار امرؤ القيس إلى قيصر ملك الروم مستنجدا به وأودع دروعه عند السموآل بن عادياء المذكور ومر على حماة وشيزر وقال فى مسيره قصيدته المشهورة:

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه ... والحق أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما ... نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

ومات امرؤ القيس بعد عوده من عند قيصر عند جبل يقال له عسيب ولما علم بموته هناك قال:

أجارتنا إن الخطوب تنوب ... وإنى مقيم ما أقام عسيب

ولما مات امرؤ القيس سار الحارث بن أبى شمر الغسانى إلى السموأل وطالبه بدروع امرئ القيس وماله عنده وكانت تلك الدروع مائة. وكان الحارث قد أسر ابن السموآل فلما امتنع السموأل عن تسليم ذلك إلى الحارث. قال الحارث: إما أن تسلم

الدروع وإما قتلت ابنك. فقال السموأل: لست أخفر ذمتى فافعل ما شئت فذبح ابنه والسموأل ينظر إليه وانصرف الملك على يأس فضرب العرب به المثل فى الوفاء.

أما العرب المستعربة الذين هم القسم الثالث وهم بنو عدنان بن إسماعيل فكانوا قد نزلوا بالحجاز وتولوا سدانة الكعبة وكانت الحجاز والكنان ديار العمالقة وكان لهم ملك هناك وكانت جرهم من تلك الطبقة، وكانت ديارهم اليمن مع إخوانهم من حضرموت وأصاب اليمن قحط ففروا نحو تهامة يطلبون الماء والمرعى. قال أصحاب التاريخ: وعثروا فى طريقهم بإسماعيل مع أمه هاجر فاحتلوا أسفل مكة واقتتلوا مع العمالقة فأبادوهم ونشأ إسماعيل بين جرهم وتكلم بلغتهم وتزوّج منهم.

قلت: وهذا القول غير معوّل عليه عند جماعة من المتأخرين وتوفى لمائة وثلاثين سنة من عمره ولم يزل أمرجرهم يعظم بمكة ويستفحل حتى ولوا البيت الحرام وكانوا ولاته وحجابه وولاة الأحكام بمكة. ولما طالت ولاية جرهم استحلوا من الحرم أموراً عظاماً واستخفوا بحرمة البيت العتيق فأبادهم الله. قالوا: لأنه لما خرب سدّ مأرب سار عمرو بن عامر وقومه من بلد إلى بلد لا يطأون بلدا إلا غلبوا عليها فلما قاربوا مكة أبت جرهم أن تفسح لهم واستكبروا فى أنفسهم. وقالوا: ما نحب أن تنزلوا فتضيقوا علينا مراتعنا ومواردنا فارحلوا عنا حيث أحببتم فلا حاجة لنا بجواركم فاقتتلوا ثلاثة أيام وانهزم جرهم فلم يفلت منهم إلا الشريد فيهدر دمه وذلك سنة سبع ومائتين للميلاد، ثم تفرقت قبائل اليمن وانخزعت خزاعة بمكة فولوا أمر مكة وحجابة الكعبة وسألهم بنو إسماعيل السكنى معهم فأذنوا لهم وأقاموا عليهم لحيا وهو ربيعة بن حارثة ملكا. وكان فيهم شريفاً سيدا مطاعا وبلغ بمكة من الشرف ما لم يبلغ عربى قبله وذهب اسمه فى العرب كل مذهب وقوله فيهم دينا متبعا. قال أصحاب التاريخ: وكان أول من أطعم الحاج بمكة سنائف الإبل ولحمانها على الثريد وكسا فى تلك السنة جميع حاج العرب كل واحد بثلاثة أثواب من برود اليمن. وهو الذى بحر البحيرة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامى، وسيب السائبة، ونصب الأصنام حول الكعبة فكانت قريش والعرب تستقسم عنده بالأزلام وهو أول من غير الحنيفية دين إبراهيم.

وأقامت خزاعة ثلثمائة سنة فى سدانة البيت حتى قام قصىّ القرشىّ من بنى إسماعيل وعظم شرفه فرأى أنه أحق بالكعبة وبأمر مكة. وكانت ولاية الكعبة لأبى غبشان الخزاعى فباعها من قصى بزق خمر فقيل فيه أخسر من صفقة أبى غبشان ثم دعا قصىّ إليه رجالات قريش وأجمع لحرب خزاعة فتناجزوا وكثر القتل ثم صالحوه

على أن يحكموه الكعبة. وكان ذلك سنة سبع وخمسمائة للميلاد فصار لقصيّ لواء الحرب وحجابة البيت وتيمنت قريش برأيه. وصرفوا مشورتهم إليه فى قليل الأمور وكثيرها واتخذوا دار الندوة إزاء الكعبة فكانت مجتمع الملأ من قريش فى مشاوراتهم ومعاقدهم ثم تصدّى لإطعام الحاج وفرض على قريش خراجاً يؤدونه وما زال على هذا الحال حتى مات وقام بالأمر بعده بنوه بالقيادة فى كل موسم حتى جاء الإسلام.

وكان فى الجاهلية من كبارهم وأشرافهم بيوت معلومة يشار إليها. ويقال: إن أكبرهم وأشرفهم عبد مناف من ولد قصى بن كلاب القرشى وبنوه عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ثم كانوا كذلك فى الإسلام. وكان عبد مناف يدعى عندهم أيضاً القمر والسيد والفهد واسمه المغيرة وإخوته عبد الدار وعبد العزى وكان اسمه أوّلاً عبد مناة بن كنانة بن خزيمة فأحيل إلى عبد مناف ومن أشرافهم أيضاً عبد المدان بن الريان بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة الحارثى رهط من بنى الحرث بن زياد وأهل بيته بنو قنان وأولاده أخوال بنى العباس. قالوا: وهم من أشراف العالم وأكابر الدنيا وبه يضرب المثل للرجل العظيم. فيقال أشرف من ابن عبد المدان. قال لقيط بن زرارة:

شربت الخمر حتى خلت أني ... أبو قابوس أو عبد المدان
أسير في بني عبس بن زيد ... رخيّ البال منطلق اللسان

وكان العرب يعدون البيوتات المشهورة الكبيرة المعروفة بالشرف من القبائل بعد بيت هاشم الذى تقدم ذكره فى قريش ثلاثة بيوت. وقيل سبعة أولها بيت حذيفة بن بدر الفزارى وبيت قيس وبيت آل زرارة بن عدّى الداريين وبيت تميم وبيت آل ذى الجدّين بن عبد الله بن همام وبيت شيبان وبيت بنى الديان من بنى الحرث بن كعب بيت اليمن، وأما كندة فلا يعدّون من أهل البيوتات. وإنما كانوا ملوكاً كما تقدم أما علو شأن القرشيين فقد كان مترتباً على أن خزانة الكعبة كانت بيدهم فأثروا ثم نمت ثروتهم بالتجارة وكانوا من الدهاقين فيها فأصبح لهم بذلك ضرب من السؤدد وعلو الكلمة على باقى القبائل وزادهم مكانة أن سوق عكاظ كانت تقام ببلدهم مكة وكانت العرب تأتيها من كل صوب وحدب لا للتجارة فقط بل للمفاخرة وإثارة الحرب وإبرام الصلح وفعل ما يشجر بينها كما سيذكر ذلك مفصلا فى محله.

(الفصل الثانى)

(فى أديان العرب فى الجاهلية)

كانت العرب فى أول أمرها على غير دين مقرر حتى قدم عمرو بن لحى بصنم يقال له هبل فعكفوا على عبادته وبالغوا في ذلك. وكان من أعظم أصنام قريش عندها فكان الرجل إذا قدم من سفر بدأ به على أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده. وكان هبل هذا من خرز العقيق على صورة إنسان وكانت يده اليمنى مكسورة فأدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب وكانت له خزانة للقربان وسبعة قداح يضربون بها إذا مستهم الحاجة ويقولون:

إنا اختلفنا فهب السراحا إن لم تقله فمر القداحا

وزعم قوم أن هبل هذا إنما هو صورة إبراهيم الخليل التى كسرها صاحب الشريعة الإسلامية عندما دخل الكعبة مع ما كسره من بقية الأصنام. قالوا: وكان حولها عدد كثير من صور الملائكة والأنبياء وفيهم إسماعيل نفسه وفى يده الأزلام.

ولما دخل صاحب الشريعة الإسلامية الكعبة يوم فتح مكة كان بها ثلثمائة وستون صنما. قالوا: فجعل يطوف على راحلته ويطعنها ويقول: جاء الحق وزهق الباطل فجمعت ثم أحرقت بالنار. وكان بالكعبة على يمينها حجر أسود وما زال هذا الحجر معظما فى الجاهلية والإسلام يتبرك به الناس ويقبلونه إجلالا، وقد كانت الكعبة قبل ظهور صاحب الشريعة الإسلامية بقرون بيت عبادة للعرب يعظمونه غاية التعظيم ويجلونه وفيه مصاف أصنامهم فلما ظهر الإسلام زاد هذا البيت تعظيما واعتقد جمهور المسلمين أنه قديم العهد جداً ويقال: إنه لما أهبط آدم من الجنة دعا ربه أن يأذن له فى بناء بيت يكون قبلة لصلاته ومطافا لعبادته كما كان قد عهد فى السماء من البيت المعمور الذى يقال له الضراح أيضاً. وهو مطاف الملائكة فأنزل الله عليه مثال ذلك البيت على شكل سرادق من نور وضعه فى مكة تحت البيت المعمور حذو القذة بالقذة والنعل بالنعل كما جاء فى الإصطخْرِىّ وأمر آدم أن يطوف به ويتوجه إليه فلما مات آدم تولى ابنه ووصيه شيث بناءه من حجر وطين على ذلك الرسم ثم انطمس فى الطوفان كما هو مذكور فى كتاب الملل والنحل. فأمر الله تعالى إبراهيم وإسماعيل فجددا بناءه فى موضعه وعلى رسمه ثم ما زال يشعث

فيرمم إلى أن جددت قريش بناءه على الأسس القديمة بعد ميلاد صاحب الشريعة ببضع سنين، وكان قد نصب بأسفل مكة صنم يعرف بالخلصة فكانوا يلبسونه القلائد ويعدّون له الشعير والحنطة ويصبون عليه اللبن ويذبحون له ويعلقون عليه بيض النعام وكانت لهم أصنام أخر نصبوها على السيارات من الكواكب وهى المشترى قيل إن أصل اسمه ذوشرا أى ساطع النور والزهرة وزحل والمريخ وغيرها من الثوابت.

ومن معبوداتهم أيضاً مناة واللات والعزى وكانت مناة على ساحل البحر مما يلى قديد وكانت صخرة تراق عليها دماء الذبائح ويلتمسون منها المطر فى الجدب وكانت اللات أيضاً صنما للشمس إذا مر عليها الحاج لوّثها بالسويق وقيل أصلها من (لاه) أى علا وعظم ومنه اسم الجلالة، وكان الذى اختص من العرب بعبادة اللات ثقيف. وكان بيت عبادتها فى نخلة فوجه صاحب الشريعة فى السنة التاسعة من هجرته المغيرة وأبا سفيان إلى نخلة فكسروا الصنم فحزن الثقفيون أهل الطائف لاسيما نساؤهم أشد الحزن عليه وسألوا صاحب الشريعة عند عقد الصلح أن يدع لهم اللات ولا يهدمها إلى ثلاث سنين فأبى عليهم ذلك فنزلوا إلى شهر فلم يجبهم، ويقال إن تاء اللات ليست أصلية بل هى هاء تأنيث وإنما كره البدل فيها لئلا تشبه اسم الله تعالى كما ذكر ابن درستويه، وأما مناة فكانت تعبدها هذيل وخزاعة ومنازلهما بين مكة والمدينة وقيل عبدتها الأوس والخزرج وثقيف. قاله الشهرستانى وأبو الفداء وغيرهما، وكانت صخرة عظيمة فكسرها رجل اسمه سعد فى السنة الثامنة من الهجرة وهى سنة شؤم على أصنام العرب. ويقال: إن اسم مناة مشتق من أمنى أى أراق لكثرة ما كان يراق عندها من دماء الأضاحى ومن هذا الأصل اشتق أيضاً اسم وادى منى على مقربة من مكة حيث ينحر الحجاج هديهم فى يومنا هذا، وأما العزى فكانت شجرة تعظمها قريش وبنو كنانة ويطوفون بها بعد طوافهم بالكعبة ويعكفون عندها يوماً، قال الكلبى: وكان فى كل واحدة من اللات والعزى شيطان يتكلم ويترآى للسدنة وهم الحجبة وذلك من صنيع إبليس وكيده وكان بنو حنيفة فى الجاهلية قد اتخذوا إلهاً عبدوه دهراً طويلاً ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقيل فى ذلك:

أكلت حنيفة ربها   زمن التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم   سوء العقوبة والتباعة

ومن أديانهم المجوسية والصابئية وقد نصب الصابئية بحسب تلك الآراء أصنام الذهب للشمس وأصنام الفضة للقمر ونسبوا المعادن والأقاليم للكواكب وزعموا أن

قوى الكواكب تفيض على تلك الأصنام فتتكلم وتفهم وتوحى للناس وتعلم الناس منافعهم. وكذلك قالوا فى الأشجار التى هى من قسمة تلك الكواكب إذا أفردت تلك الشجرة لذلك الكوكب وغرست له وفعل لها كذا فاضت روحانية ذلك الكوكب على تلك الشجرة فتوحى للناس وتكلمهم فى النوم، ومن مزاعمهم فى هذا المذهب أى الصابئية أن نفس الفاسق تعذب تسعة آلاف دور ثم تصير إلى رحمة الإله الأعلى وقد فرض عليهم فى اعتقادهم ثلاث صلوات أولها قبل طلوع الشمس بنصف ساعة أو أقل من ذلك بحيث ينقضى مع الطلوع ثمان ركعات فى كل ركعة ثلاث سجدات والثانية صلاة الظهر وهى خمس مثل تلك الركعات وسجداتها وتنقضى مع الزوال. والثالثة كالثانية وتنقضى مع الغروب وكان لهم أيضاً ثلاث صيامات فى السنة أولها ثلاثون يوماً . والثانى تسعة أيام. والثالث سبعة. وكانوا يكثرون من تقديم القرابين لآلهتهم ولكنهم لا يأكلون منها شيئاً. بل كانوا يحرقونها وكذلك كانوا لا يأكلون الباقلاء والثوم وبعض البقول والقطانى. قاله أبو الفرج الملطى المعروف بابن العربى وجاء أيضاً فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى. وقد اختلف أهل التاريخ فى تعيين قبلتهم التى كانوا يؤمّونها يومئذ فقال ابن العربى: إنها القطب الشمالى. وقال غيره: إنها القطب الجنوبى. وقال آخر: بل هى مكة. وقال رابع: بل كانوا يستقبلون النجم الذى إليه يصلون، قلت: ولعل الصحيح فى ذلك أنهم لم يكونوا فى أمر القبلة على سنن واحد، وكانوا يحجون على مقربة من حوران بالجزيرة وهى ما بين النهرين ويعظمون الكعبة وأهرام منف زاعمين أن الأهرام مقابر شيث وابنيه إدريس وصابئ ويزعمون أن هؤلاء وضعوا دين الصابئية فكانوا يتقربون عند تلك الأهرام بعجل أسود وديك ويحرقون شيئاً من البخور وكانوا يقولون: إنهم إنما سموا بالصابئة نسبة إلى صابئ ولد شيث المذكور والمرجح عند بعض أهل التاريخ أنهم سموا بهذا الاسم من لفظ صبأت أو صباءوت يعنى الجنود السماوية لعبادتهم إياها ويسميهم أيضاً أهل السياحة بنصارى مارى يوحنا المعمدان وهم يدّعون ذلك أيضاً ولهم ضرب من المعمودية تشبه معمودية النصارى ولذلك كان العرب الآخرون يسمونها المغتسلة. ويقال: إن هذا الدين هو أحد الأديان التى تغاضى عنها صاحب الشريعة الإسلامية بشرط أداء الجزية، ومن أديانهم اليهودية أيضاً فى حمير وكنانة وبنى الحارث بن كعب وكندة. وأما النصرانية فكانت قد انتشرت فيهم وتمكنت تمكنا. قال الفيروزابادى واجتمعت على النصرانية قبائل شتى من بطون العرب بالحيرة وهم العباد وتنصر كثير من ملوك اليمن والحيرة وكذا كان

ملوك غسان كلهم نصارى، وكانت النصرانية فى ربيعة وقضاعة وبهر وتنوخ وتغلب وبعض طيىء وكانت قريش نصبت فى جملة أصنامها فى الكعبة تمثال مريم العذراء أم عيسى المسيح مزوّقا وابنها عيسى فى حجرها قاعداً وذلك فى العمود الذى يلى باب الكعبة ولم تطمس صورتهما لما دخل صاحب الشريعة الكعبة بل بقينا إلى عهد ابن الزبير فاحترقتا فى الحريق. ذكره النويرى والأزرقى، ومن أصنامهم أيضاً إساف فى صورة رجل ونائلة فى صورة امرأة جىء بهما من الشام ووضع أحدهما فى الصفا والآخر فى المروة وزعم العرب أنهما جرهميان وأن إسافا هو ابن عمرو ونائلة بنت سهل ففجرا فى الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين. ذكره ابن الجنابى.

(الفصل الثالث)

(فى علوم العرب وآدابهم)

وكان العرب يفاخرون بعلم لسانهم وأحكام لغتهم ونظم الأشعار وتأليف الخطب وكانوا موصوفين بين الأمم بالبيان فى الكلام والفصاحة فى المنطق والذلاقة فى اللسان وكانت لهم مع ذلك معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك فى أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق. وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله سبحانه شيئاً منه ولا هيأ طباعهم للعناية به. وكان الشعر ديوان خاصة العرب ومنتهى حكمتها والمنظوم من كلامها والمقيد لأيامها والشاهد على حكامها به يأخذون وإليه يصيرون وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أوفرس تنتج. قال الصفدى: بل ما كان للعرب ما تفتخر به إلا السيف والضيف والبلاغة، وكانوا كل حول يتقاطرون إلى سوق عكاظ ويتبايعون ويتناشدون ويتفاخرون ويتعاكظون ولقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة فقيل لها مذهبات. ويقال لها أيضاً معلقات لأنها علقت فى أستار الكعبة، وكان أسلوبهم فى الخطابة مخالفا لخطباء الروم واليونان والفرس. فكانت فقراتهم مثل الجواهر المنثورة لا ارتباط لبعضها ببعض ولذا كانت أكثر ما تروّع مستمعيها بتبريزهم على غيرهم فى هذا الأسلوب فكانوا يزعمون أنه ليس فى الأمم كلها من يعرف فن الخطابة حق معرفته سوى العرب ويتلوهم الفرس.

وكانت عكاظ التى يتفاخرون بأشعارهم فى سوقها قرية بصحراء بين نخلة والطائف على ثلاث مراحل من مكة وكان لها سوق أسبوعية يوم الأحد وسوق سنوية كانت تقوم هلال ذى القعدة ويستمر موسمها عشرين يوماً تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون أى يتفاخرون ويتناشدون. قالوا: وكان من فوائدها أن العرب يتعارفون فى هذه الأسواق ويتحاربون وكانت فرسانهم إذا كانت سوق عكاظ فى الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا أن يتقنعوا حتى لا يعرفوا وإن كانت هذه السوق يؤذن فيها بالتعامل والأخذ والعطاء إلا أنه كان الغرض الأهم منها اجتماع فحول الشعراء والفصحاء والبلغاء من أهل العربية لإبداء نتائج أفكارهم وإظهار محاسن فصاحتهم وبلاغتهم ومثل عكاظ فى ذلك مثل سوق ذى المجاز خلف عرفات ولهم أسواق أخر غير هذه ولكنها كانت غاية فى المهابة والاحترام يزورهم فيها الشعراء من كل صوب وحدب فيقوم الشاعر منهم ويبرز فى الميدان وأرباب المجلس ثابتون فى أماكنهم فينشد الأشعار من قريضه وهم يصغون إلى سماعها منه ويحرصون على التقاطها من فمه بمجرد النطق بها فيحفظونها عن ظهر قلب.

وكان أول ما يبرز الشاعر يظهر بمظهر الشجاعة والحماس ويتماشى قبل أن ينشد الشعر مشية التيه والإعجاب ليتحقق من حماس بنات فكره ثم يصعد إلى مرتفع فينشد بصوت جهورى قصيدته بتمامها بدون أن يقطعها عليه أحد فتارة تكون مرتجلة بالبديهة وتارة يكون قد نظمها بالروية قبل ذلك وهيأها لينشدها فى المجمع ولكن كان الغالب على فحول شعرائهم أنهم كانوا يرتجلون الشعر بدون روية فيأتون فيه بما لا يقتدر غيرهم على الإتيان به ومنهم من كان بخلاف ذلك كما روى عن زهير بن أبى سلمى أنه كان ينظم القصيدة فى أربعة أشهر ويهذبها بنفسه فى أربعة أشهر أخرى ويعرضها على الشعراء من أصحابه فى أربعة أشهر ثالثة فلا يشهرها حتى يأتى عليها حول كامل ولذلك كانت تسمى قصائده بالحوليات ومع هذا فقد قيل إنه كان أشعر الجميع، وكان إذا فرغ الشاعر من الإنشاد أمعن الحاضرون النظر فى شعره فإما أن يستحسنوه وإما أن يعيبوه.

وكان الشاعر يجلس جلسة خطيب للاستراحة ثم يعود إلى إتمام إنشاده بهمة ونشاط ويجلى عن بنات أفكاره فرائد فيكتب فى ذلك المحفل ما يستحسن من القصائد بحروف الذهب على منسوج الحرير ولهذا بقيت شهرة المعلقات السبع محفوظة إلى هذا الحين وقد مضى عليها أجيال طويلة. وكان يجتمع بسوق عكاظ أيضاً سادات العرب وملوكهم ورؤساء قبائلهم وعرفاؤهم. وكان لمدح الشعراء

وقدحـهم تأثير فى النفوس يتـرتب عليه كثيـر من الأمور الخطيرة كـالخفض والرفع والإعزاز والإذلال وغـير ذلك. قيل: إن الأعشى كـان يأتى عكاظ فى كل سنة فمر على بنى كلاب. وكان المحلق الكلابي فقيرا خامل الذكر وله بنات لم يخطبهن أحد من الأزواج رغبـة عن أبيهن لفـقره. فقـالت له امرأته ما يمنـعك يا ابن كلاب من التعرض لهذا الشاعر والتعرف به وإكرامه فما رأيت أحدا آواه إليه وجذبه إلا وأكسبه خيرا. فقـال: ويحك ما عندى إلا ناقتى. فقالت: الله يخلفهـا عليك فتلقاه قبل أن يسبق إليه أحـد من الناس. وكان الأعشى بصيراً وله ابن يقـوده فأخذ المحلق بخطام ناقة الأعشى. فقال الأعشى: من هـذا الذى غلبنا على خطامنا؟ فقيل المحلق: فقال شـريف كريم ثم سـلمه ابنه إليـه فـأنزله ونحـر له المحلق ناقتـه وأحـاطت به بناته يخدمنه. فقال ما هذه الجوارى حولى؟ قـال: بنات أخيك وهنّ ثمان نصيبهنّ قليل. فقال الأعشى: هل لك حاجة؟ قال المحلق: تشيد بذكرى فلعلى أشهر فتخطب بناتى فنهض الأعشى من عنده ولم يقل فيه شيئاً. فلما وافى سوق عكاظ إذ هو بمكان قد اجتمع الناس عليه فأنشد قصيدته القافية التى منها:

لعـمري لقـد لاحت عيـون كثيرة إلى ضـوء نار باليـفـاع تحـرّق

تشب لمقـرورين يصطليـانهـا وبَات عـلى النـار الندى والمحـلق

فاشتهرت هذه الأبيات فى العرب وما أتت على المحلق سنة حتى زوج البنات. وكانت تضرب للنابغة الذبيانى قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ وتأتيه الشعراء فتنشده أشعارها وأوّل من أنشده الأعشى ثم أنشدته الخنسـاء فكان للنابغة التقدم على جميع شعراء عصره وهو من فحول الطبقـة الأولى المقدمين على سائر الشعراء. قال ربعى ابن خراش: قال لنا عمر ﷺ يامعشر غطفان من الذى يقول:

أتيـتك عـاريا خلقـا ثيـابي على خـوف تظن بـي الظنـونا

قلنا النابغة. قـال: ذلك أشعر شعرائـكم. وقال عمر بن المنتـشر المرادى وفدنا على عبد الملك بن مروان فدخلنا عليه فقـام رجل فاعتذر إليه من أمر وحلف عليه. فقال له عبـد الملك: أما كنت حريا أن تفعل ولا تعتـذر؟ ثم أقبل على أهل الشام. فقال: أيكم يروى من اعتذار النابغة إلى النعمان

حلفت فـلم أترك لنفـسك ريبـة وليس وراء الله لـلمـرء مـذهب

فلم يجد فيهم من يرويه فأقبل علىّ فـقال أترويه؟ قلت: نعم فأنشدته القصيدة كلها. فقـال: هذا أشعر العرب. وكان الشاعر المجـيد يحسب فخراً لقبـيلته وكانت

القبيلـة إذا نبغ فيها شاعـر صنعت الأطعمة وأتت القبـائل فهنأتها بذلك واجـتمعت النساء يضربن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعـراس وتتباشر الرجال والولدان لأنه يكون حمـاية لأعراضـهم وذودا عن أحسابـهم وتخليدا لمآثرهم وصـيانة لنسـائهم وإشادة بذكرهم. ذكره ابن رشيق فى العمدة. وكان العرب إذا أتوا الموسم يضعون سلاحهم عند أهل السدانـة من قريش قبل دخـولهم فى السوق ومن لم يضع سـلاحه عندهم عرض نفسه للقتل وكانت هذه السوق أيضاً مجمع مكارم الأخلاق كما كانت مجمع الفصاحـة والفروسية فقد حكى أن عـامر بن الطفيل العامرى النجـدى أحد أشراف الشعرّاء كان ينادى مناديه فى هذه السوق هل مـن راحل فنحمله أو جائع فنطعمه أو خائف فنؤمنه؟ ومن شعره:

فـإني وإن كنت ابن فـارس عامـر ... وسـيدها المشـهور في كل مـوكب
فـمـا سـوّدتني عـامـر عن وراثة ... أبى الله أن أسـمـو بأم ولا أب
ولكننـي أحـمي حـمـاها وأتقى ... أذاها وأرمـى من رمـاها بمنكب

وكانت أيضـاً هذه السوق فى أيام هذا الموسم كـديوان ملوك العرب. فقـد كان بعض ملوكهم يأخـذ مالهم من الإتاوة والمرتبات على القبـائل كل سنة بالموسم مثل جذيمة العبسى فإنه كـان يأخذ الإتاوة من هوازن فى هذه السوق فإذا تأخروا هدّدهم بالحرب وكانت العرب تقـيم بهذه السوق شهر شوال جميعـه أو عشرين يوماً منه ثم تنتقل من تلك السوق بعد انفضاضها إلى سوق مجنة فتقيم فيها عشرين يوماً من ذى القعدة ثم تنتـقل منها إلى سوق ذى المجاز فتقيم فـيها إلى أيام الحج وكـانت هذه السوق أيضاً من مسببات القتـال بين العرب كما وقع ذلك فى الفجار الأول والفجار الثانى. روى أن سبب الفجار الأول أن بدر بن معشر الغفارى كان له مجلس يجلس فيه فى سـوق عكاظ ويفتخر على النـاس فبسط يوماً رجله. وقـال: أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز منى فليضربها بالسيف فوثب عليه رجل من أشراف العرب فضربه بالسيف على ركبته فأدماهـا فاقتتلوا. وسبب الـفجار الثانى أن امرأة من بـنى عامر كانت جـالسة بسـوق عكاظ فأطاف بهـا شاب من قريـش من بنى كنانة فسـألها أن تكشف عن وجهها فأبت فجلس خلفها وهى لا تشعر وعقد ذيلها بشوكة فلما قامت وانحسر ذيلهـا من خلفها ضحك الناس وقـيل لها: قد بخلت بكشف وجـهك فبان غيره فنادت يا آل عامر فثاروا بالسلاح ونادى الشاب يابنى كنانة فثاروا كذلك فقامت الحرب بين الفـريقين على ساقها. ثم فـجار ثالث ثم رابع قيل إن صاحـب الشريعة

الإسلامية شهد هذا الفجار وهو فى الرابعة عشرة من عمره. وقد خرج مع عمومته ورمى فيه بالنبل. رواه ابن سعد.

وأما الكتابة فقد حكوا أن ثلاثة نفر من طيئ وكانوا على دين المسيح وضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فنظمه قوم من الأنبار وجاء الإسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير بضعة عشر إنساناً ولقلة القراطيس عندهم عمدوا إلى كتف الحيوان فكتبوا عليها. وكان الناس فرقتين أهل كتابة وأميون والأمى من لا يعرف الكتابة فكان اليهود والمسيحيون بالمدينة والأمّيون وهم الوثنيون بمكة.

وأما الطب عندهم فقد كانت معارفهم فيه قليلة جداً وكانت تغلب عليهم التجربة والاستقراء أو التقليد أحياناً. وكان المشهور من أطبائهم رجل يقال له لقمان ابن عاد يزعمون أن أباه عاد بن لجين بن عاد بن عوص بن اران بن سام بن نوح. وأن لقمان المذكور عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة وذلك عمر سبعة أنسر. ثم آخر من تيم الرباب اسمه ابن حزيم ويضربون به المثل بالحذاقة فى الطب فيقولون لمن أرادوا وصفه بذلك أطب من ابن حزيم وهو أطب العرب عندهم ويفضلونه على الحرث. قال أوس بن حجر:

فهل لكم فيها إلىّ فانني بصير بما أعيا النطاسىّ حزيما

أما الحرث المذكور فهو الحرث بن كلدة من بنى ثقيف من أهل الطائف رحل إلى أرض فارس وأخذ الطب عن أهله بجند يسابور وغيرها فى الجاهلية وطبب فى أهل فارس وحصل مالا ثم تاقت نفسه إلى الرجوع إلى بلده فرجع وقيل إنه مات سنة ثلاث عشرة للهجرة وقيل سنة عشرين مسموما، ومن أطبائهم أيضاً ابن أبى رومية التميمى. وكان معاصراً للحرث المذكور ونصر بن الحرث بن علقمة بن كلدة ابن عبد مناف بن عبد الدار بن قصىّ. كان من الجاهلية أخذ أسيرا يوم بدر فقتل وهؤلاء كانوا أشهر أطباء العرب فى الجاهلية. وقد بقى من كلامهم فى الطب ما قاله لقمان بن عاد المتقدّم: كل داء حسم بالكى ولذلك قالوا فى أمثالهم: آخر الطب الكى، وما قاله الحرث بن كندة أيضاً: من سره البقاء ولا بقاء فليباكر الغداء وليخفف الرداء وليقل من غشيان النساء. قال بعضهم: يريد بخفة الرداء أن لا يكون عليه دين ومن أنواع معالجتهم أيضاً معالجة الأحول بإدامة النظر إلى حجر الرحى فى حال دورانها يزعمون أن العين تستقيم به ويعالجون الخدر وهو التشنج الذى يعترى الأعضاء فلا تطيق الحركة بأن يدعو صاحبه أحب الناس إليه. قال بعضهم: وعليه قول بعضهم يخاطب محبوبته:

رآني الله ياسلمى حـياتي وفي يوم الحساب كما أراك
إلى كم تهجرين فتىً معنّى إذا خدرت له رجل دعاك

فلما جاء الإسلام اتسع نطاق الطب وعلت منزلته وتعلمه الكثير من العرب عن علماء النصرانية واليهودية والفارسية ونبغوا فيه وتفشى بينهم.

وأما السيف والفروسية فقد كانوا غاية فى التمرن عليهما والندب إليهما وذلك لكثرة ما كان يشجر بينهم وكانوا يقولون: إن الله ميزهم بأربعة أبدلهم العمائم من التيجان والخيام من الدور والجدران والسيوف من الخنادق والشعر من كتب الشرائع ولم يكن لهم فى الجاهلية لعلم العروض قانون يضبط قواعده ويقرر أحواله وإنما تم لهم ذلك بعد ظهور صاحب الشريعة الإسلامية ببضع سنين أى حينما ظهر الخليل بن أحمد الفراهيدى فى خلافة الرشيد العباسى ودوّن أصول العروض. روى الصفدى أن عروضياً بمصر يدعى أبا جعفر جلس يوماً عند مقياس النيل فى سنة لم يرتفع الماء فيها كعادته وكان لذلك يخشى القحط فيها فأخذ ذلك العروضى يقطع بيت شعر على تفاعيله فمر به رجل لم يفهم قصده من هذا التقطيع فظن أنه يتلو سحرا على الماء حتى لا يرتفع فقذفه فى النيل فغرق.

(الفصل الرابع)

(فيما كانت عليه قريش قبل الإسلام)

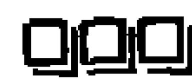
اجتمعت كلمة جماعة من أصحاب التاريخ على أن قريشاً فى الجاهلية اختصوا بكثير من المزايا منها أن اللسان العربى العذب الفصيح الذى نطقت به فحول الخطباء والشعراء هو لسان قريش ومنها أنهم كانوا سكان بيت الله الحرام. ولذلك كانوا دائماً آمنين فى امتيارهم وتنقلاتهم فى رحلتى الشتاء والصيف والناس يتخطفون من حولهم فإذا عرض لهم عارض. قالوا: نحن أهل حرم الله فلا يتعرض لهم أحد. وكان هاشم يؤلف إلى الشام وعبد شمس إلى الحبشة والمطلب إلى اليمن. ونوفل إلى فارس فكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بحبال هؤلاء الأربعة الإخوة ولا يتعرّض لهم أحد. وكان كل أخ منهم قد أخذ حبلاً من ملك ناحية سفره أماناً له كالإجازة. وكانت قبائل قريش قبل ظهور قصى بن كلاب متفرقة فى البوادى فجمعها وأسكنها الحرم وكانت تدعى قبل هذا التجميع النضر بن كنانة فلما جمعهم وأسكنهم فى البيت سموا قريشا من التقريش وهو التجميع، وقال بعضهم: إنما

سميت قريش قريشا لدابة فى البحر هى أعظم دواب البحر خطرا لا تظفر بشىء من دواب البحر إلا أكلته فسميت قريش قريشاً لأنها أعظم العرب فعالا وأعزهم جانبا.

قال بعض أصحاب التاريخ: وأوّل دار بنيت بمكة دار الندوة وتسمى دار المنتدى بناها قصى لتكون مجلس القوم نهارا يجلسون فيها للمشاورة فى الأمور المهمة فلم يكن لهم أمر مهم إلا اجتمعوا فيها وقصى هو الذى بنى المسجد الحرام بأشراف المزدلفة وكان يسرج عليه أيام الحج فسمى مشعرا وأمروا بالوقوف عنده وتم لقريش فى ذلك العهد أن صارت لهم الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة. قالوا: فالحجابة هى سدانة البيت الحرام أى تولية مفتاح بيت الله، والسقاية سقى الحاج كلهم الماء العذب. وكان نادراً بمكة يجلب إليها من الخارج لسقاية الحاج بل وينتبذ لهم التمر والزبيب للشراب أيضاً، وأما الرفادة فهى إطعام الطعام لسائر الحجاج فكانت تمدّ لهم الأسمطة فى أيام الحج، وأما الندوة فهى المشورة فكان يجتمع فيها من قريش وغيرهم من العرب من أهل الرياسة من بلغ فى العمر أربعين سنة ولا يعقد عقد نكاح لقرشى إلا فيها، وأما اللواء فراية معقودة على رمح ينصبونه علامة على اجتماع الجيش لحرب الأعداء فيجتمعون تحت هذه الراية ويقاتلون عندها، والقيادة إمارة الجيش ورياسة الحرب، قيل كانت هذه المناصب كلها لقريش وانتهت إلى عشرة أبطن منها وبقيت لهم فى الإسلام أيضاً. والعشرة الأبطن هم هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم قالوا: فكان من بنى هاشم العباسيون وعبد المطلب يسقى الحجيج وبقى له ذلك فى الإسلام ومن بنى أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش وكانت إذا حفظت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب فإن اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب. وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدّموه، ومن بنى نوفل الحرث بن عامر وكانت إليه الرفادة وهى ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج، ومن بنى عبد الدار عثمان بن طلحة له اللواء والسدانة أى خدمة الكعبة مع الحجابة. ويقال: والندوة أيضاً فى بنى عبد الدار، ومن بنى أسد يزيد بن زمعة بن الأسود وكانت إليه المشورة وذلك أن رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمرحتى يعرضوه عليه. فإن وافقه ولاهم عليه وإلا تخيروا وكانوا له أعواناً واستشهد يزيد المذكور وهو مع صاحب الشريعة بالطائف، وكان من بنى تيم أبو بكر الصديق، وكانت إليه فى الجاهلية الأشناق. وهى الديات والمغرم وكان إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشا صدّقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه، ومن بنى مخزوم

خالد بن الوليد وكانت له القبة والأعنة. فأما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش فى الحرب، ومن بنى عدى عمر بن الخطاب وكانت إليه السفارة فى الجاهلية وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم حرب بعثوه سفيراً وإن نافرهم فى المفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به، ومن بنى جمح صفوان بن أمية وكانت إليه الأيسار والأزلام فكان لا يسبق بأمر عام حتى يكون هو الذى تيسيره على يديه، ومن بنى سهم الحرث بن قيس. وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التى سموها لأصنامهم. قالوا: فهذه الوظائف كلها كانت فى قريش على النحو المذكور.

وكان لبنى هاشم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان النفر فأما حلوان النفر فلكون العرب لم يكونوا ليرضوا فى الجاهلية أن يتملك عليهم ملك فإذا حدثت لهم حرب مع أحد أقرعوا بين أهل الرياسة فمن خرجت عليه القرعة أحضروه صغيراً كان أو كبيراً وأمروه بالنفر للحرب، وكان للعرب جميعاً فى الجاهلية كثير من العوائد والأوابد. وكانوا ينزلونها منزلة عظمى ويتنافسون فى تعظيمها فمنها البحيرة والسائبة والوصيلة والحام والخمر والميسر والأنصاب والأزلام ووأد البنات والرفادة فى الحج (أما البحيرة) فهى ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن، وكان الأخير ذكرا بحروا أذنها أى شقوها وامتنعوا عن ذكاتها ولا تمنع من ماء ولا مرعى (وأما السائبة) فهى أن الرجل إذا أعتق عبدا. قال: هو سائبة فلا يبقى بينهما عقد ولا ميراث (وأما الوصيلة) فتكون فى الغنم فإذا ولدت الشاة أنثى فهى لهم وإن ولدت ذكراً جعلوه لأصنامهم فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلت أخاها فلا يذبحون الذكر لآلهتهم (وأما الحام) فهو الذكر من الإبل كان إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن. قالوا: حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى (وأما الخمر) فهو ما خامر العقل ومنه سميت الخمر خمراً. وكان باعة الخمر فى الجاهلية ينصبون رايات ليعرف مكانهم بها ويسمونها الغاية. وكان العرب يفتخرون بشربها وبالمقامرة أيضاً لأنها من دلائل الجود عندهم وقد بلغ تنافسهم فى شرب الخمر درجة يستدل عليها بما فعله أبو غبشان من بيع مفاتيح الكعبة بزق خمر كما تقدّم بيان ذلك فى محله وما زالت هذه العوائد مرعية بينهم مألوفة فى مذهبهم حتى ظهر صاحب الشريعة الإسلامية محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب القرشى. وكان من أمر تحريمها والنهى عنها ما لا موضع لذكره هنا الآن.



(المقالة الثانية)

(فيما كان بظهور الإسلام وفيه فصول)

(الفصل الأول)

(فى ظهور صاحب الشريعة الإسلامية)

قال أهل التاريخ وابن اسحق عن قيس بن مخرمة وقفاث بن أثيم وابن عباس: إن صاحب الشريعة الإسلامية ولد عام الفيل . وقال ابن الكلبى ولد عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ لاربع وعشرين سنة مضت من سلطان كسرى أنو شروان وولد رسول الله ﷺ سنة اثنين وأربعين من سلطانه وأرسله الله لمضى اثنين وعشرين من ملك كسرى ابرويز بن كسرى هرمز بن كسرى أنو شروان وهاجر لاثنتين وثلاثين مضت من ملك ابرويز، وقال ابن إسحق: ولد رسول الله ﷺ فى يوم الاثنين لاثنى عشر ليلة مضت من ربيع الأول وكان مولده بالدار التى تعرف بدار ابن يوسف، قيل: إن رسول الله ﷺ وهبها عقيل بن أبى طالب فلم تزل فى يده حتى توفى فباعها ولده من محمد بن يوسف أخي الحجاج فبنى داره التى يقال لها دار ابن يوسف وأدخل ذلك البيت فى الدار حتى أخرجته الخيزران فجعلته مسجداً يصلي فيه. وقيل: ولد لعشر خلون منه وقيل لليلتين خلتا منا.

وأول من أرضع صاحب الشريعة ثوبية مولاة أبى لهب بلبن ابن يقال له مسروح وكانت قد أرضعت قبله حمزة بن عبد المطلب وأرضعت بعده أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى فكانت ثوبية تأتى صاحب الشريعة بمكة قبل أن يهاجر فيكرمها

وتكرمها خديجة فأرسلت إلى أبى لهب أن يبيعها إياها لتعتقها فأبى فلما هاجر صاحب الشريعة إلى المدينة أعتقها أبو لهب. قال: ثم أرضعت صاحب الشريعة بعد ثويبة المذكورة حليمة بنت أبى ذؤيب واسمه عبد الله بن الحرث بن شجنة من بنى سعد بن بكر بن هوزان واسم زوجها الحرث بن عبد العزى واسم إخوته ﷺ من الرضاعة عبد الله وأنيسة وخذامة وهى الشيماء عرفت بذلك وكانت الشيماء تحضنه مع أمه حليمة وردته حليمة إلى أمه وجده عبد المطلب وعمره خمس سنين فى قول اهـ.

قال ابن إسحق هلك عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله ﷺ وأم رسول الله ﷺ آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة حامل به. وقال ابن هشام توفى عبد الله أبو رسول الله بعد ما أتى على رسول الله ثمانية وعشرون يوماً. وقال الواقدى: ثبت عندنا أن عبد الله بن عبد المطلب أقبل من الشام فى عير لقريش ونزل بالمدينة وهو مريض فأقام بها حتى توفى ودفن فى دار النابغة الصغرى. وقال ابن إسحق وتوفيت آمنة وله ﷺ ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة وكانت قدمت به المدينة على أخواله من بنى النجار تزورهم فماتت وهى راجعة، وقيل: إن عبد المطلب زار أخواله من بنى النجار وحمل معه آمنة وصاحب الشريعة فلما رجع توفيت بمكة ودفنت فى شعب أبى ذر قيل والأول أصح. ولما سارت قريش إلى أحد يعنى إلى حرب أحد وقلوبهم تلتهب غيظاً من صاحب الشريعة وهم فى أشد ما يكون من النكاية به هموا باستخراج آمنة من قبرها يعني بنبشه فقال بعضهم ان النساء عورة وربما أصاب محمد من نسائكم فكفوا بهذا القول وقال ابن إسحق وتوفى عبد المطلب ورسول الله ﷺ ابن ثمان سنين وقيل: ابن عشر سنين اهـ. ولما مات عبد المطلب صار صاحب الشريعة فى حجر عمه أبى طالب بوصية من عبد المطلب إليه بذلك لما كان يرى من بره به وشفقته وحنوه عليه.

وأما نسبه وأخبار آبائه وأجداده فهو محمد بن عبد الله ويكنى عبد الله أبو قثم وقيل محمد وقيل أحمد بن عبد المطلب وكان عبد الله أصغر ولد أبيه فكان عبد الله وأبو طالب واسمه عبد مناف والزبير وعبد الكعبة وعاتكة وأميمة وبرة ولد عبد المطلب أمهم جميعاً فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمرو بن مخزوم بن يقظة وكان عبد المطلب نذر حين لقى من قريش العنت فى حفر زمزم أنه إن ولد له عشرة نفر

وبلغوا معه حتى يمنعوه لينحرن أحدهم عند الكعبة لله تعالى فلما بلغوا عشرة وعرف أنهم يمنعونه أخبرهم بنذره فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع قال يأخذ كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه ففعلوا وأتوه بالقداح فدخلوا على هبل فى جوف الكعبة وكان أعظم أصنامهم وهو على بئر يجمع فيه ما يهدى إلى الكعبة وكان عند هبل سبعة قداح فى كل قدح كتاب فقدح فيه العقل إذا اختلفوا فى العقل من يحمله منهم ضربوا بالقداح السبعة وقدح فيه نعم للأمر إذا أرادوه يضرب به فإن خرج نعم عملوا به وقدح فيه لا فإذا أرادوا أمرا ضربوا به فإذا خرج لا لم يفعلوا ذلك الأمر وقدح بيه منكم وقدح ملصق وقدح فيه من غيركم وقدح فيه المياه إذا أرادوا أن يحفروا للماء ضربوا بالقداح وفيها ذلك القدح فحيثما خرج عملوا به. وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاماً أو ينكحوا جارية أو يدفنوا جثة أو شكوا فى نسب أحد منهم ذهبوا به إلى هبل وبمائة درهم وجزور فأعطوها صاحب القداح الذى يضربها ثم قربوا صاحبهم الذى يريدون به ما يريدون ثم قالوا ياالهنا هذا فلان بن فلان قد أربنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه ثم يقولون لصاحب القداح: اضرب فيضرب فإن خرج عليه منكم كان وسيطا وإن خرج عليه من غيركم كان حليفاً وإن خرج عليه ملصق كان على منزلته منهم لا نسب له ولا حلف وإن خرج عليه شيء سوى هذا مما يعملون به فإن خرج نعم عملوا به وان خرج لا أخروه عامهم ذلك حتى يأتوه به مرة أخرى ينتهون فى أمورهم إلى ذلك مما خرجت به القداح.

وقال عبد المطلب لصاحب القداح اضرب على بنيّ هؤلاء بقداحهم هذه وأخبره بنذره الذى نذر وكان عبد الله أصغر بنى أبيه وأحبهم إليه فلما أخذ صاحب القداح يضرب قام عبد المطلب يدعو الله تعالى ثم ضرب صاحب القداح فخرج قدح على عبد الله فأخذ عبد المطلب بيده ثم أقبل إلى إساف ونائلة وهما الصنمان اللذان ينحر الناس عندهما فقامت قريش من أنديتها فقالوا: ما تريد؟ قال أذبحه فقالت قريش وبنوه: والله لا تذبحه أبدا حتى تعذر فيه لئن فعلت هذا لا يزال الرجل منا يأتى بابنه حتى يذبحه فقال له المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم والله لا تذبحه حتى تعذر فيه فإن كان فداؤه بأموالنا فديناه وقالت له قريش وبنوه: لا تفعل وانطلق إلى كاهنة بالحجر فسلها فإن أمرتك بذبحه ذبحته وإن أمرتك بمالك وله فيه فرج قبلته فانطلقوا إليها وهى بخيبر فقص عليها عبد المطلب خبره فقالت ارجعوا اليوم حتى يأتينى تابعى فأسأله فرجعوا عنها ثم غدوا عليها فقالت نعم قد جاءنى الخبر فكم

الدية فيكم؟ قالوا: عشر من الإبل وكانت كذلك قالت ارجعوا إلى بلادكم وقرّبوا عشرا من الإبل واضربوا عليها وعليه بالقداح فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا عشراً حتى يرضى ربكم وإن خرجت على الإبل فانحروها فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم فخرجوا حتى أتوا مكة فلما اجتمعوا لذلك قام عبد المطلب يدعو الله ثم قرّبوا عبد الله وعشراً من الإبل فخرجت القداح على عبد الله حتى بلغت الإبل مائة ثم ضربوا فخرجت القداح على الإبل فنحرت ثم تركت لا يصدّ عنها إنسان ولاسبع.

وأما تزويج عبد الله بن عبد المطلب بآمنة ابنة وهب أم صاحب الشريعة فإنه لما فرغ عبدالمطلب من الإبل انصرف بابنه عبد الله وهو آخذ بيده وخرج به حتى أتى وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو سيد بنى زهرة فزوّجه ابنته آمنة بنت وهب وهى لبرة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى وبرة لأم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصى وأم حبيب لبرة بنت عوف بن عبيد بن عريج بن عدى بن كعب فدخل عبد الله عليها حين أملكها مكانها فحملت بمحمد صاحب الشريعة الإسلامية، وقال الزهرى: أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمرا فمات بالمدينة وقيل بل كان بالشام فأقبل فى عير قريش فنزل بالمدينة وهو مريض فتوفى بها ودفن فى دار النابغة الجعدى وله خمس وعشرون سنة وقيل ثمان وعشرون سنة وتوفى قبل أن يولد له محمد ﷺ وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن غالب بن فهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان اهـ.

وكانت وفاة عبد المطلب بعد الفيل بثمان سنين أعنى بعد حرب الفيل بثمان سنين وأوصى أبا طالب بمحمد فكان أبو طالب هو الذى قام بأمره بعد جدّه ثم إن أبا طالب خرج إلى الشام فلما أراد المسير لزمه صاحب الشريعة فرق له وأخذه معه وله يومئذ تسع سنين ثم عادا معا إلى مكة فلما بلغ الخامسة والعشرين تزوج خديجة بنت خويلد وهى يومئذ ابنة أربعين سنة وكانت أوسط نساء قريش نسبا وأكثرهن مالا وشرفا فولدت له أولاده كلهم إلا إبراهيم وهم زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم وبه كان يكنى وعبد الله والطاهر والطيب فلما بلغ الأربعين من عمره دعا الناس إلى الإسلام وأخذ ينذرهم بعذاب الله وينهاهم عما هم فيه من عبادة الأوثان. قال ابن إسحق: وكان يذكر ذلك سرا إلى من يطمئن إليه من أهله فكان أوّل من

آمن به وصدقه من خلق الله تعالى خديجة بنت خويلد زوجته اهـ فتبعه نفر وكانوا إذا أرادوا الصلاة ذهبوا إلى الشعاب فاستخفوا فبينما سعد بن أبى وقاص وعمار وابن مسعود وخباب وسعد بن زيد يصلون فى شعب إذ اطلع عليهم نفر من المشركين منهم أبو سفيان بن حرب والأخنس بن شريق وغيرهما فسبوهم وعابوهم حتى قاتلوهم فضرب سعد رجلاً من المشركين بلحى جمل فشجه قيل فكان أول دم أريق فى الإسلام.

وقال جعفر بن عبد الله بن أبى الحكم: لما أنزل الله على رسوله ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعاً فجلس فى بيته كالمريض فأتته عماته يعدنه فقال: ما اشتكيت شيئاً ولكن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين فقلن له: فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم فإنه غير مجيبك فدعاهم ﷺ فحضروا ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين رجلاً فبادره أبو لهب وقال: هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباءة يعنى الخروج عن عبادة الأصنام، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وإن أحق من أخذك فحسبك بنو أبيك وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدّهم العرب فما رأيت أحداً جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به. قال: فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم فى ذلك المجلس اهـ .

ولبث يدعو الناس سراً ثلاث سنين ثم ظهر ونادى قومه بالإسلام. قيل فلم يبعدوا منه ولم يردوا عليه إلا بعض الرد حتى ذكر آلهتهم وعابها فلما فعل ذلك أجمعوا على خلافه وحدب عليه عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ومضى صاحب الشريعة على ما هو عليه فلما رأت قريش أنه لا يعنيهم من شئ يكرهونه وأن أبا طالب قد قام دونه ولم يسلمه لهم مشى رجال من أشرافهم إلى أبى طالب عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان صخر بن حرب وأبو البخترى بن هشام والأسود بن المطلب والوليد بن المغيرة وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل ونبيه ومنبه ابنا الحجاج أو من مشى منهم فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فقال لهم أبو طالب قولاً جميلاً وردّهم ردًا رفيقًا فانصرفوا عنه ومضى محمد لما هو عليه ثم سرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال فتضاغنوا وأكثرت قريش من ذكر محمد وما يأتيه فى كل يوم وقد تآمروا فيه ومشوا إلى أبى طالب مرة أخرى وطلبوا أن يخلى لهم عنه وإلا قاتلوا حتى يهلك

أحد الفريقين فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم له فبعث إلى صاحب الشريعة فأعلمه ما قالت قريش وقال له: أبق على نفسك وعلىّ ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق ثم إن قريشًا اشتدت على من فى القبائل من الصحابة الذين أسلموا فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم وقام أبو طالب فى بنى هاشم فدعاهم إلى منع محمد فأجابوا إلى ذلك واجتمعوا إليه إلا ما كان من أبى لهب عم صاحب الشريعة واشتدّ القوم على من أسلم فجعلوا يحبسونهم ويضربونهم ويعذبونهم بالجوع والعطش ورمضاء مكة والنار ليفتنوهم واشتد أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب على صاحب الشريعة شدة بالغة وكذلك اشتد على المسلمين وكان عظيم التكذيب لصاحب الشريعة دائم الأذى فكان يطرح العذرة والنتن على باب محمد وكان جاره فكان محمد يقول أىّ جوار هذا يا بنى عبد المطلب .

ولما رأى صاحب الشريعة ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من الشدة وإنه لا قبل له بمنع خصومه وقد كثروا جمع إليه المسلمين وقال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجاً فخرجوا جميعاً مهاجرين فكانت أول هجرة فى الإسلام فخرج عثمان وزوجته رقية ابنة صاحب الشريعة معه وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وامرأته معه سهلة بنت سهيل والزبير بن العوام وغيرهم ثمانية عشر رجلاً وقيل أحد عشر رجلاً وأربع نسوة. قيل: وكان سيرهم فى رجب سنة خمس من نبوّة صاحب الشريعة قالوا وهى السنة الثانية من إظهار الدعوة فأقاموا شعبان وشهر رمضان وقدموا فى شوال سنة خمس المذكورة ولكن لم يدخل أحد منهم إلى مكة إلا بجوار أو مستخفياً فدخل عثمان فى جوار أبى أحيحة سعيد بن العاص بن أمية فأمن بذلك ودخل أبو حذيفة بن عتبة فى جوار أبيه ودخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد بن المغيرة وأقام المسلمون بعد ذلك بمكة يؤذون فلما اشتد بهم الحال رجعوا مهاجرين إلى الحبشة ثانية فخرج جعفر بن أبى طالب وتتابع المسلمون إلى الحبشة فكمل بها تمام اثنين وثمانين رجلاً وصاحب الشريعة مقيم بمكة على ما هو عليه من دعوة الناس إلى الإسلام ولم يقو الإسلام قليلاً إلا بدخول حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب فيه وقد اختلف الرواة فى سبب إسلامهما ولا سيما عمر فقال بعضهم: قال عمر لما أسلمت أتيت باب أبى جهل بن هشام فضربت عليه بابه فخرج إلىّ وقال: مرحبا بابن أخى ما جاء بك؟ قلت: جئت لأخبرك أنى قد أسلمت وآمنت بمحمد ﷺ وصدقت بما جاء به قال:

فضرب الباب فى وجهى وقال قبحك الله وقبح ما جئت به.

ولما رأت قريش الإسلام يفشو ويزيد ائتمروا فى أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا بنى هاشم وبنى المطلب ولا ينكحوا إليهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم فلما فعلت قريش ذلك انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا وخرج من بني هاشم أبو لهب بن عبد المطلب إلى قريش فلقى هنداً بنت عتبة فقال: كيف رأيت نصرى اللات والعزى؟ قالت: لقد أحسنت فأقاموا على ذلك سنتين وقيل ثلاثاً حتى جهد المسلمون فكان لا يصل إلى أحد منهم شئ إلا سرا وكانوا نازلين بالشعب مع صاحب الشريعة ثم قام بعد ذلك نفر من قريش فى نقض الصحيفة وشقوها فخرج المسلمون من الشعب وبعد خروجهم بقليل مات أبو طالب فعظمت مصيبته على صاحب الشريعة واشتدت قريش بعد موته على صاحب الشريعة شدة بالغة ونالت منه حتى كان ينثر بعضهم التراب على رأسه وبعضهم كان يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلى وغير ذلك من الإيذاء فلما اشتد عليه الأمر خرج ومعه زيد بن حارثة إلى ثقيف يلتمس منهم النصر فلما انتهى إليهم عمد إلى ثلاثة نفر منهم هم يومئذ سادة ثقيف وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير فدعاهم إلى الإسلام وكلمهم فى نصرته والقيام معه على من خالفه فلم ينصروه وقد سخروا به وأغروا به سفهاءهم فاجتمعوا عليه وألجئوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة وهما فيه ثم رجع السفهاء عنه وعاد هو إلى مكة فجعل يعرض نفسه فى المواسم على قبائل العرب فلم يقم منهم أحد لنصرته .

(الفصل الثانى)

(فى هجرة صاحب الشريعة وفى غزواته وما وقع له بعد ذلك)

واشتد القوم بمكة على صاحب الشريعة وكان معه علىّ بن أبى طالب وأبو بكر الصديق وخافت قريش خروجه من مكة وما يكون من وراء ذلك فاجتمعوا فى دار

الندوة وهى دار قصىّ بن كلاب وتشاوروا فيها فتقررت القاعدة بينهم على قتله وقد علم صاحب الشريعة بذلك فخرج من مكة ولم يشعر به أحد وخرج معه أبو بكر من خوخة فى بيت أبى بكر ثم عمدا إلى غارثور فدخلاه وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع لهما بمكة نهاره ثم يأتيهما ليلاً فكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بطعامهما مساء فأقاما فى الغار ثلاثاً وجعلت قريش مائة ناقة لمن يرده عليهم فلما مضت الثلاث وسكن الناس أتاهما دليلهما وهو وثنى اسمه عبد الله بن أرقط كانوا قد استأجروه ليدلهم على الطريق ببعيريهما فركبا وأردف أبو بكر مولاه عامر بن فهيرة ليخدمهما فى الطريق وساروا قاصدين المدينة فنزلوا بها وكان على قد تخلف عنهم بمكة ليؤدى الودائع لأربابها فلما أداها وافاهم إلى المدينة بعد ثلاث ولحق بهم من أسلم فلما كان بعد سبعة أشهر عقد صاحب الشريعة لعمه حمزة لواء أبيض فى ثلاثين رجلاً من المهاجرين ليتعرضوا لعير قريش فلقى أبا جهل فى ثلثمائة رجل فحجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى وكان يحمل اللواء أبو مرثد وهو أول لواء عقده ثم عاد فعقد لواء لعبيدة بن الحرث بن المطلب وكان أبيض يحمله مسطح بن أثاثة فالتقى هو والمشركون فكان بينهم الرمى دون المسابقة فجرح من الفريقين ثم عقد لواءً ثالثاً لسعد بن أبى وقاص وسيره إلى الأبواء. وكان يحمل اللواء المقداد بن الأسود وكان مسيره فى ذى القعدة وجميع من معه من المهاجرين فلم يلق حربا (جعل الواقدى هذه السرايا جميعها فى السنة الأولى من الهجرة) وجعلها ابن إسحق فى السنة الثانية فقالا على رأس اثنى عشر شهراً من مقدم رسول الله ﷺ المدينة خرج غاريا واستخلف على المدينة سعد بن عبادة فبلغ ودّان يريد قريشاً وبنى ضمرة من كنانة وهى غزاة الأبواء بينهما ستة أميال فوادعتهم فيها بنو ضمرة ورئيسهم مخشى بن عمرو ثم رجع إلى المدينة. ولم يلق حرباً . اهـ.

وذكرابن إسحق بعد هذه الغزوة غزوة عبيدة بن الحرث ثم غزوة حمزة بن عبد المطلب وابتنى فى هذه المدينة مسجداً وداراً لسكناه فى قطعة أرض كانت قبل ذلك مربدا وقيل مقبرة وكانت فى ملك يتيمين يقال لهما: سهل وسهيل ابنا عمرو فاشتراها ﷺ منهما ثم إن المدينة كانت تسمى يثرب قبل استيطان صاحب الشريعة بها ثم سميت بالمدينة بعد استيطانه إياها.

وخرج صاحب الشريعة بعد ذلك يريد غزاة بواط فى مائتين من أصحابه فى

شهـر ربيع الآخر يعنى سنة اثنتين يريد. قـريشاً حتى بلغ بواط من ناحيـة رضوى. وكان فى عير قريش أمـية بن خلف الجمحى فى مائة ومعهم ألفان وخمـسمائة بعير فرجع ولم ينل منهم. وكان حامل اللواء فى هذه الغـزوة سعد بن أبى وقاص. وقد كان استخلف على المدينة قبل خروجه منها سـعد بن معاذ ثم غزا غزوة العشيرة من ينبع فى جمادى الأولى يريد قـريشاً حين ساروا إلى الشام فلما وصـل العشيرة وادع بنى مدلج وحلفاءهم من بنـى ضمرة ورجع ثم غزا غزوة أخرى ليـست من الأهمية بشىء، وزوج علىّ بن أبى طالب فاطمة فى صفر من السنة الثانية، وفى هذه السنة فى شهـر رمضان منها فى سـابع عشره وقيـل تاسع عشره كانت غـزوة بدر الكبرى وسببها قتل عمرو بن الحضرمى وإقبـال أبى سفيان بن حرب فى عير لقريش عظيمة من الشام وفيها أموال كثيرة ومعها ثلاثون رجلاً أو أربعون. وقيل: قريب من سبعين رجلاً من قريش منهم مخـرمة بن نوفل الزهرى وعمرو بن العاص فمات فيـها كثير من قريش وانهزمت قريش شر هزيمة.

ولما كان لهذه الغزوة ذكر مشهور فى التاريخ رأيت أن ألخص خبرها هنا، خرج أبو سفيان متاجراً إلى الشام فى ألف من عـير قريش فسمع به صاحب الشريعة ومن معـه من الأنصار والمهاجرين ومن لاذ بهـم من العرب فهمـوا بالخروج إليه فتـحرّز وتأهب للقتال فـلم ينالوا منه فانتظروا إلى أن عاد قافـلا يريد مكة فكمنوا له فأعلم بذلك قريشاً واستنفـرهم إلى أموالهم فأسرعوا إليه بخـيلهم ورجلهم وكانوا فى نحو مائة فارس وثمـانمائة راجل. وكان صاحب الشريـعة فى ثلثمائة وثلاثة عـشر راجلا سبعة وسبـعون من المهاجرين والباقون من الأنصار فلمـا بلغ صاحب الشريعة وادى بدر جاءه الخبر أن العير مقبلة من جهة وقريـشا مقبلة من جهة أخرى فشاور أصحابه فى أى الطائفتين يتـعدى لها أوّلاً فأجمع رأيهم على ترك العيـر ومقابلة قريش أوّلاً فنزلوا على أدنى ماء مـن القوم وصف رجاله وشـدّد عزائمهم ووعـدهم بالنصر إن صدقـوا فى القتال ثم بنى له عريش فـصار عليه مع أبى بكر وجـعل يناشد ربه فى النصـر. فقال اللهـم إن تهلك هذه العصـابة اليوم لا تعـبد واشـتدّ المشركـون على أصحاب صـاحب الشريعة حتـى كادوا ينالون منهم قيل فنزل صاحب الشـريعة عن العريش وأخذ حفنة من الحصـباء فاستقبل بها قريشـاً ثم رماهم بها. وقال: شاهت الوجوه، قـيل: فسـمعـوا صوته فانخـلعت قلوبهم وخيل لهم أن الملائكة تقـاتلهم فانهزموا وقتل من صناديدهم سـبعون فأهينت جثثهم وأسر سبعـون فافتدوا أنفسهم

بأربعة آلاف درهم إلا أبا معيط والنضر بن الحارث وكانا شديدى الأذى لصاحب الشريعة فأمر بهما فقتلا صبراً ثم أدرك أصحابه عير قريش فانتهبوها وكان خمس صاحب الشريعة منها عشرين ألف درهم فقفل إلى المدينة غانماً.

ثم كانت بعد ذلك غزوة قينقاع ثم غزوة الكدر ثم غزوة السويق ثم غزوة أُحد وكانت من أشد الغزوات. مات فيها من الفريقين خلق كثير. وكانت نساء قريش يحرّضن الرجال على اصطلاء نار الوغى ويضربن خلفهم بالدفوف وبينهنّ امرأة تقول هذه الأبيات:

نحن بنات طارق ... نمشي على النمارق
مشى القطا البوارق ... والمسك في المفارق
والدرّ في المخانق ... إن تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق ... أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

وكانت تقول أيضاً:

ويها بنى عبد الدار * ويها حماة الديار * ضربا بكل بتار

فكانت تندفع أبطال قريش فى ميدان القتال اندفاع الأسود الضوارى غير هيابين ولا حاسبين للموت حسابا، ثم كانت غزوة الرجيع. وقد قتل فيها كثير من المسلمين وبينهم خبيب أخذ أسيرا فبقى أياماً ثم قتلوه صبراً. ثم كانت غزوة ذات الرقاع وسميت بذلك لجبل كانت الواقعة فيه ثم غزوة بدر الثانية وتعرف أيضاً بغزوة السويق ثم غزوة الخندق وهى غزوة الأحزاب كانت فى شوّال. وكانت من الغزوات الكبيرة وذلك أن يهود بنى قريظة كان بينهم وبين صاحب الشريعة عهد أن لا يعينوا عليه أحداً ولا يثيروا عليه حرباً ويتركهم وشأنهم فخالفوا ونقضوا وحزبوا العرب لاستئصال المسلمين فاجتمع منهم خلق كثير جداً وساروا إلى المدينة فخندق المسلمون حولهم وترسوا بالمدينة وقاتلوا. فبينما هم كذلك إذ قامت ريح عاصفة فاقتلعت خيام الأعداء فاتخذلوا ثم اختلفوا وتفرّقوا وساروا عن المدينة وتركوا متاعهم. وكان من وراء ذلك غزوة يهود بنى قريظة وموت الكثير منهم ثم غزوة بنى المصطلق من خزاعة. قال بعض أهل التاريخ: كانت هذه الغزوة بعد غزوة ذى قرد وكانت فى

شعبان من سنة ست فلما كانت سنة سبع وقد تقوّت عزيمة صاحب الشريعة وعلت كلمته.بعث رسلاً من عنده إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام. فأرسل حاطب ابن أبى بلتعة إلى المقوقس بمصر وأرسل شجاع بن وهب الأسدى إلى الحرث بن أبى شمر الغسانى. وأرسل دحية إلى قيصر وأرسل سليط بن عمرو العامرىّ إلى هوذة ابن على الحنفى وبعث عبد الله بن حذافة إلى كسرى وأرسل عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى. وأرسل العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوا أخى عبد القيس. وكان لكل من هؤلاء الملوك مع الرسل المذكورين شأن لا محل له هنا. فأما المقوقس عظيم القبط بمصر فقيل أنه قبل الكتاب وأهدى إليه مع الرسول أربع جوار منهنّ مارية أمّ إبراهيم ولد صاحب الشريعة. ثم كانت غزوة خيبر سار إليها صاحب الشريعة فى ألف وأربعمائة رجل معهم مائتا فارس. وكان مسيره إليها فى المحرّم سنة سبع واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى فمضى حتى نزل بالرجيع ليحول بين أهل خيبر وغطفان لأنهم كانوا مظاهرين لهم. وكانت هذه الغزوة من الغزوات الكبرى وفتحت البلدة فى صفر من هذه السنة فلما استقرّ بها أهدت إليه زينب بنت الحرث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية مسمومة فوضعتها بين يديه فأخذ منها مضغة قيل فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور فأكل منها، قال الراوى: فقال رسول الله ﷺ إن هذه الشاة تخبرنى أنها مسمومة ثم دعا المرأة فاعترفت. فقال ما حملك على ذلك. قالت بلغت من قومى ما لم يخف عليك. فقلت إن كان نبياً فسيخبر وإن كان ملكاً استرحنا منه. قال: فتجاوز عنها. اهـ.

ومات بشر من تلك الأكلة وكان صاحب الشريعة يقول فى مرضه الذى مات به لقد وجدت الآن انقطاع أبهرى من أكلة خيبر فكان المسلمون يرون أنه مات شهيداً مع كرامة النبوة، ولم يمض على صاحب الشريعة إلا بضع سنين حتى ظهرت كلمته وعلت شهرته ونال الظفر فى أكثر مغازيه، ومنها غزوة أُحد فلما كانت السنة الثانية من هجرته خرج معتمراً إلى مكة فى ألف وأربعمائة رجل وكان مسالماً لا يريد حرباً فلما بلغ الحديبية وهى موضع بعضه فى الحل وبعضه فى الحرم أرسل إليه قريش يعلمونه أنهم لا يأذنون له فى دخول مكة أو يدخلها عنوة فجمع رجاله وأخذ عليهم يمين الطاعة وبايعوه بيعة الرضوان وعزم على مناجزة القوم بمكة فجاءه من قبلهم عروة بن مسعود كبير الثقفيين يسأله الصلح، وفى رواية أن الذى جاءه فى ذلك

سهيل بن عمرو. وأن عـروة إنما ذهب إليه أوّلاً يقول أنهم لا يدعونه يدخل مكة إلا عنوة أى بعد قتال، فاتفقا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين وكتبا بذلك عهدا وكان مما جاء في العهد أن من أحب أن يدخل فى عقـد محمد دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش دخل فيه، ولما عاد عروة بن مسعود إلى قريش. قال لهم إنى جئت كسـرى وقيصر فى ملكهم فوالله مـا رأيت ملكا فى قومه مثل مـحمد فى أصحابه كان لا يتـوضأ إلا ابتدروا وضوءه ولا يبصق إلا ابتدروا بـصاقه ولا يسقط من شعره شيء إلا أخـذوه تبركا. ذكره ابن الأثير وأبو الفـداء وابن هشام والقاضى عياض.

وفى ذى الحجة من السـنة أى سنة سبع اعتمر صـاحب الشريعة عمـرة القضاء وساق معه سبـعين بدنة وخرج معه المسلمون ممن كان معـه فى عمرته الأولى. فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه وتحدثت قريش أنه وأصحابه فى عسر وجهد فاصطفوا له عند دار الندوة فلما دخلهـا اضطبع بردائه فأخرج عضده الـيمنى. ثم قال: رحم الله امرأ أراهم اليوم قـوة ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصـحابه وكان بين يديه لما دخل مكة عبد الله بن رواحة آخذاً بخطام ناقته ويقول:

خلوا بـني الكفـار عن سـبـيله ... خلوا فـكل الخـيـر في رسـوله
يارب إنـي مـؤمن بقـيلـه ... أعـرف حـق الله في مـقـوله
نحـن قـتلـناكـم على تأويـله ... كـمـا قـتلناكم عـلى تنزيـله
ضـرباً يزيل الهـام عن مـقـيله ... ويـذهـب الخـليل عـن خـليـلـه

ولما كانت سنة ثمان غزا غزوة ذات السلاسل ثم غـزوة الخبط وغيرهما ثم غزوة مؤتة وكانت فى جمادى الأولى من هذه السنة وهى من الغزوات الكبرى ومؤتة قرية انحاز إليها المسلمون يوم القتـال ثم إن بنى بكر بن عبد مناة غدت على خزاعة وهم على ماء لهم بأسـفل مكة يقال له الوتير وكانت خـزاعة فى عهد صاحـب الشريعة وبكر فى عهد قريش فى صلح الحديبية وكان سبب ذلك أن رجلاً من بنى الحضرمى اسمه مالك بن عباد كان حليفاً للأسود بن رزن الديلى ثم البكرى فى الجاهلية خرج تاجراً فلمـا كان بأرض خزاعة قـتلوه فعدت خزاعـة على بنى الأسود بن رزن وهم

سلمى وكلثوم وذؤيب فقتلوهم بعرفة وكانوا من أشراف بنى بكر فبينما خزاعة وبكر على ذلك إذ جاء الإسلام واشتغل الناس به فلما كـان صلح الحديبية ودخلت خزاعة فى عهـد صاحب الشريعة ودخلت بكر فى عـهد قريش اغتـنم بنو بكر تلك الهدنة وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة ثأرهم بقـتل بنى الأسود فخرج نوفل بن معاوية الديلى بمن تبعه من بكرحـتى بيت خزاعة على ماء الوتير. وقيل: كـان سبب ذلك أن رجلاً من خزاعـة سمع رجلاً من بـكر ينشد هجاء صـاحب له فشجـه فهاج الـشر بينهم وثارت بكر بخزاعة حـتى بيتوهم بالوتير وأعانت قـريش بنى بكر على خزاعة بشىء من السلاح والدواب وقاتل معهم جماعة من قريـش أيضاً مختفين قيل منهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل وسهل بن عمرو فانحازت خزاعة إلى الحرم. فقال بنو بكر: يانوفل إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك. فقـال لا إله له اليوم يابنى بكر أصيبوا ثأركم فلعمـرى إنكم لتسرفون فى الحـرم أفلا تصيـبون ثأركم فيه فلمـا نقضت بكر وقريش العهـد الذى بينهم وبين صاحب الشريعة خرج عمـرو بن سالم الخزاعى ثم الكعبى حتى قدم على صاحب الشريعة المدينة فوقف عليه ثم أنشد:

يارب إنـي ناشـد مـحـمـدا ... حـلف أبينا وأبيـه الأتلـدا
فـوالـداً كنا وكـنـت الولـدا ... ثـمـت أسلـمـنـا فـلـم ننـزع يـدا
فـانصـر رسـول الله نصـراً أعـتـدا ... وادع عـبـاد الله يأتـوا مـددا
فـيـهـم رسـول الله قـد تجـردا ... أبيض مـثل اليـد تنمي صـعـدا
إن سـيـم خسـفـا وجـهـه تربدا ... في فـيلق كـالبـحر يجـري مـزبدا
إن قـريشـاً أخلـفـوك الموعـدا ... ونقـضـوا مـيـثـاقك المؤكـدا
وجـعـلوا لي في كـداء رصـدا ... وزعـمـوا أن لست أدعـو أحـدا
وهـم أذل وأقـل عـددا ... هم بيـتـونا بالوتـيـر هجـدا

وقـتلـونا ركـعـاً وسـجـداً

فقال صاحب الشريعة لقد نصرت ياعمرو بن سالم.

(الفصل الثالث)

(فى فتح مكة)

تأهب صاحب الشـ بعة وأمر الناس بـالتأهب لفتح مكة فلمـا شاع الخبـر كتب حاطب بن أبى بلتـه ـبأ إلى قريش يعلمهم الخـبر وسيره مع أمرأة من مزينة اسمها كنود. وقيل مع سارة مـولاة لبنى المطلب تعلمهم الخبـر وسيره معهـا فعلم صاحب الشريعة بذلك فأرسل عليا والزبير فأدركاها وأخذا منها الكتاب وجاء به إليه فأحضر حاطبا. وقال ما حملك على هذا فـقال: والله إنى مؤمن ما بدّلت ولا غيرّت ولكن لى بين أظهرهم أهل وولد وليـس لى عشيرة فـصانعتهـم عليهم. فقال عـمر دعنى أضرب عنقه فـإنه قد نافق. وجاء الخبـر بتأهب صاحب الشريعة لقـتالهم على مكة فخافوا وخشـوا العاقبة وسيروا أبا سفيان إلى صاحب الشـريعة لتلافى الأمر وتجديد العهد. فلم يأذن له صاحب الشريعة فى الدخول عليه فقصد أبا بكر وعلياً فلم يلبياه فرجع إلى مكة خائبا وتجهز صاحب الشريـعة يريد أخذ قريش قبل أن يتأهبوا وخرج لعشر مضين من رمضان واستخلف على المدينة أبارهم كلثوم بن حصين الغفارى فلم يصل مكة حتى بلغ جـيشه عشـرة آلاف. ولما رأى أهل مكة أن لاقبل لهم بمثل هذا الجيش العظيم نزلوا على حكم صاحب الشريعة ودانوا بدينه وأسلم كذلك أبو سفيان وقتل من المشركين ثمانية وعشرون رجـلاً قتلهم خالد وأسلم أهل مكة كافة إلا ستة رجال وأربع نسوة كانوا أشد جرماً عند صاحب الشريعة من غيرهم وكان بعضهم قد ارتد عن الإسـلام ثم قتلوا منهم ثلاثة رجـال وأمرأة واحـدة وأسلم الباقـون وفازت واحدة من النسوة بالهرب فلم يوقف لها على أثر إلا بعد حين فكان فتح مكة لعشر بقين من رمضان.

ولما فتحت مكة بعث صاحب الشريعـة الزبير وأمره أن يدخل ببعض الناس من كدى قال سعـد حين وجهه، اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل فـيه الكعبة، قـال: فسـمعها رجل من المهـاجرين فأعلم صـاحب الشريعة. فـقال لعلىّ بن أبى طالب: أدركه فخذ الراية وكن أنت الذى تدخل بها وأمرخالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من الليط فى بعض الناس. وكان مـعه أسلم وغفار ومزينة وجهـينة وقبائل من العرب. فلما وصل صـاحب الشريعة إلى ذى طوى وقف على راحلته وهو معـتجر بشقة برد حبرة أحمر ثم تقدّم ودخل من أذاخر بأعلاها وضربت قبته هناك.

ووقف صاحب الشريعة على باب الكعبة، وقال: يامعشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم. قالوا: خير أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء فعفا عنهم فلذلك سمى أهل مكة (الطلقاء) وطاف صاحب الشريعة بالكعبة سبعاً ودخلها وصلى فيها ثم جلس للبيعة فى الصفا وعمر بن الخطاب تحته واجتمع الناس لبيعته فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا فكانت هذه بيعة الرجال. ثم أخذ يبايع النساء فأتاه منهنّ نساء من قريش منهنّ أم هانىء بنت أبى طالب وأم حبيبة بنت العاص بن أمية وكانت عند عمرو بن عبد ودّ العامرى. وأروى بنت أبى العيص عمة عتاب بنت أسيد وأختها عاتكة بنت أبى العيص وكانت عند المطلب بن أبى وداعة السهمى وأمية بنت عفان بن أبى العاص أخت عثمان، وكانت عند سعد حليف بنى مخزوم وهند بنت عتبة، وكانت عند أبى سفيان وبسيرة بنت صفوان بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وأم حكيم بنت الحرث بن هشام، وكانت عند عكرمة بن أبى جهل وفاختة بنت الوليد بن المغيرة أخت خالد، وكانت عند صفوان بن أمية بن خلف، وريطة بنت الحجاج وكانت عند عمرو بن العاص وغيرهن وكانت هند متنكرة لصنيعها بحمزة فهى تخاف أن تؤخذ به. وقال لهنّ تبايعننى على أن لا تشركن بالله شيئاً. قالت: هند إنك والله لتأخذ علينا ما لا تأخذه على الرجال فسنؤتيكه. قال: ولا تسرقن. قالت: والله ما كنت أصيب من مال أبى سفيان إلا الهنة بعد الهنة. فقال أبو سفيان، وكان حاضراً أما ما مضى فأنت منه فى حل. فقال صاحب الشريعة أهند. قالت أنا هند فاعف عما سلف عفا الله عنك. قال ولا تزنين. قالت: وهل تزنى الحرّة. قال: ولا تقتلن أولادكنّ. قالت: ربيناهم صغارا وقتلتهم يوم بدر كباراً فأنت وهم أعلم فضحك عمر. قال: ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن. قالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح. وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق. قال: ولا تعصيننى فى معروف. قالت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك. فقال صاحب الشريعة لعمر بايعهنّ ففعل، قال أهل التاريخ: ولما جاء وقت الظهر أمر صاحب الشريعة بلالاً أن يؤذن على ظهر الكعبة وقريش فوق الجبال. فلما أذن. وقال: أشهد أن محمداً رسول الله. قالت جويرية بنت أبى جهل: لقد أكرم الله أبى حين لم يشهد نهيق بلال فوق الكعبة. وقال خالد بن أسعد: لقد أكرم الله أبى فلم ير هذا اليوم. وقال الحارث بن هشام: ليتنى مت قبل هذا اليوم. وقال جماعة نحو هذا القول تحاملاً واستخفافاً.

(الفصل الرابع)
(فى ذكر مرض صاحب الشريعة ووفاته)

ابتدأ المرض بصاحب الشريعة فى أواخر صفر فى بيت زينب بنت جحش وكان يدور على نسائه حتى اشتد مرضه فى بيت ميمونة فجمع نساءه فأستأذنهن أن يمرّض فى بيت عائشة وبينما هو فى مرضه إذ وصلت الأخبار بظهور الأسود العنسى باليمن ومسيلمة باليمامة وطليحة فى بنى أسد وعسكر بسميراء فتأخر مسير أسامة. وكان قد عقد له لواء وأمره بالغزو قبل أن يثقل به مرضه وكذلك تأخر لخبر الأسود العنسى ومسيلمة فخرج صاحب الشريعة عاصباً رأسه من الصداع وأمر بإنفاذ جيش أسامة ولعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وخرج أسامة فضرب بالجرف المعسكر وتمهل الناس وثقل صاحب الشريعة ولم يشغله شدة مرضه عن إنفاذ الغزوة فأرسل إلى نفر من الأنصار فى أمر الأسود فأصيب الأسود فى حياة صاحب الشريعة قبل وفاته بيوم فأرسل إلى جماعة من الناس يحثهم على جهاد من عندهم من المرتدين. وقد اشتد به المرض شدة بالغة وازداد ألمه، قال ابن مسعود: نعى إلينا نبينا وحبيبنا نفسه قبل موته بشهر فلما دنا الفراق جمعنا فى بيت عائشة فنظر إلينا فشدد ودمعت عيناه. وقال: مرحبا بكم حياكم الله رحمكم الله آواكم الله حفظكم الله رفعكم الله وفقكم الله سلمكم الله قبلكم الله أوصيكم بتقوى الله وأوصى الله بكم واستخلفه عليكم حذركم الله إنى لكم منه نذير وبشير أن لا تعلوا على الله فى عباده وبلاده فإنه قال لى ولكم: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين**﴾ قلنا: فمتى أجلك. قال: دنا الفراق والمنقلب إلى الله وسدرة المنتهى والرفيق الأعلى وجنة المأوى فقلنا من يغسلك. قال: أهلى قلنا فيم نكفنك . قال: فى ثيابى أو فى بياض قلنا فمن يصلى عليك. قال مهلاً غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيراً فبكينا وبكى. ثم قال: دعونى على سريرى على شفير قبرى ثم اخرجوا عنى ساعة ليصلى عليّ جبريل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت مع الملائكة ثم ادخلوا عليّ فوجًا فوجًا فصلوا عليّ ولا تؤذونى بتزكية ولا رنة أقرؤا أنفسكم منى السلام ومن غاب من أصحابى فأقرؤه منى السلام ومن تابعكم على دينى فاقرؤه منى السلام. اهـ.

قال ابن عباس: يوم الخميس وما يوم الخميس؟ ثم جرت دموعه على خديه،

اشتد برسول الله ﷺ مرضه ووجعه. فقال ائتونى بدواة وبيضاء أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعدى أبداً فتنازعوا ولا ينبغى عند نبى تنازع. فقالوا: إن رسول الله ﷺ يهجر فجعلوا يعيدون عليه. فقال: دعونى فما أنا فيه خير مما تدعونى إليه فأوصى أن يخرج المشركون من جزيرة العرب وأن يجاز الوفد بنحو مما كان يجيزهم وسكت عن الثالثة عمداً أو قال: نسيتها . اهـ.

وخرج على بن أبى طالب من عند صاحب الشريعة فى مرضه. فقال الناس كيف أصبح رسول الله فقال: أصبح بحمد الله بارئاً فأخذ بيده العباس. فقال أنت بعد ثلاث عبد العصا وأن رسول الله ﷺ سيتوفى فى مرضه هذا وإنى لأعرف الموت فى وجوه بنى عبد المطلب فاذهب إلى رسول الله ﷺ فاسأله فيمن يكون هذا الأمر فإن كان فينا علمناه. وإن كان فى غيرنا أمره فأوصى بنا. فقال على: لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها فلا يعطيناها الناس أبداً. والله لا أسألها رسول الله ﷺ . قال: فما اشتد الضحى حتى توفى رسول الله ﷺ ، وكان موته يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول، ولما توفى كان أبو بكر بمنزله بالسنح لأنه كان قد تخلف عن الخروج فى جيش أسامة لما تحقق من شدة مرض صاحب الشريعة وقرب وفاته وعمر حاضر فلما شاع خبر موته كثر توارد العرب من كل صوب وحدب وعلت الضوضاء وارتفعت الجلبة واشتد الهرج والمرج وظهرت دلائل الردة وقام كل ذى مرض فى الصدر وافتتنوا أو كادوا. فقام عمر بينهم، فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران والله ليرجعن رسول الله ﷺ فيقطع أيدى وأرجل رجال زعموا أنه مات وأقبل أبو بكر وعمر يكلم الناس وهم فى ضجة فدخل على صاحب الشريعة وهو مسجى فى ناحية البيت فكشف عن وجهه ثم قبّله، وقال: بأبى أنت وأمى طبت حياً وميتاً أما الموتة التى كتب الله عليك فقد متها ثم ردّ الثوب على وجهه ثم خرج وعمر يكلم الناس فأمره بالسكون فأبى وعلا صوته وشدد القول فأقبل أبو بكر على الناس فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ثم تلا هذه الآية: ﴿**وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين**﴾ قال الراوى: فوالله لكأن الناس ما سمعوها إلا

منه. وقال عمر: فوالله ما هو إلا إذ سمعتها فعقرت حتى وقعت على الأرض ما تحملنى رجلاى وقد علمت أن رسول الله ﷺ قد مات . اهـ.

ولما مات صاحب الشريعة ووصل خبره إلى مكة وعامله عليها عتاب بن أسيد ابن أبى العاص بن أمية استخفى عتاب وارتجت مكة وكاد أهلها يرتدون واجتمعوا حول الكعبة وكثر ضجيجهم فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا إليه. فقال ياأهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليتمنّ الله هذا الأمر كما ذكر رسول الله ﷺ فقد رأيته قائماً مقامى هذا وحده وهو يقول قولوا معى لا إله إلا الله كلمة تدين لكم بها العرب وتؤدّى لكم العجم الجزية والله لتنفقنّ كنوزكسرى وقيصر فى سبيل الله فمن بين مستهزىء ومصدق فكانّ ما رأيتم والله ليكونن الباقى فامتنع الناس من الردة وقل الهرج وتطامنت القلوب واجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ليبايعوا سعد بن عبادة فبلغ ذلك أبا بكر فأتاهم ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح. فقال: ما هذا فقالوا: منا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: منا الأمراء ومنكم الوزراء. ثم قال أبو بكر: قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين عمر وأبا عبيدة أمين هذه الأمة، فقال عمر أيكم يطيب نفسا أن يخلف قدمين قدمهما النبىّ ﷺ فبايعه عمر وبايعه الناس. فقالت الأنصار: لا نبايع إلاعلياً وتخلف علىّ وبنو هاشم والزبير وطلحة عن البيعة. وقال الزبير: لا أغمد سيفا حتى يبايع على فقال عمر خذوا سيفه واضربوا به الحجر ثم أتاهم عمر فأخذهم للبيعة وقيل لما سمع على ببيعة أبى بكر خرج فى قميص ما عليه إزار ولا رداء عجلا حتى بايعه ثم استدعى إزاره ورداءه فتجلله، قال بعض أهل التاريخ والصحيح أن علياً ما بايع إلا بعد ستة أشهر وقيل لما اجتمع الناس على بيعة أبى بكر أقبل أبو سفيان وهو يقول إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا دم يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم أين المستضعفان أين الأذلان على والعباس ما بال هذا الأمر فى أقل حى من قريش. ثم قال لعلى: ابسط يدك أبايعك فوالله لئن شئت لأملأنها عليه خيلا ورجلا فأبى على عليه فتمثل بشعر المتلمس

ولن يقيم على خسف يراد به ... إلا الأذلان عير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشج فلا يرثي له أحد

قيل فزجره على وقال: والله إنك ما أردت بهذا إلا الفتنة وإنك والله طالما

بغيت للإسلام شراً لا حاجة لنا فى نصيحتك، وقال ابن عباس: كنت أقرىء عبد الرحمن بن عوف القرآن فحج عمر وحججنا معه. فقال لى عبد الرحمن: شهدت أمير المؤمنين اليوم بمنى. وقال له رجل سمعت فلاناً. يقول لو مات عمر لبايعت فلاناً. فقال عمر إنى لقائم العشية فى الناس أحذرهم هؤلاء الرهط الذين يريدون أن يغتصبوا الناس أمرهم. قال: فقلت ياأمير المؤمنين إن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم وهم الذين يغلبون على مجلسك وأخاف أن تقول مقالة لا يعوها ولا يحفظوها ويطيروا بها، ولكن أمهل حتى تقدم المدينة وتخلص بأصحاب رسول الله ﷺ فتقول ما قلت فيعوا مقالتك. فقال: والله لأقومن بها أول مقام أقومه بالمدينة. قال: فلما قدمت المدينة هجرت يوم الجمعة لحديث عبد الرحمن. فلما جلس عمر على المنبر حمد الله وأثنى عليه. ثم قال: بعد أن ذكر الرجم وما نسخ من القرآن فيه، أنه بلغنى أن قائلا منكم يقول لو مات أمير المؤمنين بايعت فلاناً فلا يغرن أمرأ أن يقول أن بيعة أبى بكر كانت فلتة فقد كانت كذلك ولكن الله وقى شرها وليس منكم من تقطع إليه الأعناق مثل أبى بكر وأنه كان خيرنا حين توفى رسول الله ﷺ وأن علياً والزبير ومن معهما تخلفوا عنا فى بيت فاطمة وتخلف عنا الأنصار واجتمع المهاجرون إلى أبى بكر فقلت له انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار فانطلقنا نحوهم فلقينا رجلان صالحان من الأنصار أحدهما عويم بن ساعدة والثانى معن بن عدى. فقالا لنا: ارجعوا اقضوا أمركم بينكم. قال: فأتينا الأنصار وهم مجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة وبين أظهرهم رجل مزمل قلت من هذا قالوا سعد بن عبادة وجمع فقام رجل منهم فحمد الله وأثنى عليه. وقال: أما بعد فنحن الأنصار وكتيبة الإسلام وأنتم يامعشر قريش رهط بيننا وقد دفت إلينا دافة من قومكم فإذا هم يريدون أن يغصبونا الأمر فلما سكت وكنت قد زوّرت فى نفسى مقالة أقولها بين يدى أبى بكر فلما أردت أن أتكلم. قال أبو بكر: على رسلك فقام فحمد الله وما ترك شيئاً كنت زورت فى نفسى الإجابة أو بأحسن منه. وقال: يامعشر الأنصار إنكم لا تذكرون فضلاً إلا وأنتم له أهل وأن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لقريش وهم أوسط العرب داراً ونسباً وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأخذ بيدى وبيد أبى عبيدة بن الجراح وإنى والله ما كرهت من كلامه كلمة غيرها إن كنت أقدم فتضرب عنقى فيما لا يقربنى إلى إثم أحب إلىّ من أن أؤمر على قوم فيهم أبو بكر، فلما قضى أبو بكر كلامه. قام منهم رجل . فقال: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا أمير ومنكم أمير وارتفعت الأصوات واللغط فلما خفت

الاختلاف قلت لأبي بكر: ابسط يدك أبايعك. فبسط يده فبايعته وبايعه الناس ثم نزونا على سعد بن عبادة. فقال قائلهم: قتلتم سعدا فقلت قتل الله سعدا وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من بيعة أبي بكر خشيت إن فارقت القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة فإما أن نتابعهم على ما لا نرضى وإما أن نخالفهم فيكون فساداً . اهـ.

وقال أبو عمرة الأنصاري: لما قبض النبيّ ﷺ اجتمعت الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة وأخرجوا سعد بن عبادة ليولوه الأمر. وكان مريضاً. فقال: بعد أن حمد الله، يامعشر الأنصار لكم سابقة وفضيلة ليست لأحد من العرب أن محمد ﷺ لبث فى قومه بضع عشرة سنة يدعوهم فما آمن به إلا القليل ما كانوا يقدرون على منعه ولا على إعزاز دينه ولا على دفع ضيم حتى إذا أراد الله بكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة ورزقكم الإيمان به وبرسوله والمنع له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه والجهاد لأعدائه فكنتم أشد الناس على عدوّه حتى استقامت العرب لأمر الله طوعاً وكرهاً وأعطى البعيد المقادة صاغراً فدانت لرسوله بأسيافكم العرب وتوفاه الله وهو عنكم راض قرير العين استبدوا بهذا الأمر دون الناس فإنه لكم دونهم، فأجابوه بأجمعهم قد وفقت وأصبت الرأى ونحن نوليك هذا الأمر فإنك مقنع ورضاء للمؤمنين ثم إنهم ترادوا الكلام وأبى المهاجرون من قريش. وقالوا: نحن المهاجرون وأصحابه الأولون وعشيرته وأولياؤه. فقالت طائفة منهم: فإنا نقول: منا أمير ومنكم أمير ولن نرضى بدون هذا أبداً. فقال سعد: هذا أوّل الوهن وسمع عمر الخبر فأتى منزل صاحب الشريعة وأبو بكر فيه فأرسل إليه أن اخرج إلىّ فأرسل إليه إنى مشتغل فقال عمر: قد حدث أمر لابد لك من حضوره فخرج إليه فأعلمه الخبر فمضيا مسرعين نحوهم ومعهما أبو عبيدة. قال عمر: فأتيناهم وقد كنت زوّرت كلاماً أقوله لهم فلما دنوت أقول أسكتنى أبو بكر وتكلم بكل ما أردته فحمد الله وقال: إن الله قد بعث فينا رسولاً شهيداً على أمته ليعبدوه ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى من حجر وخشب فعظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخص الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومه وتكذيبهم إياه وكل الناس لهم مخالف زائر عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم فهم أول من عبد الله فى هذه الأرض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعد لا ينازعهم إلا ظالم، وأنتم يامعشر الأنصار من لا ينكر فضلهم فى الدين ولا سابقتهم فى الإسلام رضيكم الله أنصاراً

لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفاوتون بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور، فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال: يامعشر الأنصار أملكوا عليكم أمركم فإن الناس فى ظلكم ولن يجترىء مجترىء على خلافكم ولا يصدروا إلا عن رأيكم أنتم أهل العز وأولوا العدد والمنعة وذوو البأس وإنما ينظر الناس ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم أبى هؤلاء إلا ما سمعتم فمنا أمير ومنكم أمير. فقال عمر: هيهات لا يجتمع اثنان والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبينا من غيركم ولا تمتنع العرب أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ولنا بذلك الحجة الظاهرة من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته فقال الحباب بن المنذر يامعشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فإن أبوا عليكم فاجلوهم عن هذه البلاد وتولوا عليهم هذا الأمر فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم دان الناس لهذا الدين أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب أنا أبو شبل فى عرينة الأسد والله لئن شئتم لنعيدنها جذعة . فقال عمر: إذن ليقتلك الله فقال: بل إياك يقتل، فقال أبو عبيدة: يامعشر الأنصار إنكم أول من نصر فلا تكونوا أول من بدل وغير، فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال: يامعشر الأنصار إنا والله وإن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين وسابقة فى الدين ما أردنا به إلا رضاء ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغى أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغى به الدنيا إلا أن محمداً ﷺ من قريش وقومه أولى به وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر فاتقوا الله ولا تخالفوهم، فقال أبو بكر: هذا عمر وأبو عبيدة فإن شئتم فبايعوا فقالا: والله لا نتولى هذا الأمر عليك وأنت أفضل المهاجرين وخليفة رسول الله ﷺ فى الصلاة وهى أفضل دين المسلمين أبسط يدك نبايعك فلما ذهبا يبايعانه سبقهما بشير بن سعد فبايعه فناداه الحباب بن المنذر عققت عقاقاً أنفست على ابن عمك الإمارة. فقال: لا والله ولكنى كرهت أن أنازع القوم حقهم، ولما رأت الأوس ما صنع بشير وما تطلب الخزرج من تأمير سعد. قال بعضهم لبعض وفيهم أسيد بن حضير وكان نقيباً: والله لئن وليتها الخزرج مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولاجعلوا لكم فيها نصيباً أبداً فقوموا فبايعوا أبا بكر فبايعوه فانكسر على سعد والخزرج ما أجمعوا عليه وأقبل الناس يبايعون أبا بكر من كل جانب ثم تحوّل سعد بن عبادة إلى داره فبقى أياماً وأرسل إليه ليبايع فإن الناس قد بايعوا فقال لا والله حتى أرميكم بما فى كنانتى وأخضب سنان رمحى وأضرب بسيفى وأقاتلكم بأهل بيتى ومن أطاعنى ولو اجتمع معكم الجن والإنس ما بايعتكم

حتى أعرض على ربى. فقال عمر: لا تدعه حتى يبايع. فقال بشير بن سعد: أنه قد لج وأبى ولا يبايعكم حتى يقتل وليس بمقتول حتى يقتل معه أهله وطائفة من عشيرته ولا يضركم تركه وإنما هور رجل واحد فتركوه، وجاءت أسلم فبايعت فقوى أبو بكر بهم وبايع الناس بعد، قيل أن عمرو بن حريث قال لسعيد بن زيد: متى بويع أبو بكر؟ قال: يوم مات رسول الله ﷺ كرهوا أن يبكوا بعض يوم وليسوا فى جماعة، قال الزهرى: بقى علىّ وبنو هاشم والزبير ستة أشهر لم يبايعوا أبا بكر حتى ماتت فاطمة رضى الله عنها فبايعوه فلما كان الغد من بيعة أبى بكر جلس على المنبر وبايعه الناس بيعة عامة ثم تكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقوّمونى الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه. والقوى ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق - إن شاء الله تعالى - لا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله .اهـ.

ولما بويع أبو بكر أقبل الناس على جهاز صاحب الشريعة ودفن يوم الثلاثاء وقيل يوم الأربعاء . وقيل بقى ثلاثة أيام لم يدفن، وكانت مدة مرضه أربعة عشر يوماً. وقيل سبعة أيام بذات الجنب فلما كان اليوم السابع من مرضه مات، قال ضمران: مات وتحته فى مرضه شملة حمراء وعليها مات وفيها أدرج بعد موته وورى التراب بغير غُسل ولا أكفان، وروى عمران بن حضير الخزاعى أنه غسل وأدرج فى ثلاثة أثواب سحولية أى بيض يمانية وأن الذى تولى ذلك معه علىّ بن أبى طالب والفضل بن العباس بن عبد المطلب عمه واختلفوا أين يدفنونه. فقال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ : يقول ما قبض نبى إلا دفن حيث قبض فرفع فراشه ودفن موضعه حفر له أبو طلحة الأنصارى لحدا ودخل الناس يصلون عليه أرسالاً الرجال ثم النساء ثم الصبيان ثم العبيد. ودفن ليلة الأربعاء وقيل ليلة الخميس واختلفوا فى عمره يوم مات. فقال ابن عباس وعائشة ومعاوية وابن المسيب: كان عمره ثلاثاً وستين سنة. وقال ابن عباس أيضاً ودغفل بن حنظلة: كان عمره خمساً وستين سنة. وقال عروة بن الزبير: كان عمره ستين سنة والله أعلم بالحقيقة.



(المقالة الثالثة)
(فى الخلفاء الراشدين وفيها فصول)

(الفصل الأول)
(فى خلافة أبى بكر الصديق)

لما تولى أبو بكر الأمر بعد وفاة صاحب الشريعة كان قد استفحل أمر الخلاف بين العرب وظهر النفاق وتأخر سير جيش أسامة بن زيد إلى الشام بأسباب وفاة صاحب الشريعة وظهور الفتنة فى العرب وارتداد الخاصة والعامة من كل قبيلة وبقى المسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة لفقد صاحبهم وقلتهم وكثرة عدوهم. وكان أبو بكر قد نادى فى جيش أسامة بالخروج إلى الشام كما أمر صاحب الشريعة وكرر أبو بكر النداء بالتعجيل . فقال الناس لأبى بكر: إن هؤلاء (يعنون جيش أسامة) جند المسلمين والعرب على ما ترى فقد انتقضت بك فلا ينبغى أن تفرق جماعة المسلمين عنك. فقال أبو بكر: والذى نفسى بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبىّ ﷺ فخاطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة إلى معسكره بالجرف فخرجوا كما أمرهم وحبس أبو بكر من بقى من تلك القبائل التى كانت لهم الهجرة فى ديارهم فصاروا مسائح حول قبائلهم وهم قليل فلما خرج الجيش إلى معسكرهم بالجرف وتكاملوا أرسل أسامة عمر بن الخطاب وكان معه فى جيشه إلى أبى بكر يستأذنه أن يرجع بالناس. وقال: إن معى وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفه رسول الله وحرم رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون. وقال: من مع أسامة من الأنصار لعمر بن الخطاب إن أبا بكر خليفة رسول الله ألا فامض فأبلغه عنا وأطلب إليه أن يولى أمرنا أقدم سنا من أسامة فخرج عمر بأمر أسامة إلى أبى بكر فأخبره بما قال أسامة فقال: لو خطفتنى الكلاب

والذئاب لأنفذته كما أمر به رسول الله ﷺ ولا أرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته، قال عمر: فإن الأنصار تطلب رجلاً أقدم سناً من أسامة، فوثبت أبو بكر وكان جالساً وأخذ بلحية عمر. وقال: ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أعزله، ثم خرج أبو بكرحتى أتاهم وأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب. فقال له أسامة: ياخليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن . فقال: والله لانزلت ولا أركب وما علىّ أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله فلما أراد أن يرجع. قال لأسامة إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل فأذن له ثم وصاهم فقال لهم: لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تقعروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له وسوف تمرون بأقوام قد فحصوا أواسط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقاً اندفعوا باسم الله، وأوصى أسامة أن يفعل ما أمره به صاحب الشريعة فساروا وأوقع بقبائل من ناس قضاعة التى ارتدت وغنم وعاد وكانت غيبته أربعين يوماً وقيل سبعين يوماً.

قال أصحاب التاريخ: وكان إنفاذ جيش أسامة أعظم الأمور نفعاً للمسلمين فإن العرب قالوا: لو لم يكن بهم قوّة لما أرسلوا هذا الجيش فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه . وقال بعضهم: لما مات صاحب الشريعة ارتدت العرب ومنعت الزكاة فجمع أبو بكر الصحابة وشاورهم فى الأمر وفى قتال العرب فاختلفوا عليه. وقال له عمر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها فقد عصم منى دمه وماله إلا بحقه وحسابه على الله عزّ وجلّ. فقال أبو بكر والله لأقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعونى عناقاً كانوا يؤدّونها رسول الله لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فوالله ما هو إلا أن شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق، وفى رواية. قال عمر: فقلت تألف الناس وأرفق بهم فقال: أجبارا فى الجاهلية وخوّارا فى الإسلام ياعمر إنه قد انقطع الوحى وتم الدين أينقص وأنا حىّ ثم خرج لقتالهم.

وقال ابن قتيبة ارتدت العرب إلا القليل منهم فجاهدهم الصدّيق حتى استقاموا وفتح اليمامة وقتل مسيلمة الكذاب بها والأسود العنسى الكذاب بصنعاء وبعث الجيوش إلى الشام والعراق، وأخرج ابن عبد الحكم عن على بن رباح اللخمى.

قال: بعث أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطباً إلى المقوقس بمصر فمر على ناحية قرى الشرقية فعاهدهم وأعطوه فلم يزالوا على ذلك حتى دخلها عمرو بن العاص فقاتلوه وانتقض ذلك العهد، وقال عبد الملك بن مسلمة وهى أول هدنة كانت بمصر (قلت) ولم أر فى قول أحد من أهل التاريخ شيئاً من نحو ذلك البتة، وأقام أبو بكر يدبر الأمر ويبعث البعوث والسرايا إلى الآفاق ويشدّد على من ارتد من القبائل ويعمل فى رقاب أصحاب الفتنة بالسيف حتى استقام له الأمر وعلت كلمة الإسلام ولاحت طوالعه فى سماء السعادة وما زال حتى مرض وثقل به المرض ومات وله ثلاث وستون سنة قيل: ولما مرض ترك التطبب تسليماً للأمر فعاده الصحابة وقالوا: ألاندعو لك طبيباً ينظر إليك فقال نظر إلىّ فقالوا: وما قال لك؟ قال: قال لى إنى فعال لما أريد، وتوفى ليلة الثلاثاء بين المغرب والعشاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ودفن فى حجرة عائشة مع صاحب الشريعة وكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وثمانية أيام.

(الفصل الثانى)

(فى خلافة عمر بن الخطاب)

ثم قام بالأمر بعده عمر بن الخطاب بويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه أبو بكر بوصية من أبى بكر إليه، فهو عمر الفاروق وهو أول من سمى بأمير المؤمنين وهو أول المهاجرين الأولين قيل صلى إلى القبلتين وشهد بدراً وبيعة الرضوان وجميع المشاهد مع صاحب الشريعة ولما أسلم تعزز به الإسلام، واختلف الكتاب فى إسلام عمر فمن قائل: أسلم بعد تسعة وثلاثين رجلاً وثلاث وعشرين امرأة ومن قائل بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة. ومن قائل بل أسلم بعد خمسة وأربعين رجلاً وإحدى وعشرين امرأة، وكان رجلاًجلداً منيعاً شديد البأس جباراً. وكان إسلامه بعد هجرة من هاجر من أصحاب صاحب الشريعة إلى الحبشة قيل وكان أصحاب صاحب الشريعة لا يقدرون أن يصلوا عند الكعبة حتى أسلم عمر. فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى صاحب الشريعة عندها وصلى معه أصحابه وكان قد أسلم قبل عمر حمزة بن عبد المطلب فقوّى بهما الإسلام وتحقق المسلمون أنهما سيمنعان صاحب الشريعة والمسلمين واختلفوا أيضاً فى سبب إسلامه بعد الذى كانوا يرونه من شدّته وجبروته على المسلمين، قالت أم عبد الله بنت أبى حثمة: وكانت

زوج عامر بن ربيعة إنا لنرحل إلى أرض الحبشة . وقد ذهب عامر لبعض حاجته إذ أقبل عمر وهو على شركه حتى وقف عليّ وكنا نلقى منه البلاء أذى وشدّة. فقال: أتنطلقون ياأم عبد الله. قالت: قلت: نعم. والله لنخرجنّ في أرض الله فقد آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجا. قالت: فقال صحبكم الله ورأيت له رقة وحزناً فلما عاد عامر أخبرته وقلت له لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا. قال أطمعت فى إسلامه قلت. نعم. فقال لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب لما كان يرى من غلظته وشدّته على المسلمين قالت: فهداه الله تعالى فأسلم فصار على الكفار أشد منه على المسلمين.

وقال جماعة: أن سبب إسلامه أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت تحت سعيد ابن زيد بن عمرو العدوى وكانا مسلمين يخفيان إسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام العدوى قد أسلم أيضاً وهو يخفى إسلامه خوفاً من قومه وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة يقرئها القرآن فخرج عمر يوماً ومعه سيفه يريد قتل صاحب الشريعة وأصحابه وهم مجتمعون فى دار الأرقم عند الصفا وعنده من لم يهاجر من المسلمين فى نحو أربعين رجلاً فلقيه نعيم بن عبد الله. فقال: أين تريد ياعمر فقال: أريد محمداً الذى فرّق أمر قريش وعاب دينها فأقتله. فقال نعيم: والله لقد غرتك نفسك أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم. فقال: وأى أهلى. فقال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد وأختك فاطمة فقد والله أسلما فرجع عمر إليهما وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما القرآن فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب وأخذت فاطمة الصحيفة فألقتها تحت فخذها وقد سمع عمر قراءة خباب فلما دخل قال ما هذه الهينمة قالا ما سمعت شيئاً. قال: إنكما تابعتما محمداً وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته تكفه فضربها فشجها فلما فعل ذلك. قالت له أخته قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما شئت فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم . وقال لها أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرؤن فيها الآن حتى أنظر إلى ما جاء به محمد فقالت إنا نخشاك عليها فحلف أنه يعيدها. قالت: وقد طمعت فى إسلامه إنك نجس على شركك ولا يمسها إلا المطهرون فقام فاغتسل فأعطته الصحيفة وقرأها وفيها طه وكان كاتباً فلما قرأ بعضها. قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه فلما سمع خباب خرج إليه. وقال ياعمر: إنى والله لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإنى سمعته أمس وهو يقول اللهم أيد الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى الحكم بن

هشام فالله الله يـاعمر فقال عـمر: عند ذلك فدلني ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم فدله خباب فأخذ بسيفه وجاء إلى صاحب الشريعة وأصحابه وضرب عليهم الباب فقام رجل منهم ينظرمن بالبـاب فرآه متوشحا بسيفه فأخـبر صاحب الشريعة. فقال حمزة: ائذن له فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له وإن أراد شراً قتلناه بسيفه فأذن له فنهض إليه صاحب الشريعة حتى لقيه فأخذ بمجامع ردائه ثم جذبه جذبة شديدة. وقال: ما جاء بك مـا أراك تنتهى حتى ينزل الله عليك قارعة. فقـال عمر: يارسول الله قد جئت لأومن بالله وبرسوله فكبر صاحب الشريعة تكبيرة شديدة، قال عمر: ولما أسلمت أتيت باب أبى جـهل بن هشـام فضـربت عليه بابه فـخرج إليّ وقـال: مرحـبا بابن أخى مـا جاء بك قلت جئتن لأخبـرك أنى قد أسلمت وآمنت بمحـمد ﷺ وصدّقت ما جاء به. قال: فضرب الباب فى وجهى. وقال: قبحك الله وقبح ما جئت به. اهـ. وقيل فى إسـلامه غير ذلك، وكانت العرب لا تحب توليـة عمر الخلافة بـعد أبى بكر لغلظته وشدّته فلـما نزل بأبى بكر الموت دعا عبـد الرحمن بن عوف. فقال: أخـبرنى عن عمر فقال أنه أفضل من رأيت إلا أن فـيه غلظة. فقال أبو بكر: ذلك لأنه يرانى رفـيقاً ولو أفضى الأمـر إليه لترك كـثيراً مما هو عليـه وقد رمقته فكنت إذا غضبت على رجل أرانى الرضا عنه وإذا لنت إلى رجل أرانى الشدّة عليه. ثم دعـا عثمان بن عفـان. وقال له أخبرنى عن عـمر فقال سريـرته خير من علانيته وليس فينا مثله. فقال أبو بكر: لهـما لا تذكرا مما قلت لكما شيئاً ولو تركته ما عـدوت عثمـان والخيرة له الآن أن يلى من أمـوركم شيئـاً ولوددت أنى كنت من أموركم خلوا وكنت فيـمن مضى من سلفكم، ودخل طلحة بن عـبيد الله على أبى بكر فقـال: استخلفت على الناس عمـر. وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت مـعه وكيف به إذا خلا بهم وأنت لاق ربك فسائلك عن رعيتك، فقال أبو بكر أجلسونى فأجلسوه فقال أبالله تخوّفنى إذا لقيت ربى فـسألنى قلت استخلفت على أهلك خير أهلك ثم إن أبا بكر أحضر عثمان بن عفان خالياً ليكتب عهد عمر. فقال له اكتب، بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبى قحافة إلى المسلمين أما بعد ثم أغمى عليه فكتب عثمان أما بعد فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولـم آلكم خيراً ثم أفـاق أبو بكر فقال أقرأ علىّ فقرأ عليـه. قال الراوى: فكبر أبو بكر. وقال: أراك خفت أن يختلف الناس إن مت فى غشيتى. قال: نعم. قال: جزاك الله خيـراً عن الإسلام وأهله. فلمـا كتب العهـد أمره أن يقرأه على الـناس فجمـعهم وأرسل الكتاب مع رسـول له ومعه عمـر فكان عمر يقـول للناس أنصتوا واسمـعوا

لخليفة رسول الله ﷺ فإنه لم يألكم نصحاً فسكن الناس فلما قرئ عليهم الكتاب سمعوا وأطاعوا وكان أبو بكر أشرف على الناس. وقال أترضون بمن استخلفت عليكم فإني ما استخلفت عليكم ذا قرابة وإني قد استخلفت عليكم عمر فاسمعوا له وأطيعوا فإني والله ما ألوت من عهد الرأى. فقالوا: سمعنا وأطعنا ثم أحضر أبو بكر عمر. وقال له إني قد استخلفتك على أصحاب رسول الله ﷺ وأوصاه بتقوى الله. ثم قال له: ياعمر إن لله حقاً بالليل لا يقبله فى النهار وحقاً فى النهار لا يقبله فى الليل وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدّى الفريضة ألم تر ياعمر أنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه غدا إلا حق أن يكون ثقيلاً، ألم تر ياعمر إنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان أن لا يوضع فيه إلا باطل أن يكون خفيفاً، ألم تر ياعمر إنما نزلت آية الرخاء مع آية الشدّة وآية الشدّة مع آية الرخاء ليكون المؤمن راغباً راهباً لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له ولا يرهب رهبة يلقى فيها بيديه، ألم تر ياعمر أن الله ذكر أهل النار بأسوإ أعمالهم فإذا ذكرتهم قلت إني لأرجو أن لا أكون منهم وأنه إنما ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم لأنه تجاوز لهم عما كان من سيء فإذا ذكرتهم قلت أين عملى من أعمالهم فإن حفظت وصيتى فلا يكونن غائب أحب إليك من حاضر من الموت ولست بمعجزه . اهـ. وتوفى أبو بكر فلما دفن صعد عمر بن الخطاب فخطب الناس. ثم قال: إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده لينظر قائده حيث يقوده وأما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق. قال بعض الكتاب وهو أوّل من عس فى عمله أى كان يمشى ليلاً لحفظ الدين والناس فهابه الناس هيبة عظيمة حتى تركوا الجلوس بالأفنية فلما بلغه هيبة الناس له جمعهم ثم قام على المنبر حيث كان أبو بكر يضع قدميه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: قد بلغنى أن الناس قد هابوا شدّتى وخافوا غلظتى. وقالوا: قد كان عمر يشتدّ علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ثم اشتدّ علينا وأبو بكر ﷺ والينا دونه فكيف الآن وقد صارت الأمور إليه ولعمري إن من قال ذلك فقد صدق كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخادمه حتى قبضه الله عزّ وجلّ وهو عنى راض والحمد لله وأنا أسعد الناس بذلك ثم ولى أمر الناس أبو بكر ﷺ فكنت خادمه وعونه أخلط شدّتى بلينه فأكون سيفا مسلولاً حتى يغمدنى أو يدعنى فما زلت معه كذلك حتى قبضه الله تعالى وهو عنى راض والحمد لله وأنا أسعد الناس بذلك ثم إنى وليت أموركم فأعلموا أن تلك الشدّة قد تضاعفت ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدّى على المسلمين وأما أهل السلامة والدين

والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض ولست أدع أحداً يظلم أحداً ويتعدّى عليه حتى أضع خدّه على الأرض وأضع قدمى على خده حتى يذعن للحق ولكم علىّ أيها الناس أن لا أخبأ عنكم شيئاً من خراجكم وإذا وقع عندى أن لا يخرج إلا بحقه ولكم علىّ أن لا ألقيكم فى المهالك وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا أقول قولى هذا وأستغفر الله العظيم لى ولكم . اهـ. قال سعيد بن المسيب: وفىّ والله عمر وزاد فى الشدّة فى مواضعها واللين فى مواضعه، قيل ولما رجع من الشام إلى المدينة انفرد عن الناس ليتعرّف أخبار رعيته فمرّ بعجوز فى خبائها فقصدها. فقالت: ياهذا ما فعل عمر. قال: قد أقبل من الشام سالماً فقالت: لا جزاه الله عنى خيراً. قال: ولِمَ قالت: لأنه والله ما نالنى من عطائه منذ ولى أمر المؤمنين دينار ولا درهم فقال: وما يدرى عمر بحالك وأنت فى هذا الموضع. فقالت: سبحان الله والله ما ظننت أن أحدا يلى على الناس ولا يدرى ما بين مشرقها ومغربها فبكى عمر . وقال: واعمراه كل أحد أفقه منك حتى العجائز ياعمر. ثم قال لها: ياأمة الله بكم تبيعينى ظلامتك من عمر فإنى أرحمه من النار فقالت: لا تهزأ بنا يرحمك الله فقال: لست بهازىء فلم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين ديناراً فبينما هو كذلك إذ أقبل على بن أبى طالب وابن مسعود فقالا السلام عليك ياأمير المؤمنين فوضعت العجوز يدها على رأسها. وقالت: واسوأتاه شتمت أمير المؤمنين فى وجهه. فقال لها عمر: لا بأس عليك رحمك الله ثم طلب رقعة يكتب فيها فلم يجد فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها، بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها مذ ولى إلى يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين ديناراً مما تدعى عند وقوفها فى المحشر بين يدى الله تعالى فعمر منه برىء وشهد على ذلك على بن أبى طالب وابن مسعود، ثم دفع الكتاب إلى ولده. وقال: إذا أنا مت فأجعله فى كفنى ألقى به ربى، قال بعض الكتاب: وهو أوّل من أرّخ التاريخ وذلك فى سنة ست عشرة وفيها كان فتح بيت المقدس صلحا وفيه نزل سعد بن أبى وقاص على الكوفة وحصرها وهو أول من دوّن الدواوين ومصر الأمصار وفتح الفتوحات الكثيرة ففتح دمشق ثم الروم ثم فارس ثم انتهى الفتح إلى حمص وحلوان والرقة والرها وحران ورأس العين وخابور ونصيبين وعسقلان وطرابلس وما يليها من الساحل وبيسان واليرموك والأهواز وقيسارية.

قال ابن عبد الحكم: حدثنا عثمان بن صالح أنبأنا ابن لهيعة عن عبد الله بن أبى جعفر وعياش بن عباس العتابى وغيرهما يزيد بعضهم على بعض. قالوا: ولما

كانت سنة ثمان عشرة وفد عمر بن الخطاب الجابية قام إليه عمرو بن العاص فخلا به. فقال: ياأمير المؤمنين إئذن لى أن أسافر إلى مصر وحرّضه عليها. وقال: إنك إن فتحتها كانت قوّة للمسلمين وعوناً لهم وهى أكثر الأرض أموالاً وأعجزهم على القتال والحرب فتخوّف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر ويخبره بحالها يوهون عليه فتحها حتى ركن لذلك عمر فعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عك. ويقال: على ثلاثة آلاف وخمسمائة فقال عمر: سر وأنا متخير الله فى مسيرك وسيأتى إليك كتابى مسرعاً إن شاء الله تعالى. فإن أدركك كتابى وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس واستخار عمر الله فكأنه تخوّف على المسلمين فى وجههم ذلك فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح فتخوّف عمرو بن العاص إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين فج والعريش فسأل عنها فقيل إنها من مصر فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين فقال عمرو ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر قالوا: بلى. فقال: إن أمير المؤمنين عهد إلىّ وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل مصر أن أرجع ولم يلحقنى كتابه حتى دخلنا مصر فسيروا وأمضوا على بركة الله فتقدم عمرو بن العاص. فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو توجه إلى الفسطاط، وكان أول موضع قوتل فيه الفرما قاتلته الروم قتالاً شديداً نحو شهر حتى فتح الله على يديه وكان بالإسكندرية أسقف للقبط اسمه بنيامين فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص كتب إلى القبط يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقى عمرو ومعاونته على الروم فصار القبط الذين فى الفرما يومئذ لعمرو أعواناً ثم توجه عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى نزل القواصر فنزل ومن معه ثم تقدم وهو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس فقاتلوه بها نحواً من شهرحتى فتحها ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين فقاتلوه بها قتالاً شديداً وأبطأ عليه الفتح فكتب إلى عمر يستمده فأمده بأربعة آلاف رجل تمام ثمانية آلاف فسار عمرو بمن معه حتى نزل على الحصن فحاصرهم بالقصر الذى يقال له باب ليون حيناً وقاتلهم فلما أبطأ عليه الفتح كتب إلى عمر بن الخطاب يستمده فأمده عمر بأربعة آلاف رجل على كل ألف رجل منهم

رجل وكتب إليه إني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الألف الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد واعلم أن معك اثنى عشر ألفا ولن تغلب اثنا عشر ألفا من قلة، وكان الروم قد خندقوا حول حصنهم وجعلوا للخندق أبوابا وجعلوا سسك الحديد موتدة بأبنية الأبواب فلما قدم المدد إلى عمرو بن العاص أتى إلى القصر ووضع عليه المنجنيق وكان على القصر رجل من الروم يقال له الأعيرج والياً عليه وهو مندقور فرمى عمرو بالمنجنيق على الروم وطال القتال بين الفريقين أياماً كثيرة والقبط يعاونون العرب على القتال سراً كرهاً فى الروم فلما أبطأ الفتح. قال الزبير إنى أهب نفسى لله أرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلماً إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام وأمرهم إن سمعوا تكبيره أن يجيبوه جميعاً فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف وتجامع الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفاً من أن ينكسر فلما اقتحم الزبير وتبعه من تبعه وكبر وكبر من معه وأجابهم المسلمون من خارج لم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعاً فهزموا فعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن فحينئذ سأل المقوقس عمرو بن العاص الصلح ودعاه إليه على أن يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم فأجابه عمرو إلى ذلك قيل وكان مكثهم على باب القصر حتى فتحوه سبعة أشهر وكان قد تنحى المقوقس وجماعة من أكابر القبط وخرجوا من باب القصر القبلى فلحقوا بالجزيرة وأمروا بقطع الجسر وذلك فى جرى النيل وتخلف الأعيرج فى الحصن ثم ركب هو وأهل القوّة والشرف بعد قليل وكانت سفنهم ملصقة بالحصن ولحقوا بالمقوقس فى الجزيرة فأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص يقول: إنكم قوم قد ولجتم فى بلادنا وألححتم فى قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم رجهزوا عليكم ومعهم من العدة والسلاح وقد أحاط بكم هذا النيل وإنما أنتم أسارى فى أيدينا فأرسلوا لنا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، فرد عليهم عمرو مع رسله أن ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال أما إن دخلتم فى الإسلام فكنتم لنا إخواناً. وكان لكم ما لنا وإن أبيتم أعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون وأما إن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين فرد إليه المقوقس رسله وقال: ابعثوا إلينا رسلا منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم على ما عسى أن يكون فيه صالح لنا ولكم فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وهو أقدم من أدرك

الإسلام من العرب وطوله عشرة أشبار وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه تقدم عبادة وتكلم معه. وقال انظر الذى تريد فبينه لنا فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منكم ولا نجيبكم إليها إلا خصلة من ثلاث فاختر أيها شئت بذلك أمرنى الأمير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا فلم يقبل أصحاب المقوقس ذلك وأمروا بقطع الجسر بين الفسطاط والجزيرة فعاد الفريقان بعد ذلك للقتال وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة وصار المسلمون قد أحدق بهم الماء من كل وجه لا يقدرون على أن ينفذوا أو يتقدموا نحو الصعيد ولا إلى غير ذلك من المدائن والقرى وراسل عمرو بن العاص المقوقس ولج فأجابه المقوقس. وقال نجتمع أنا وأنت فى نفر من أصحابى ونفر من أصحابك فإن استقام الأمر بيننا تم لنا ذلك وإن لم يتم رجعنا إلى ما كنا عليه فاستشار عمرو أصحابه فى ذلك. وقال قد علمتم ما عهد إلىّ أمير المؤمنين فى عهده فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التى عهد إلىّ بها أجبتهم إليها. وقبلت منهم مع ما قدحال بيننا وبين ما نريد من قتالهم فأذعنوا واجتمعوا على عهد بينهم وتقررت القاعدة على أن يفرضوا على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين عن كل نفس شريفهم ووضيعهم ومن بلغ الحلم منهم ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم ولا على النساء شىء وعلى أن للمسلمين عليهم النزل لجماعتهم حيث نزلوا ومن نزل عليه ضيف واحد من المسلمين أو أكثر من ذلك كانت لهم ضيافة ثلاثة أيام وأن لهم أرضهم وأموالهم لا يتعرض لهم فى شىء منها قط ووافق المقوقس على ذلك وفرض عمرو بن العاص على نفسه القيام بكرامة المقوقس وأن لا يشاغبه على ما فى يده ولا يسلبه حقه وأحصوا عدد القبط يومئذ خاصة من بلغ منهم الجزية وفرض عليهم الديناران فكان جميع من أحصى يومئذ بمصر فيما أحصوا وكتبوا أكثر من ستة آلاف ألف نفس فكانت فريضتهم اثنى عشر ألف ألف دينار كل سنة. وقيل بلغت غلتهم ثمانية آلاف ألف.

وشرط المقوقس للروم أن يتخيروا فمن أحب منهم أن يقيم على هذا الشرط أقام على هذا الأمر الذى هو مفترض عليه ممن أقام بالإسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها ومن أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج على أن للمقوقس الخيار فى الروم خاصة حتى يكتب إلى ملك الروم يعلمه ما فعل فإن قبل ذلك ورضيه جاز عليهم وإلا كانوا جميعاً على ما كانوا عليه وكتبوا به كتاباً وكتب المقوقس إلى ملك الروم يعلمه على وجه الأمر كله، قال الراوى: فكتب إليه ملك الروم يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل ويقول فى كتابه: إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفاً وبمصر

من بها من كثرة عدد القبط ما لا يحصى. فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب وأختاروهم عنا ولا أراهم إلا فاعلون ذلك فإن عندك بمصر من الروم وبالإسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوّة والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى حال القبط فقاتلهم أنتِ ومن معك من الروم حتى تموت أو تظهر عليهم فإنهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم على قدر قلتهم وضعفهم كاكلة فناهضهم القتال ولا يكون لك رأى غير ذلك، وكتب ملك الروم بمثل ذلك كتاباً لجماعته واتفق المقوقس وعمرو بن العاص على أن يكون القبط له أعواناً ويقيموا له الإنزال والضيافة والأسواق والجسور ما بين الفسطاط إلى الإسكندرية ففعلوا واستعدت الروم وجاشت وقدم عليهم من أرض الروم جمع عظيم ثم التقوا ببلدة سلطيّس فاقتتلوا بها قتالاً شديداً ثم انهزموا ثم التقوا بالكربون فاقتتلوا بها بضعة عشر يوماً. وكان عبد الله بن عمرو على المقدمة وحامل اللواء يومئذ وردان مولى عمرو واشتد الروم فى قتال المسلمين شدّة بالغة وأبلى المسلمون بلاء حسناً وما زال القتال حتى بلغ الروم الإسكندرية فتحصنوا بها وكانت عليهم حصون مبنية لا ترام حصن دون حصن فنزل المسلمون ما بين حلوة إلى قصر فارس إلى ما وراء ذلك ومعهم رؤساء القبط يمدّونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلوفة وغير ذلك ورسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية فى المراكب بمادّة الروم وتجهز هرقل ملك الروم لقتال المسلمين بمدينة الإسكندرية فأدركته المنية قبل قيامه ومات سنة خمس وأربعين وستمائة للميلاد أى سنة ثلاث وعشرين للهجرة، وما زالوا على قدم القتال حتى فتحت الإسكندرية وهرب الروم فى البر والبحر فخلف عمرو بن العاص بالإسكندرية من أصحابه ومضى بمن معه فى طلب من هرب من الروم فى البر فرجع من كان هرب من الروم فى البحر إلى الإسكندرية فقتلوا من كان بها من المسلمين إلا من هرب منهم وبلغ ذلك عمرو بن العاص فكر راجعاً ففتحها وأقام بها وكتب إلى عمر بن الخطاب أن الله قد فتح علينا بالإسكندرية عنوة بغير عقد ولا عهد فكتب إليه عمر بن الخطاب يقبح رأيه ويأمره أن لا يجاوزها، قال ابن عبد الحكم وحدّثنا عثمان بن صالح عن أبى لهيعة. قال: بعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج وافداً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بشيراً له بالفتح فقال له معاوية ألا تكتب معى كتاباً. قال له عمرو: وما تصنع بالكتاب ألست رجلاً أعرابياً تبلغ الرسالة وما رأيت وما حضرت فلما قدم على عمر وأخبره بفتح الإسكندرية خر عمر ساجداً. وقال الحمد لله. قال: وحدثنا إبراهيم بن سعد البلوى. قال: كتب عمرو بن العاص

إلى عمـر بن الخطاب ﷺ أما بعد فـإنى فتـحت مدينة لا أصف ما فـيها غـير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بنية. بأربعـة آلاف حمام وأربعين ألف يهودى وأربعمائة ملهى للملوك، وأخرج عن إبراهيم بن سعد البلـوى المذكور أن سبب فتح الإسكندرية أن رجلاً كان يقال له ابن بسـامة كان بوّاباً فسأل عمرو بن العـاص أن يؤمنه على نفسه وأرضه وأهل بيته ويفتح له الباب فأجابه عمرو إلى ذلك ففتح له الباب فدخل.

(مطلب)

(فـى الخلاف بين العلماء فـى مصر هل فتحـت صلحـاً أو عنـوة؟)

فمن قـائل أنها فتحت صلحـاً. قال ابن عبـد الحكم حدثنى عثمـان بن صالح أخبرنا الليث. قال: كان يزيد بن أبى حبيب يقول: مصر كلها صلح إلا الإسكندرية فإنها فتحت عنوة.

وأخرج عن يحيى بن أيوب وخالد بن حميد، قال: فتح الله أرض مصر بصلح غـيـر الإسكندرية وثلاث قـريات ظاهروا الروم علـى المسلمـين سلطيس ومـصـيل وبلهيت، وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب. قال: كانت قرى من قرى مصر قاتلت ونقـضوا العهد فسبـوا منها قرية يقال لها بلهيت وقـرية يقال لها الخيس وقرية يقال لها سلطيس وقرطا وفرّق سباياهم بالمدينة وغيرها فردّهم عمر بن الخطاب ﷺ إلى قراهم وصيرهم وجماعة القبط أهل ذمة. وأخرج يحيى بن أيوب أن أهل سلطيس ومصيل وبلـهيت ظاهروا الروم على المسلمين فى جمع كـان لهم فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم. وقالوا: هؤلاء لنا فىء مع الإسكندرية فكتب عمرو بن العاص بذلك إلى عمر بن الخطاب ﷺ عنه وكـتب إليه عمر أن يجعل الإسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمـة للمسلمين ويضربون عليهم الخراج ويكـون خراجهم وما صالح عليـه القبط قوة للمسلمـين على عدوّهم ولا يجعلون فيـئا ولا عبيـداً ففعل ذلك.

ومن قائل أنها فتحت عنوة ، قال ابن عبـد الحكم: حدّثنا عبد الملك بن مسلمة وعثمـان بن صالح، قال: أخبـرنا ابن لهيعة عن ابـن هبيرة أن مصر فـتحت عنوة، وقال: أخبرنا عـبد الملك بن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم. قال: سـمعت أشياخنا يقولون: إن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد، وقال: أنبأنا عبد الملك بن مسلمة

عن ابن وهب عن داود بن عبد الله الحضرمي أن أبا حيان أيوب بن أبى العالية حدثه عن أبيه أنه سمع عمرو بن العاص يقول لقد قعدت مقعدى هذا وما لأحد من قبط مصر علىّ عهد ولا عقد إلا أهل أنطابلس؛ فإن لهم عهدا يوفى لهم به، حدثنا عبد الملك حدثنا ابن لهيعة عن أبى قتبان به وزاد إن شئت قتلت وإن شئت خمست وإن شئت بعت، وأخرج عن ربيعة بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن عمرو بن العاص. قال: فتحت مصر بغير عهد ولا عقد وأن عمر بن الخطاب حبس درها وصرها أن يخرج منه شيء نظراً للإسلام وأهله، وأخرج عن زيد بن أسلم، قال: كان تابوت لعمر بن الخطاب فيه كل ما كان بينه وبين أحد ممن عاهده فلم يوجد فيه لأهل مصر عهد، وأخرج عن الصلت بن أبى عاصم أنه قرأ كتاب عمر بن عبد العزيز إلى حيان بن شريح أن مصر فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد.

ومن قال: إن بعضها صلح وبعضها عنوة، قال ابن عبد الحكم: حدّثنا يحيى ابن خالد عن راشد بن سعد، عن عقيل بن خالد، عن ابن شهاب قال: كان فتح مصر بعضها بعهد وذمة وبعضها عنوة فجعلها عمر بن الخطاب جميعاً ذمة وحملهم على ذلك فمضى فيهم ذلك إلى اليوم (قلت) وقد أثبت أصحاب التاريخ من غير العرب من المتقدمين والمتأخرين أن مصر فتحت كلها صلحاً باتفاق مع المقوقس عظيم القبط يومئذ تخلصاً من ربقة ظلم الروم وعسفهم وقد لخص القضاعى فى كتابه الخطط قصة فتح مصر تلخيصاً وجيزاً هو أقرب للصواب، قال: لما قدم عمرو ابن العاص ﷺ من عند عمر ﷺ كان أوّل موضع قاتل فيه الفرما قتالاً شديداً نحواً من شهر قال: قال أبو عمرو الكندى: وكان أوّل من شد على باب الحصن حتى اقتحمه أسميقع بن وعلة السبائى وأتبعه المسلمون فكان الفتح وتقدم عمرو لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين وهى المقس فقاتلوه بها قتالاً شديداً وكتب إلى عمر يستمده فأمده باثنى عشر ألف نفر فوصلوا إليه أرسالاً يتبع بعضهم بعضاً، وكان فيهم أربعة آلاف عليهم أربعة وهم الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، وقيل أن الرابع خارجة بن حذافة دون مسلمة ثم أحاط المسلمون بالحصن وأمير الحصن يومئذ المندقور الذى يقال له الأعيرج من قبل المقوقس بن قرقت اليونانى، وكان المقوقس ينزل الإسكندرية وهو فى سلطان هرقل غير أنه كان حاضراً الحصن حين حاصره المسلمون ونصب عمرو فسطاطه فى موضع الدار المعروفة بإسرائيل التى على باب زقاق الزهرى، ويقال فى دار أبى

الوزام التى فى أوّل زقاق الـزهرى ملاصقـة لدار إسرائيل وأقام المسـلمون على باب الحصن محـاصرين للروم سبعـة أشهر، ورأى الزبيـر خللاً مما يلى دار أبى صـالح الحورانى الملاصـقـة لحمام ابـن نصـر السراج عنـد سـوق الحـمـام فنـصب سُلمًا وأسنده إلى الحـصن. وقال: إنى أهب نفـسى لله عـزّ وجلّ فمن شـاء أن يتبـعنى فليتبـعنى فتبعـه جماعة حتى أوفى على الحـصن فكبر وكبروا ونصب شـرحبيل بن حسنة المرادى سلمـاً آخر مما يلى زقاق الزمـامرة. ويقال أن السلم الذى صعـد عليه الزبير كان موجوداً فى داره التى بسـوق وردان إلى أن وقع حريق فاحترق. ولما رأى المقوقس أن العـرب قد ظفروا بالحـصن جلس فى سفنه هو وأهل الرفعـة من القوم وكانت ملصقـة بباب الحصن الغربى فلحـقوا بالجزيرة وقطعوا الجـسر وتحصنوا هناك والنيل حينئذ فى مـدّه وتكلموا فى أمر الصلح فبعث عمرو بـعبادة بن الصامت إلى المقوقس فصالحه المقـوقس على القبط والروم على أن للروم الخيار فى الصلح إلى أن يوافى كتـاب ملكهم فإن رضى تم ذلك وإن سـخط انتقض ما بيـنه وبين الروم وأما القبط فبـغير خيار. قال: وكـان الذى انعقد عليه الصلح أن فـرض على جميـع من بمصـر أعـلاها وأسفلـهـا من القبط دينارين عن كل نفس فى كل سنة من البـالغين شريفهم ووضيـعهم دون الشيوخ والأطفال والنساء على أن للمـسلمين عليهم النزل والضيافة حيث نزلوا وضيافة ثلاثة أيام لكل من ينزل منهم وأن لهم أرضهم وبلادهم لا يتعرضون فى شىء منها أبداً. اهـ.

(قلـت) فمن قال: إن مصر فتـحت صلحاً تعلق بهذا الصلح. وقال: الأمر لم يتم إلا بما جرى بين عـبادة بن الصامت وبين المقوقس وعلى ذلك أكـثر العلماء من أهل مصر منهم عقبة بن عامر ويزيد بن أبى حبيب والليث بن سعد وغيرهم وذهب الذين قالوا إن مصر فتحت عنوة إلى أن الحصن فتح عنوة فكان جميع الأرض كذلك وكان فتحها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين وذكر يزيد بن أبى حبيب أن عدد الجيش الذى كـان مع عمرو بن العاص خـمسة عـشر ألفا وخمـسمائة، وقال عـبد الرحمن بن سعـد بن مقدام: إن الذين جرت سهامـهم فى الحصن من المسلين اثنا عشر ألفـا وثلثمائة بعـد من أصيب منهم فى الحصار من القـتل والموت. ويقال: إن الذينَ قتلوا فى مدّة هذا الحـصار من المسلمين دفنوا فى أصل الحصن ثم سـار عمرو إلى الإسكندرية فى شـهر ربيع الأوّل سنة عشـرين وقيل فى جـمادى الآخرة فـأمر بفسطاطه أن ينزع فـإذا بيمامـة قد باضت فى أعلاه. فـقال: قد تحـرمت فى جوارنا أقروا الفـسطاط حتى تطـير فراخـها فـأقروا الفـسطاط فى موضـعه فلذلك سـميت

الفسطاط، وقال ابن قتيبة: وإنما العرب تقول لكل مدينة فسطاط ولذلك قيل لمصر فسطاط . اهـ.

ونقل عمرو بن العاص إلى الإسكندرية بعد افتتاحها والمقام بها فى ذى القعدة سنة عشرين. قال الليث: أقام عمرو بالإسكندرية فى حصارها وفتحها ستة أشهر ثم انتقل إلى الفسطاط فاتخذها داراً . اهـ.

وأخرج ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغاً منها همّ أن يسكنها، وقال: مساكن قد كفيناها فكتب إلى عمر بن الخطاب ﷺ يستأذن فى ذلك فسأل عمر الرسول هل يحول بينى وبين المسلمين ماء. قال: نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل فكتب عمر إلى عمرو بن العاص إنى لا أحب نزول المسلمين منزلاً يحول الماء بينى وبينهم فى شتاء ولا صيف فتحوّل عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط، ولما رجع عمرو بن العاص من الإسكندرية ونزل موضع الفسطاط انضمت القبائل بعضها إلى بعض وتقاسموا فى المواضع فولى عمرو على الخطط معاوية بن حديج النجيبى وشريك بن سمى الغيطفى بن مراد وعمرو بن قحزم الخولانى وحيويل بن ناشرة المعافرى فكانوا هم الذين أنزلوا الناس وفصلوا بين القبائل وذلك فى سنة إحدى وعشرين، ذكره الكندى، وقد كان المسلمون حين اختطوا تركوا بينهم وبين البحر والحصن فضاء لتفريق دوابهم وتأديبهم فلم يزل الأمر على ذلك حتى ولى معاوية بن أبى سفيان فأقطع فى الفضاء وبنيت به الدور، وأما الإسكندرية فلم يكن بها تخطيط وإنما كانت أخائذ من أخذ منزلاً نزل فيه هو وبنوه وبنو بنيه. وفى قول ليزيد بن أبى حبيب أن الزبير بن العوام اختط الإسكندرية، وفتح عمر بن الخطاب فى خلافته أيضاً عدا ما تقدم ذكره تستر ونهاوند والرى وما يليها وأصبهان وبلاد فارس وإصطخر وهمذان والنوبة والبرلس والبربر وغير ذلك قيل: وكانت درّته أهيب من سيف الحجاج ومع ذلك كله بقى على حاله كما كان قبل الولاية فى لباسه وزيه وأفعاله وتواضعه يسير منفرداً فى حضره وسفره من غير حرس ولا حجاب لم تغيره إلا مرة ولم يستطل على مسلم بلسانه ولا حابى أحداً فى الحق.

وقتل عمر بن الخطاب سنة ثلاث وعشرين للهجرة قتله أبو لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة واسمه فيروز، وكان المغيرة يستغله كل يوم أربعة دراهم لأنه كان يصنع الأرحاء فلقى عمر يوماً فقال ياأمير المؤمنين: إن المغيرة قد أثقل علىّ غلتى فكلمه لى ليخفف عنى فقال له عمر: اتق الله وأحسن إلى مولاك فغضب أبو لؤلؤة، وقال

ياعجباه قد وسع الناس عدله غيرى وأصر على قتله واصطنع له خنجراً له رأسان وسمه وتحين به عمر. فجاء عمر إلى صلاة الغداة، قال عمرو بن ميمون: إنى لقائم فى الصلاة وما بينى وبين عمر إلا ابن عباس رضي الله عنه فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول قتلنى الكلب حين طعنه وطار العلج بسكين كانت ذات طرفين لا يمر على أحد يمينا وشمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً مات سبعة وقيل تسعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما علم أنه مأخوذ نحر نفسه، فقال عمر قاتله الله: لقد أمرت به معروفاً، ثم قال: الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الإسلام، وكان أبو لؤلؤة مجوسياً توفى فى ذى الحجة لأربع عشرة ليلة مضت منه فى السنة المذكورة بعد طعنه بيوم وليلة عن ثلاثة وستين سنة ودفن مع صاحبه فى حجرة النبى صلى الله عليه وسلم اهـ.

قال صاحب حياة الحيوان فى باب الدال المهملة: روى مسلم وغيره أن عمر رضي الله عنه خطب الناس يوماً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إنى رأيت رؤيا لم أرها إلا لحضور أجلى وهى أن ديكاً نقرنى ثلاث نقرات، وفى لفظ رأيت كأن ديكاً أحمر نقرنى نقرة أو نقرتين فحدثتها أسماء بنت عميس فحدثتنى بأنه يقتلنى رجل من الأعاجم، وكان هذا القول منه يوم الجمعة فطعن يوم الأربعاء رضي الله عنه .اهـ.

قال: وروى الحاكم عن سالم بن أبى الجعد عن معدان بن أبى طلحة عن عمر رضي الله عنه أنه قال على المنبر: رأيت فى المنام كأن ديكا نقرنى ثلاث نقرات فقلت أعجمى يقتلنى وإنى جعلت أمرى لهؤلاء الستة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض وهم: عثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص فمن استخلفوه فهو الخليفة، وذكرا بن خلكان وغيره أن عمر لما طعن اختار من الصحابة ستة نفر وهم المتقدم ذكرهم، وكان سعد بن أبى وقاص غائباً وجعل عبد الله ابنه مشيراً وليس له من الأمر شىء وأقام المسور بن مخرمة وثلاثين نفساً من الأنصار وقال: إن اتفقوا على واحد إلى ثلاثة أيام وإلا فاضربوا رقاب الكل فلا خير للمسلمين فيهم، وإن افترقوا فرقتين فالفرقة التى فيها عبدالرحمن بن عوف، وأوصى أن يصلى صهيب بالناس ثلاثة أيام فأخرج عبد الرحمن بن عوف نفسه من الشورى واختار عثمان فبايعه الناس (قلت) وقد نسب أهل التاريخ هذه الفعلة لعمر من أشنع الفعال وأشدها ضرراً بالإسلام وأهله، ونقل ابن العباس بن عبدالمطلب أنه قال لعلى ياابن أخى لا تدخل نفسك فى الشورى مع القوم فإنى أخاف أن يخرجوك منها فتبقى وصمة فيك فلم يقبل منه، قال: ولما طعن عمر سئل ما أحب الأشربة

إليك ياأمير المؤمنين؟ قال: النبيذ فسقوه نبيذاً فخرج من جرحه فقال قوم نبيذ، وقال قوم دم فسقوه لبناً فخرج من جرحه فقيل له أوص ياأمير المؤمنين فأوصى بالشورى. قال: ويقال: أن عبيدالله بن عمر وثب على الهرمزان فقتله وقتل معه رجلاً نصرانياً من أهل نجران كانا قد اتهما بإغراء أبى لؤلؤة بعمر ﷺ وقتل بنتا طفلة لأبى لؤلؤة ووارهم عثمان ﷺ ولحق عبيد الله بمعاوية فى خلافة على ﷺ، قال: وكان فى أيام عمر الفتوحات العظام وهو الذى سمى الغزوات الشواتى والصوائف، وهو أوّل من أرّخ التاريخ بعام الهجرة وأوّل من دعى أمير المؤمنين وأوّل من ختم الكتب. وكان فى يده خاتم رسول الله ﷺ وأوّل من ضرب بالدرة وحملها، وأوّل من قال أطال الله بقاءك قالها لعلى ﷺ وهو الذى أخر المقام إلى موضعه اليوم. وكان ملصقاً بالباب وهو أوّل من جمع الناس على إمام واحد فى التراويح وحج بالناس عشر سنين متوالية آخرها سنة ثلاث وعشرين ومعه نساء رسول الله ﷺ فى الهوادج ورجع إلى المدينة فرأى الرؤيا المتقدّمة . اهـ.

واستعمل عمر بن الخطاب فى خلافته على مصر بعد فتحها فى سنة تسع عشرة لهجرة عمرو بن العاص فضرب عمرو على أهلها الجزية كما تقدّم بك بيانه وبالغ فى إرهاب الناس وإذلالهم وجمع ما عندهم من الأموال والكنوز واختط مصر قبيل والإسكندرية والجيزة، وكان إلى هذا الحين قد تم له فتح سائر البلاد إلا دمياط وكان العامل عليها يومئذ من قبل الروم (الهاموك) أحد أقارب المقوقس فراسله عمرو فى الإذعان والتسليم فامتنع وقال: لا سبيل إلى ذلك فطاوله فلم يذعن وأصر على ما هو عليه فأنفذ له عمرو المقداد بن الأسود فى جماعة من المسلمين فلاقاه (الهاموك) فى عسكر واقتتل الفريقان قتالاً شديداً فكانت بينهم سجالاً ومات ابن الهاموك فى ساحة القتال فارتد الهاموك إلى دمياط وجمع إليه أصحاب الرأى وكلمهم فى الأمر، قيل: وكان بينهم رجل حكيم مسموع الكلمة فقال أيها الأمير إنا لم نسمع عن هؤلاء القوم منذ جاءوا إلى هذه الديار ووطئوا أرضها إلا ما يدل على تأييدهم ونصرهم وها هم قد فتحوا البلاد وقهروا العباد، وبسطوا يدهم على تلك الممالك الواسعة فالرأى عندى أن تعقد مع القوم صلحاً تحقن به الدماء وتحفظ الأعراض والأموال وانظر إلى ما جرى مع المقوقس وأصحابه فقد صالحوا القوم وكفاهم الله شرهم، قيل: فلم يقبل الهاموك كلامه وباتوا ليلتهم تلك وأصبح الهاموك فنادى فى عسكره بالخروج لقتال المسلمين فلم يتكامل خروجهم حتى سمعوا تكبير المسلمين على أسوار المدينة فسقط الهاموك فى يده وتسلم المسلمون المدينة وجاء الخبر إلى

عمرو بـن العاص بالفتح ففـرح فرحاً لا يوصف، وسار المقـداد بن الأسود بمن بقى معه من المسلمين إلى فتح تانس فقاتله أهلها قـتالاً شديداً وما زال يقاتلها أياماً حتى تم له فتحهـا فلم يبق بعد ذلك شيء بغير فتح وأشتد عمـرو بن العاص فى إحصاء أهل البلاد وتقدير الجزية عليهم فكان يحبس منها ما يحتاج إليه ويبعث إلى عمر بن الخطاب بما بقى منهـا، قال ابن عبد الحكم: وكان عـمرو بن العاص لما استوثق له الأمر أقر قـبطها على جباية الروم فكانت جبـايتهم بالتعديل إذا عمرت القـرية وكثر أهلها زيد عليهـم وإن قل أهلها وخربت نقصوا فـيجتمع عرفـاء كل قرية ورؤساؤها فيـتناظرون فى العـمارة والخراب حـتى إذا أقرّوا من القـسم بالزيادة انصرفـوا بتلك القسمة إلى الكور ثم اجـتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احـتمال القرى وسعة المزارع، ثم ترجع كل قرية إلى قسمتهم فيجـمعونها وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامـرة فيبدأون فـيخرجون من الأرض فـدادين لكنائسهم وحمـاماتهم ومعدياتهم من جملة الأرض ثم يخرج منها عـدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان فإذا فـرغوا نظروا إلى مـا فى كل قرية من الصناع والأجـراء فقسـموا عليـهم بقدر احتمالهم، فإن كانت فيهم جالية قسموا عليها بقدر احتمالها وقلما كانت إلا للرجل الشاب أو المتزوّج ثم نظروا فيما بقى مس الخراج فيقسـمونه بينهم على عدد الأرض ثم يقسـمون ذلك بين من يـريد الزرع منهم على قدر طاقـتهم فـإن عجز أحـد منهم وشكى ضعـفا عن زرع أرضه وزعـوا ما عجـز عنه على ذوى الاحتمـال، وإن كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف فإن تشاحنوا قسموا ذلك على عدتهم وكانت قسـمتهم على قراريط الدينار أربعة وعشرين قيـراطا يقسمون الأرض على ذلك وجعل عليهم عمرو بن العـاص لكل فدان نصف أردب قمح وويبتين من شعير إلا القـرظ فلم يكن عليه ضريبة، قال عبد الملك بن اللـيث بن سعد: كانت ويبة عمر بن الخطاب فى ولاية عمرو بن العاص ستة أمداد.

واستقامت الأمور لعمرو فعمـد إلى إصلاح ما أفسدته الحروب وعبثت به أيدى الجور والعسف من العمـائر والترع والخلجان والجسور فمـهد الطرق وسهل المسالك وحفر الخلجان لرى الأراضى وأصلح مقيـاس النيل وأعاده إلى ما كان عليه من قبل وأقام العرفاء والمشايخ للقرى والبلاد من أبـناءها فاستقامت الأحوال وأطمأنت قلوب الرعية وخلدوا إلى السكون والطاعة ورتب المحـاكم للفصل فى الخصومات بين أهل البلاد فلم يكن لعـمرو ولا لغيره من أصـحاب الفتح دخل فى ذلك البتـة ولا كلمة مقولة وأوسع صدره للعظماء والكبراء من أهل البلاد فأحبوه ومالوا إليه وأخلصوا له

النية فعلت كلمته وعظمت شـهرته ودانت له عظائم الأمور وعمرت القرى وازدهت البلاد واتسـعت مادّة ثروتها وعادت إلى رونقـها القديم وضاقت بأهلـها أو كادت، حدثنا عثمـان بن صالح وعبد الله بن صالح قالا: حدثنـا الليث بن سعد، قال: لما ولى ابن رفاعة مصـر خرج ليحصى عدة أهلها وينظر فى تعديل الخـراج عليهم فقام فى ذلك ستـة أشهر بالصعـيد حتى بلغ أسوان ومـعه جماعة من الأعـوان والكتاب يكفونه ذلك بجدّ وتشمـير وثلاثة أشهر بأسفل الأرض فأحصـوا من القرى أكثر من عشرة آلاف قرية فلم يحص فيها فى أصغر قرية منها أقل من خمسمائة جمجمة من الرجال الذين يفرض عليهم الجزية. قـال: وحدثنا عبد الله بن صالح عن الليث بن سعد أن عمرا جـبى مصر اثنى عشر ألف ألف وجباهم المقوقس قـبله ستة وعشرين ألف ألف فعند ذلك كتب إليـه عمر بن الخطاب، بسـم الله الرحمـن الرحيـم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص، سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الـذى لا إله إلا هـو، أما بعـد فإنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليـه فإذا أرضك أرض واسعة عـريضة رفيعـة وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقـوّة فى بر وبحرت وأنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوّهم وكفرهم فعجبت من ذلك وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدّى نصف ما كانت تؤدّيه من الخراج قبل ذلك على غيـر قحـوط ولا جدب ولقد أكـثرت فى مكاتبـتك فى الذى على أرضك من الخراج وظننت أن ذلك سيأتينا على غير تراث ورجوت أن تفيق فترفع إلىّ ذلك فإذا أنت تأتينى بمعاريض تعبأ بهـا لا توافق الذى فى نفسى ولست قابلاً منك دون الذى كانت تؤخذ به من الخراج قبل ذلك ولسـت أدرى مع ذلك ما الذى نفرك من كتابى وقبضك فلئن كنت مجرباً كـافياً صحيحاً أن البراءة لنافعة وإن كنت مـضيعاً نطعا أن الأمر لعلى غير ما تحـدث به نفسك وقد تركت أن أبتلى ذلك منك فى العام الماضى رجاء أن تفـيق فترفع إلـىّ ذلك وقد علمت أنه لم يمنعك من ذلك إلا أن عـمالك عمال السوء وما توالس عليك وتلفف اتخذوك كـهفاً وعندى بإذن الله دواء فيه شفاء عما أسـألك فيه فلا تجزع أبـا عبد الله أن يؤخذ منك الحق وتعطاه فـإن النهر يخرج الدر والحق أبلج، ودعنى ومـا عنه تتلجلج فإنه قد برح الخـفاء والسـلام فكتب إليه عمرو بن العاص، بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من عمرو ابن العاص سلام عليك فإنى أحمـد إليك الله الذى لا إله إلا هو أما بعد فقد بلغنى كتـاب أمير المؤمنين فى الـذى استبطأنى فـيه من الخراج والذى ذكـر فيهـا من عمل الفراعنة قبلى وإعـجابه من خراجها على أيديهم ونقص ذلك منهـا مذ كان الإسلام

ولعمرى الخراج يومئذ أوفر وأكثر والأرض أعمر لأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الإسلام وذكرت أن النهر يخرج الدر فحلبتها حلباً قطع درها وأكثرت فى كتابك وأنبت وعرّضت وثربت وعلمت أن ذلك عن شيء تخفيه على غير خبر فجئت لعمرى بالمقطعات المقذعات. ولقد كان لك فيه من الصواب من القول رصين صارم بليغ صادق ولقد عملنا لرسول الله ﷺ ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا حافظين لما عظم الله من حق ائمتنا نرى غير ذلك قبيحاً والعمل به شينا فتعرف ذلك لنا ونصدق فيه قلبنا معاذ الله من تلك الطعم ومن شر الشيم والاجتراء على كل مأثم فامض عملك فإن الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها بعد كتابك الذى لم تستبق فيه عرضاً ولم تكرم فيه أخاً والله يا بن الخطاب لأنا حين يراد ذلك منى أشد غضباً لنفسى ولها إنزاها وإكراماً وما عملت من عمل أرى علىّ فيه تعللا ولكنى حفظت ما لم تحفظه ولو كنت من يهود يثرب مازدت يغفر الله لك ولنا وسكت عن أشياء كنت بها عالماً وكان اللسان بها منى ذلولاً ولكن الله عظم من حقك ما لا يجهل والسلام.

فكتب إليه عمر بن الخطاب من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد فإنى قد تعجبت من كثرة كتبى إليك فى إبطائك بالخراج وكتابك إلىّ بثنيات الطرق وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق البين ولم أقدمك إلى مصر أجلعها لك طعمة ولا لقومك ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج وحسن سياستك فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج فإنما هو فيء المسلمين وعندى من قد تعلم قوم محصورون والسلام.

فكتب إليه عمرو بن العاص، بسم الله الرحمن الرحيم، لعمر بن الخطاب من عمرو بن العاص سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يستبطئنى فى الخراج ويزعم إنى أحيد عن الحق وأنكب عن الطريق وإنى والله ما أرغب عن صالح ما تعلم ولكن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين فكان الرفق بهم خيراً من أن نخرق بهم فيصيروا إلى بيع ما لا غنى بهم عنه والسلام.

فلما استبطأ عمر بن الخطاب الخراج كتب إليه أن أبعث إلىّ رجلاً من أهل مصر فأرسل إليه رجلاً قديماً من القبط فاستخبره عمر عن مصر وخراجها قبل الإسلام. فقال ياأمير المؤمنين: كان لا يؤخذ منها شيئاً إلا بعد عمارتها وعاملك لا ينظر إلى العمارة وإنما يأخذ ما ظهر له كأنه لا يريدها إلا لعام واحد فعرف عمر مقاله وقبل

من عمرو بن العاص ما كان يعتذر به، وقال ابن عبد الحكم: حدثنا هشام بن إسحق العامرى. قال: كتب عمـر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص أن يسأل المقوقس عن مصر من أين تأتى عمارتها وخرابها فسـأله عمرو فقال له المقوقس تأتى عمارتها وخرابهـا من خمسة وجـوه أن يستخـرج الخراج فى إبان واحد عند فـراغ أهلها من زرعها ويدفع خراجها فى إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومها وتحفر فى كل سنة خلجهـا وتسد ترعها وجسـورها ولا يقبل مطل أهلها يريد البـغى فإذا فعل هذا فيها عمرت وإن عمل فـيها بخلافه خربت، قال ابن عبد الحكم: حـدثنا عثمان بن صالح، عن ابن لهـيعة، عن يزيد بن أبى حـبيب، قال: كانت فـريضة مصر لحـفر خلجها وإقامـة جسورها وبناء قناطرها وقطع جزائرها مائة ألف وعشـرين ألفا معهم الطوريات والمساحى والأداة يعتقبون ذلك لا يدعونه شتاءً ولا صيفاً. اهـ.

وكان فـى خلال المدة من مـجىء هرقل ملك الروم إلى مصـر واشتـداده على المتأصلين من أهل البلاد كما تقدم الكـلام على ذلك فى محله إلى فتوح مصر على يدى عمرو بن العاص قد مات أطناسيوس بطرك الإسكندرية بعد أن قام اثنتى عشرة سنة، وقد اخـتلف الكتاب فيـما إذا كان هو الذى هـاداه أطناسيوس بطرك أنطاكـية وقدم عليه زائراً أو هو داميانوس خامس ثلاثى بطاركة الإسكندرية، فلما مات أقاموا بعده أندرونيقون وهو سـابع ثلاثيهم فلبث ست سنين ومات فى ثامن طوبة، وفـى أيامه خـربت جميع الديارات واشـتد الأمر على النصـارى شدة عظيمـة للغاية وأبق الكثير مـن الرهبان والراهبات إلى بعض الجبـال فراراً، ثم أقاموا بعده بنـيامين وهو ثامن ثلاثيهم وكان متـأصلاً وهو من مريوط وكان ورعاً تقياً فـعمر فى أيامه دير أبو بشاى ودير سيدة أبو بشاى وهما فى وادى هبيب، فلما جاءت الفرس ديار مصر كما تقدم بيان ذلك فى محله واشـتدوا على النصارى فرّ هارباً منهم وبقى مختـفياً حتى زالت دولة الفـرس على يدى هـرقل، وذلك أن هرقل المذكـور لما نزل على مـصـر وحارب الـفرس وطردهـم من أرضـها أقـام بطركا من الملكيـين بالإسكندرية اسـمه نيرش، وكان منانيـا مع أن هرقل كان مارونيا وطلب بنيامـين البطرك المذكور وسعى خلفه ليـقتله فلم يتـمكن منه فظفر بأخـيه مـينا فقبض عـليه وأحرقـه بالنار تشفـياً وانتقـاماً، وبنيـامين هذا هو الذى راسل المقـوقس وعظماء القـبط فى أمر المسلـمين ومعاونتهم على قـتال الروم وإمدادهم بالذخيرة والميرة فلما استـتب الأمر لعمرو بن العاص أرسل إليه فى سنة عشـرين هجرية فقدم على عمرو بالقـاهرة فأكرمه وأجله وبالغ فى تعظيمه لأنه كـان عونه على الروم فجلس فى منصب البطريكية بعـد غيابه عنه ثلاثة عشرة سنة منهـا عشر سنين فى ملك فارس على مصر، وباقـيها بعد ذلك

وأخذ يتصرف فى الأمور فأحسن التدبير وكاد يعيد للقبط ما أزالته عنهم الحروب والخطوب المتراكمة من العز والسؤدد وظل مهيباً معظماً موقراً مسموع الكلمة حتى مات كما سيأتى ذكر ذلك فى محله.

وكانت خلافة عمر بن الخطاب عشر سنين وستة أشهر وخمس ليال وفى رواية وثلاثة عشر يوماً، فقام بالأمر بعد موته عثمان بن عفان.

(الفصل الثالث)
(فى خلافة عثمان بن عفان)

ثم قام بالأمر بعده عثمان بن عفان تشاور أهل الحل والعقد بعد دفن عمر بثلاثة أيام واتفقوا على مبايعته وهو ابن عم صاحب الشريعة الأعلى بويع له بالخلافة فى أول يوم من سنة أربع وعشرين للهجرة أى سنة أربع وأربعين وستمائة للميلاد، قال أصحاب التاريخ: أنه لم يزل اسمه فى الجاهلية والإسلام عثمان ويكنى بأبى عمرو وأبى عبد الله والأول أشهر وينسب إلى أمية بن عبد شمس، فيقال الأموى يجتمع مع صاحب الشريعة الإسلامية فى عبد مناف ويدعى بذى النورين، قيل لأنه تزوّج بابنتى صاحب الشريعة رقية وأم كلثوم وهو أول من هاجر إلى الحبشة فارّاً بدينه ومعه زوجته رقية وعدّ من البدريين ومن أهل بيعة الرضوان ولم يحضرهما وكان غنياً كثير المال، وكانت له شفقة ولما تولى زاد تواضعه وشفقته برعيته وكان يطعم الناس طعام الإمارة ويأكل الخل والزيت وجهز جيش العسرة بتسعمائة وخمسين بعيراً بأحلاسها وأقتابها وأتم الألف بخمسين فرسا، قال ابن قتيبة: وافتتح فى أيامه الإسكندرية (قلت لخروجها فى خلافته) وسابور وأفريقية وقبرص وسواحل الروم وإصطخر الأخرى وفارس الأولى وخورستان وفارس الأخرى وطبرستان وكرمان وسجستان والأساورة وأفريقية من حصون قبرص وساحل الأردن ومرو، ولما عمرت المدينة وصارت وافرة من الأنام وكثرت فيها الخيرات والأموال وجيء إليها بالخراج من الممالك وبطرت الرعية من كثرة الأموال والخير والنعم وفتحوا أقاليم الدنيا واطمأنوا وتفرغوا جعلوا ينقمون على خليفتهم عثمان لأنه كان له الأموال العظيمة وكان له ألف مملوك، ولأنه كان يعطى المال لأقاربه ويوليهم الإيالات الجليلة فأحس عثمان بذلك وسير فى طلب عماله كتب إلى أهل الأمصار إنى آخذ عمالى بموافاتى كل موسم، وقد رفع إلىّ أهل المدينة أن أقواماً يشتمون ويضربون فمن ادّعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم يأخذ حقه حيث كان منى أو من عمالى أو تصدقوا فإن الله

يجزى المتصـدقين، قيل فلما قرىء ذلـك بالأمصار بكى الناس ودعوا لعثمان وقدم عليه فى الموسم بعض عمله وهم عـبد الله بن عامر، وعبد الله بن سـعد، ومعاوية وأدخل معهم أيضاً سعيد بن العـاص وعمرا فقال: ويحكم ما هذه الشكاية والإذاعة إنى والله خائـف أن تكونوا مصدوقـاً عليكم وما يـصعب هذا إلا بى، فقـالوا: ألم تبعث ألم يرجع إليـك الخبر عن العوّام ألـم يرجع رسلك ولم يشافهـهم أحد بشىء والله ما صدقوا ولا بروا ولم نعلم لهذا الأمـر أصلاً ولا يحل الأخذ بهذه الإشاعة، فقال عند ذلك أشيروا علىّ: فقال سعيد: هذا أمر مصنوع يلقى فى السر فيتحدث به الناس ودواء ذلك طلب هؤلاء وقتل الذين خرج هذا من عندهم، وقال عبد الله بن سعد: خـذ من الناس الذى عليهم إذا أعطيتهم الذى لهم فإنه خـير من أن تدعهم، وقال مـعاوية: قـد وليتنى فوليت قـوماً فـلا يأتيكم عنهم إلا الخيـر والرجلان أعلم بناحيتهما والرأى حسن الأدب، وقـال عمرو: أرى أنك قد لنت لهم ورخيت عليهم وزدتهم على ما كان يصـنع عمر فأرى أن تلزم طريقة صـاحبيك فتشـتدّ فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين، قال عثمان: قد سمعت كل ما أشرتم به على ولكل أمر باب يؤتى منه أن هذا الأمر الذى يخـاف منه على هذه الأمة كائن وأن بابه الذى يغلق عليـه ليفتـحن فنكفكفه باللين والمواناة إلا فى حـدود الله فإن فـتح فلا يكون لأحد علىّ حجة وقد علـم الله أنى لم آل الناس خيراً وأن رحى الفتنة لدائرة فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها سكنوا الناس وهبـوا لهم حقوقهم فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تداهنوا فـيها، ثم افترقوا على ذلك واتفق المنحـرفون على عثمان على يوم يخرجون فيه بالأمصار جميعها إذا سارعتها الأمراء وخلت منهم فلم يتهيأ لهم ذلك، وكان بمصر مـحمد بن أبى بكر ومحمد بن أبـى حذيفة يحرضان على عثـمان فلما خرج المصريون خرج فـيهم عبد الرحمن بن عديس البلوى فى خمـسمائة وقيل فى ألف وفيـهم كنانة بن مبـشر الليـثى وسودان بن حـمران السكونى وقنبـرة بن فلان السكونى وتقدمهم جميعاً الغـافقى بن حرب العكى، وخرج أيضاً أهل الكوفة وهم فى عـداد أهل مصـر أو ما يقـرب منه وخرج أهل البـصرة وهم بعـداد أهل مصـر وأميرهم حرقوص بن زهير السعدى وكان خـروجهم جميعاً فى شوّال وأظهروا أنهم إنما يريدون الحج فلمـا كانوا بالمدينة على ثلاث مـراحل تقدم ناس من أهل البـصرة فنزلوا ذا خشب وكانوا يميلون إلى طلحـة وتقدم ناس من أهل الكوفة وكان هواهم مع الزبير ونزلوا الأعوص وجاءهم ناس من أهل مصر وكانوا يميلون إلى علىّ ونزل جميعهم بذى المروة ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر وعبد الله ابن الأصم. وقالا لـهم: لا تعجلوا حـتى ندخل المدينة ونرتاد لكم فقـد بلغنا أنهم

عسكروا لنا فوالله إن كـان هذا حقاً واستـحلوا قتالنا بعد علم حالـنا إن أمرنا لباطل وإن كـان الذى بلغنا باطلاً رجعـنا إليكم بالخبـر فذهـبا ودخـلا المدينة فلقيـا ازواج صاحب الشريعة وطلحة والزبير فكلمهما أبىّ ونهـاهما فرجعا إلى أصحابهما وكتب عثمان إلى أهل الأمـصا يستنجدهم ويأمرهم بالبحث للمنع عـنه ويتعرف ما الناس فيه من الهرج والتـشـب على خلع بيعته وإقامة خليفة غيره، قال بعض أهل التاريخ: فخرج أهـل الأمصار على الصعب والذلول وسـير كل عامل جمـاعة من عنده إلى المدينة فلما كانت الجمعة التى على أثر دخولهم المدينة خرج عثمان فصلى بالناس ثم قام على المنبـر فقال: ياهؤلاء الله الله فوالله أن أهل المدينة ليعـلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ فامحوا الخطأ بالصواب، فقام عند ذلك محمد بن مسلمة فقال أنا أشهد بذلك فأقعده حكيم بن جبـلة فقام زيد بن ثابت فأقعده محمد بن أبى كثيـرة وثار القوم بأجمعـهم وقامت الضوضاء واشتـد اللجاج فحصـبوا الناس حتى أخرجوهم من المسجد عنوة وحصبوا عثمـان حتى صرع من المنبر مغشيًا عليه فأدخل داره، واستقتل جماعة من أهل المدينة مع عـثمان منهم سعد بن أبى وقاص والحسين ابن على وزيد بن ثابت وأبو هريرة فـأرسل إليهم عـثمان فى الانصـراف فانصـرفوا وأقبل علىّ وطلحة والزبير فـذهبوا إلى عثمان يعودونه من صرعـته ويشكون إليه ما يجدون وكان عند عـثمان نفر من بنى أميـة فيهم مروان بن الحكم فـقاموا كلهم فى وجه علىّ وقـالوا: أهلكتنا وصنعت هذا الصنيع والله لئن بلغت الذى تـريد لنمررن عليك الدنيا فقام مغضـبا وعاد وهو ومن كان معه إلى منازلهم، قال أهل الـتاريخ: وصلى عثمان بالناس بعد ذلك ثلاثين يومـاً ثم منعوه الصلاة وصلى بالناس أميرهم الغافـقى واشتد بعض الناس لعثـمان وكثـرت أعداؤه وطالبوه ونزلوا ذا خشب كـما تقدم القول يريـدون قتله إن لم يقلع عما يكرهون منه فـاشتد قلق عثـمان وجاء إلى علىّ بن أبى طالب فدخل عليه بيته فقال له ياابن عم إن قرابتى قريبة ولى عليك حق عظيم وقد جـاء ما ترى من هؤلاء القوم وهـم مصبحىّ ولـك عند الناس قدر وهم يسمـعون منك وأحب أن تركب إليـهم فتـردهم عنى فإن فى دخـولهم علىّ توّهينا لأمرى وجـراءة علىّ فقـال علىّ: على أى شىء أردهم عنك، قال: على أن أصـير إلى ما أشرت إليه ورأيته لى، فقـال علىّ: إنى قد كلمتك مرة بعد أخرى فكل ذلك نخرج فنقـول ثم ترجع عنه وهذا من فعل مروان وابن عـامر ومعاوية وعـبد الله بن سعد فإنك أطعتهم وعصيتنى، قال عـثمان فأنا أعصيهم وأطيعك فى أمر الناس قيل فركب علىّ ومعـه من المهاجريـن والأنصـار ثلاثون رجلاً فأتـوا المصريين فكلموهم وكان الـذى يخاطبهـم علىّ ومحمد ابن مسلمة فسمعوا مقالتهما ورجعـوا إلى مصـر

ورجع عليّ إلى المدينة وأخبر عـثمان برجوعهم وكلمه بما فى نفسـه فلما كان اليوم الثانى دخل مروان على عثمان فـقال له تكلم وأعلم الناس أن أهل مصر قد رجـعوا وأنهـم تحققـوا بطـلان ما بلغهـم عـن إمامهـم (يعنى عـثمان) فأطاعه عـثمان فى ذلك فلما خطب الناس قـال له عمرو بن العاص اتق الله ياعـثمان فإنك قـد ركبت أموراً وركـبناها معك فتب إلى الله تب فناداه عـثمان وإنك هناك يـاابن النابغة قلت والله جبتك منذ عزلتك عن العمل فصاح صائح من جهة أخرى تب ياعثمان إلى الله فرفع يديه، وقال: اللهم إنـى أول تائب فخرج عمرو بن العـاص إلى الشام وجعل يحرض الناس على خلع بـيعة عثـمان، قـال عمـرو: والله إنى كنت لألقى الراعى فأحرضه على عثمان، ولم يكن بأسرع من أن عاد المصريون إلى المدينة فانطلق إليهم محمد بـن مسلمة يسألهم عن سبب عودهم فـأخرجوا صحيفـة فى أنبوبة رصاص، وقالوا: وجدنا غلام عثمان بالبويب على بعير من إبل الصـدقة ففتشنا متاعه فوجدنا فيه هذه الصحيـفة يأمر فيها بجلد عبد الرحمن بن عـديس وعمرو بن الحمق وعروة بن المبياع وحبسـهم وحلق رؤسهم ولحاهم وصلب بعضهم، وفى رواية أخـرى أن الذى كان يحمل الصـحيفة الأعور السلـمى، فلما رأوه سألوه عن مسيـره وهل معه كتاب، فقال: لا تسألونى فى أى شىء هو ففـتشوه وأخذوا الكتاب منه وعادوا وعاد الكوفيون والمصريون فلما عاد أهل مصر أخبروا بذلك محمد بن مسلمة فدخل عليّ ومحمد بن مـسلمة على عثمان وأخبراه بمـا قاله أهل مصر فأقسم بالله ما كـتبته ولا علم لى به، فقـال محـمد: صدق هذا من عـمل مروان ودخل عليـه المصريون فلم يسلموا عليه بالخلافة فـعرفوا الشر فيهم وتكلموا فذكر ابن عـديس ما فعـل عبد الله ابن سعد بالمسلمين فى مـصر وبأهل البلاد فيها أيضاً والاستئـثار فى الغنائم فإذا قيل له فى ذلك قال هذا كتاب أمير المؤمنين وذكروا شيئاً مما وقع بالمدينة أيضاً، ثم قال له وخرجنا من مصر ونحن نريد قتلك فردنا عليّ ومـحمد بن مسلمة وضمنا لنا النزوع عن كل ما تكلمنا فـيه فرجعنا إلى بلادنا فـرأينا غلامك وكتابك وعليـه خاتمك تأمر عبد الله بجلدنا والمثلة بنا وطول الحبس فعند ذلك حلف عـثمان أنه ما كتب ولا أمر ولا علـم، قال أصحاب التاريخ: فقال على ومحـمد: صدق عثمان فقال المصريون فمن كـتبه، قال: لا أدرى قـالوا فيجتـرأ عليك ويبعث غلامك وجمل من الـصدقة (يعنى من جمال عثمان المعدة للصدقة) وينقش على خاتمك ويبعث إلى عاملك بهذه الأمور العظيمـة وأنت لا تعلم، قال: نعم. فقال: ما أنت إلا صـادق أو كاذب فإن كنت كاذباً فقـد استحققـت الخلع لما أمرت به من قتلنا بغيـر حق، وإن كنت صادقاً

فقد استحققت أن تخلع نفسك لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك وخبث بطانتك ولا ينبغي لنا أن نترك هذا الأمر بيد من تقطع الأمور دونه لضعفه وغفلته فاخلع نفسك منه كما خلعك الله، فقال عثمان: لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله ولكنى أتوب وأنزع قالوا: لو كان هذا أول ذنب تبت منه قبلنا ولكنا رأيناك تتوب ثم تعود ولسنا منصرفين حتى نخلعك أو نقتلك أو تلحق أرواحنا بالله تعالى، وإن منعك أصحابك وأهلك قاتلناهم حتى نخلص إليك. فقال: أما أن أتبرأ من خلافة الله فالقتل أحب إلىّ من ذلك وأما قولكم تقاتلون من منعنى فإنى لا آمر أحدا يقاتلكم فمن قاتلكم فبغير أمرى قاتل ولو أردت قتالكم لكتبت إلى الأجناد فقدموا علىّ أو لحقت ببعض أطرافى، وكثرت الأصوات واللغط وعلت الضوضاء فقام علىّ فخرج وأخرج المصريين ومضى علىّ إلى منزله فحاصر المصريون عثمان واشتدّ الحصار عليه قيل فأرسل إلى علىّ وطلحة والزبير فحضروا فأشرف عليهم عثمان، وقال: أيها الناس أجلسوا فجلسوا المحارب والمسالم فقال لهم ياأهل المدينة أستودعكم الله وأسأله أن يحسن عليكم الخلافة من بعدى، ثم قال: أنشدكم بالله هل تعلمون أنكم دعوتم الله عند مصاب عمر أن يختار لكم ويجمعكم على خيركم أتقولون أن الله لم يستجب لكم وهنتم عليه وأنتم أهل حقه أم تقولون هان على الله دينه فلم يبال من ولى والدين لم يتفرّق أهله يومئذ أم تقولون لم يكن أخذ عن مشورة إنما كان مكابرة فوكل الله الأمة إذ عصته ولم يشاوروا فى الإمامة أم تقولون إن الله لم يعلم عاقبة أمرى، وأنشدكم بالله أتعلمون لى من سابقة خير وقدم خير قدّمه الله لى، يحق على كل من جاء بعدى أن يعرفوا لى فضلها فمهلاً لا تقتلونى فإنه لا يحل إلا قتل ثلاثة: رجل زنى بعد إحصانه أو كفر بعد إيمانه أو قتل نفساً بغير حق فإنكم إذا قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم ثم لم يرفع الله عنكم الاختلاف أبداً فقالوا: أما ما ذكرت من استخارة الناس بعد عمر ثم ولوك فإن كل ما صنع الله خيرة ولكن الله جعلك بلية ابتلى بها عباده وأما ما ذكرت من قدمك وسلفك مع رسول الله ﷺ فقد كنت كذلك وكنت أهلاً للولاية ولكن أحدثت ما علمته ولا نترك إقامة الحق عليك مخافة الفتنة عاما قابلا. وأما قولك أنه لا يحل إلا قتل ثلاثة فإنا نجد فى كتاب الله قتل غير الثلاثة الذين سميت، قتل من سعى فى الأرض فساداً وقتل من بغى ثم قاتل على بغيه وقتل من حال دون شىء من الحق ومنعه وقاتل دونه وقد بغيت ومنعت وحلت دونه وكابرت عليه ولم تقد من نفسك من ظلمت وقد تمسكت بالإمارة علينا، فإن زعمت أنك لم تكابرنا عليها فإن الذين قاموا دونك ومنعوك منا

إنما يقاتلون لتمسكك بالإمارة فلو خلعت نفسك لانصرفوا عن القتال معك، قيل فسكت عثمان ولزم الدار وأمر أهل المدينة بالرجوع وأقسم عليهم فرجعوا إلا الحسن ابن عليّ وابن عباس ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وأشباههم واجتمع إليه ناس كثير فكانت مدة الحصار أربعين يوماً وقد اشتدوا فى الحصار بعد ثمان عشرة ليلة مضت شدة بالغة ومنعوا كل شيء حتى الماء، قيل أن طلحة هو الذى أمر بذلك وثاروا إلى باب دار عثمان يريدون الدخول عليه وقتله فلم يمنعهم أحد منه والباب مغلق لا يقدرون على الدخول منه فجاءوا بنار فأحرقوه والسقيفة التى على الباب وثار أهل الدار وعثمان يصلى فلما فرغ جلس إلى المصحف يقرأ فيه وقرأ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً. وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل فقال لمن عنده بالدار إن رسول الله ﷺ قد عهد إلىّ عهداً فأنا صابر عليه ولم يحرقوا الباب إلا وهم يطلبون ما هو أعظم منه فاقتحم الناس الدار من الدور التى حولها ودخلوا من دار عمرو بن حزم إلى دار عثمان حتى ملؤها ولم يشعر من بالباب وغلب الناس على عثمان وندبوا رجلاً يقتله فانتدب له رجل يدخل عليه فدخل عليه البيت فما سمع كلامه حتى عاد مدحوراً وولى عن أصحابه ثم دخل آخر وآخر وكان آخر من دخل عليه ممن رجع محمد بن أبى بكر فقال له عثمان: ويلك أعلىّ لله تغضب هل علىّ لك جرم أو حق أخذته منك فأخذ محمد بلحيته أى لحية عثمان، وقال: قد أخزاك الله ياعتل، فقال: لست بعتل ولكنى عثمان وأمير المؤمنين . فقال محمد: ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان فقال عثمان: يابن أخى فما كان أبوك ليقبض عليها يعنى على لحيته فقال محمد: لو رآك أبى تعمل هذه الأعمال أنكرها عليك والذى أريد بك أشد من قبضى عليها فقال عثمان أستنصر الله عليك وأستعين به فتركه وخرج وقيل بل طعن جبينه بمشقص كان فى يده فلما خرج محمد وعرفوا إنكساره ثار قتيرة وسودان بن حمران والغافقى فضربه الغافقى بحديدة معه وضرب المصحف برجله فاستدار المصحف واستقرّ بين يدى عثمان وسالت عليه الدماء وجاء سودان ليضربه فانكبت عليه امرأته واتقت السيف بيدها فقطع أصابعها فولت وضرب عثمان فقتله، وقيل: إن الذى قتله كنانة ابن بشر النجيبى ودخل غلمة لعثمان لينصروه على القوم فانقضوا على سودان فضربوا عنقه ووثب قتيرة على الغلام الذى قتل سودان فقتله وانتهبوا ما فى البيت وخرجوا ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى فلما خرجوا وثب غلام لعثمان على قتيرة فقتله

وثار القوم فأخذوا ما وجدوا حتى أخذوا مـا على النساء وأخذ كلثوم النجيبى ملاءة على نائلة فضـربه غلام لعثـمان فقـتله وأتوا بيت المال فانتهـبوه وماج الناس وكـثر الضجيج والصيـاح، قيل ووثب عمرو بن الحمق على صدر عـثمان وبه رمق فطعنه تسع طعنات قال: فأمـا ثلاث منها فإنى طعنتهنّ إياه لله تعالى وأما السـتة فلما كان فى صدرى عـليه، وأرادوا قطع رأسه فوقعت نائلة زوجتـه عليه وأم البنين فصحن وضربن الوجوه. فقال ابن عديس: اتركوه وأقبل عمير بن ضابىء فوثب عليه فكسر ضلعا من أضلاعه. وقال سجنت أبى حتى مات فى السجن، أخرج ابن عساكر عن أبى خلدة قال: سمـعت علياً ﷺ يقول إن بنى أميـة يزعمون أنى قتلت عـثمان لا والله الذى لا إله إلا هو ما قتلت ولا مالأت وقد نهيت فعصونى، وعن سمرة قال: إن الإسلام كان فى حـصن حصين وأنهم ثلموا فـى الإسلام ثلمة بقتلهم عـثمان لا تسدّ إلى يوم القـيامة وأن أهل المدينة كـانت تتم الخلافة فـيهم فأخرجـوها ولم تعد إليهم .اهـ. وقال المدائنى: قتل ﷺ، يعنى عثمان، يوم الأربعاء بعد العصر ودفن يوم السبت قبل الظهر وقيل يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثـين، وقال المهدوى: قتل فى وسط أيام التـشريق وأقام ثلاثة أيام لم يدفن ولم يصل عليه ﷺ وقيل صلى عليه جبير بن مطعم ودفن ليلاً واختلف فى مدة الحصار فقيل أكثر من عشرين يومـاً وقيل تسعة وأربعون يوماً، وكانت خلافتـه اثنتى عشرة سنة إلا اثنتى عشر يوماً وقُـتل وهو ابن ثمانين سنة قاله ابن إسحق، وقال عمـيرة كانت خلافته إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهراً وأربعة عشر يوماً وقتل وعمره ثمان وثمانون سنة، وقيل كانت خلافته اثنتى عشرة سنة وقُتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة وقيل ابن ثلاث وثمانين سنة وقيل تسعين وقيل غير دلك.

وفى أيامه انتقض عهد الإسكندرية، قال ابن عبد الحكم: حدثنا ابن صالح عن الليث بن سعد، قال: عـاش عمر بن الخطاب بعد فتح مصر ثلاث سنين قـدم فيها عليه عـمرو قـدمتين استـخلف فى إحـداهما زكـرياء بن جهم العبـدى على الجند ومجاهد بن جـبير مولى بنى نوفل على الخراج فـسأله عمر عمن استـخلف فذكرله مجاهد بن عبيـد فقال عمر مولى بنى غزوان. قال: نعم إنه كـاتب، فقال عمر: إن العلم ليرفع صاحبه واستخلف فى القدمة الثانية عبد الله بن عمر. قال: حدثنا ثوبان ابن أبى رقيـة عن حيـوة بن شريح عن الحسن بن ثوبان عـن أبى رقية، قـال: كان سبب نقض الإسكـندرية العهد أن صـاحب أخنا قدم على عـمرو بن العاص فـقال

أخبرنا مـا على أحدنا من الجزية فقـال عمرو لو أعطيتنى من الركن إلـى السقف ما أخبـرتك إنما أنتم خزانة لنا إن كـثر علينا كثـرنا عليكم وإن خفف عنا خـففنا عنكم فغضب صاحب أخنا فـخرج إلى الروم فقدم بهم فهزمهـم الله وأسر القبطى فأتى به إلى عمرو فقال له الناس اقتله. قال: لا بل انطلق فجئنا بجيش آخر . اهـ.

وقال عـبد الله بـن صالح كـانت الإسكندرية انتقـضت وجاءت الروم وعليـهم منويل الخصى فى المراكب حـتى أرسى بالإسكندرية فأجـابهم من بها من الروم ولم يكن المقوقس تحرك ولا نكث وكان عثمان بن عـفان رضي الله عنه قد عزل عمرو بن العاص وولى عبد الله بن سعد فلما نزلت الروم بالإسكندرية سـأل أهل مصر عثمان أن يقر عمرا حـتى يفرغ من قتال الروم فإن له معـرفة بالحرب وهيبة فى قلب العـدوّ ففعل وكان على الإسكندرية سورها فحلف عمرو بن العاص لئن أظفره الله عليهم ليهدمن سورها حتى يكون مثل بيت الزانية يؤتى من كل مكان فـخرج عمرو فى البر والبحر وضمـوا إلى المقوقس من أطاعـه من القبط فـأما الروم فلم يطعـه منهم أحد فـقال خارجة بن خزاعـة لعمرو ناهضهم القتال قبل أن يكـثر عددهم ولا آمن أن تنتقض مصر كلها فقـال عمرو لا ولكن أدعهم حتى يسيروا إلىّ فإنهـم يصيبون من مروا به فيـخزى الله بعـضهم بيـعض فخرجـوا من الإسكندرية ومعـهم من نقض من أهل القرى فجعلوا ينزلون القرى فيشربون خمـورها ويأكلون أطعمتها وينهبون ما مروا به فلم يتعـرض لهم عمرو حتى بلغـوا نيقوس فلاقـوهم فى البر والبحر فـبدأت الروم فرموا بالنشاب فى الماء رمياً حتى أصاب النشـاب يومئذ فرس عمرو فى لبته وهو فى البر فـعقر فنزل عنه عـمرو، ثم خرجوا مـن البحر فاجـتمعـوا هم والذين فى البر فنضحـوا المسلمين بالنشاب فـاستأخر المسلمـون عنهم فحملوا على المسلمـين حملة شديدة فولى المسلمون منها وانهزم شريك بن سمى فى خيله وكانت الروم قد جعلت صفوفـاً خلف صفوف ثم شد المسلـمون عليهم فكانت هزيمتـهم فطردهم المسلمون حـتى ألحقـوهم بالإسكندرية فـفـتح الله عليـهم وقتل منويـل الخصى وهدم سـور الإسكندرية كله، فلما هزمت الروم أراد عثمان عمرا أن يكون على الحرب وعبد الله ابن سعد على الخراج فقـال عمرو أنا إذن كماسك البقرة بقرنيهـا وآخر يحلبها فأبى عمرو، ولما قتل عثمان بن عفان تولى الخلافة بعده على بن أبى طالب وكان من أمر ولاية مصر ما سيذكر فى محله.

(الفصل الرابع)
(فى خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب)

ثم قام بالأمر بـعد قتل عثمــان بن عفان أميـر المؤمنين على بن أبى طالب وقد اختلف أهل التاريـخ فى كيفية بيـعته فذهب بعضـهم إلى أنه لما قتل عثمــان اجتمع أصحاب صــاحب الشريعة من المهاجرين والأنصــار وفيهم طلحة والزبيـر فأتوا علياً وضربوا عليه الباب ودخلوا وقالوا: إن هذا الرجل قد قتل ولابد للناس من إمام ولا نعلم أحداً أحق بـها منك. قال: لا حـاجة لى فى أمركم فـمن اختـرتم رضيت به فقالوا ما نختار غيرك فردهم عن ذلك فـأبوا، فقال: إن أبيتم إلا بيعتى فإن بيعتى لا تكون سراً ولا تكون إلا فى المسـجد وكان فى بيـته وقيل فى حائط لبنى عـمرو بن مبذول.

ولما أصبحوا يوم البـيعة وهو يوم الجمعة حضر الناس المسـجد وجاء علىّ وعليه أزار وطاق وعمامة خـز ونعلاه فى يده متوكئا على قوس فصـعد المنبر وقال: أيهـــا الناس عن مـلا وأذن أن هذا أمركم ليس لأحد فـيه حق إلا من أمـرّتم وقد افـترقنا بالأمس على أمر وكنت كـارها لأمركم فأبيـتم إلا أن أكون عليكم ألا وأنه ليس لى دونكم إلا مفاتيح مالكم معى وليس لى أن آخذ درهما دونكم فإن شئتم قعدت لكم وإلا فلا آخذ على أحد، فقالوا: نحن على ما فارقناك عليه بالأمس، فقال: اللهم أشهد ولما جـاءوا بطلحة ليبايع فقــال إنما أبايع كرهاً فبايع وكــان به شلل فقال رجل يعتاف وقيل حبيـب بن ذؤيب إنا لله وإنا إليه راجعون أوّل يد بايعت يد شلاء لا يتم هذا الأمر ثم جىء بالزبير فقال مثل ذلك وبايع وفى الزبير اختلاف وقيل أن علياً قال لطلحة والزبير إن أحببتما أن تبايعانى، وإن أحببتما بايعتكما فقالا بل نبايعك، قال بعض أهل التاريخ: وقد قالا بعد ذلك إنما فعلنـا ذلك خشية على نفوسنا وعرفنا أنه لا يبايعنا ثم هربا إلى مكة بعد قتل عثمان بأربعة أشهر ولم يبايعه كثير من أهل مكة والمدينة وكان ممن لم يبايعه النعـمان بن بشير وكان قد أخذ أصابع نائـلة امرأة عثمان التى قطعت فى دفاعها عن عـثمان يوم قتله وقميص عثمـان الذى قتل فيه وهرب به فلحق بمعاوية فى الشام فكان من وراء ذلك ما سـيذكر فى محله، وقيل أن صهـيباً وسلمة بن سلامة بن وقش وأسامـة بن زيد لم يبايعوا علياً ولم يمدوا له يداً، ثـم جىء بعده بقوم كانوا قد تخلفوا فقالوا نبايع على إقامة كتاب الله فى القريب والبعيد والعزيز والذليل فبايعهم ثم قام العامة فبايعوا وصار الأمر أمر أهل المدينة وكأنهم كما

كانوا فيه وتفرقوا إلى منازلهم وبويع يوم الجمعة لخمس بقين من ذى الحجة والناس يحسبون بيعته من قبل عثمان وأوّل خطبة خطبها حين استخلف حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله أنزل كتاباً هادياً يبين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر، الفرائض الفرائض أدّوها إلى الله تعالى يؤدكم إلى الجنة أن الله حرم حرمات غير مجهولة وفضل حرمة المسلم على الحرم كلها وشدّ بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق لا يحل دم أمرىء مسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم الموت فإن الناس أمامكم وأن ما خلفكم الساعة تحدوكم فخففوا تلحقوا فإنما ينتظر بالناس أخراهم، اتقوا الله عباد الله فى بلاده وعباده إنكم مسؤلون حتى عن البقاع والبهائم، أطيعوا الله فلا تعصوه وإذا رأيتم الخير فخذوا به وإذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ولما فرغ من الخطبة وهو على المنبر قالت السبئية:

خذها إليك واحذرن أبا حسن ... أنا غرّ الأمر أمرار الرسن
صولة أقوام كأشداد السفن ... بمشرفيات كغدران اللبن
ونطعن الملك بلين كالشطن ... حتى يمرّون على غير عنن

فقال على:

إني عجزت عجزة لا أعتذر ... سوف أكيس بعدها وأستمر
أرفع من ذيلي ما كنت أجر ... وأجمع الأمر الشتيت المنتشر
إن لم يشاغبني العجول المنتصر ... إن تتركوني والسلاح يبتدر

ثم نزل ورجع إلى بيته وجعل يفرق عماله على الأمصار فبعث عثمان بن حنيف على البصرة وعمارة بن شهاب على الكوفة وعبيد الله بن عباس على اليمن وقيس بن سعد على مصر وسهل بن حنيف على الشام فلم يفلحوا وظهر معاوية ومن معه ليفسد الأمر على علىّ وأرسل رجلاً من بنى عبس يدعى قبيصة إلى علىّ ومعه طومار مختوم عنوانه من معاوية إلى علىّ، وقال له: إذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار ثم أوصاه بما يقول فقدم الرجل إلى المدينة فى ربيع الأول فدخلها وقد رفع الطومار فتبعه الناس ينظرون إليه وعلموا أن معاوية معترض، قال ابن عباس أتيت علياً بعد قتل عثمان عند عودى من مكة فوجدت المغيرة بن شعبة مستخلياً به فخرج من عنده فقلت له ما قال لك هذا: فقال: قال لى بعد مرته هذه أن لك حق الطاعة والنصيحة وأنت بقية الناس وأن الرأى اليوم تحرز به ما فى غد

وأن الضياع اليوم يضيع به ما في غد أقرر معاوية وابن عامر وعمال عثمان على أعمالهم حتى تأتيك بيعتهم ويسكن الناس ثم أعزل من شئت فأبيت عليه ذلك وقلت: لا أداهن في ديني ولا أعطى الدنية في أمري قال: فإن كنت أبيت عليّ فانزع من شئت واترك معاوية فإن في معاوية جراءة وهو في أهل الشام يستمع منه ولك حجة في إثباته كان عمر بن الخطاب قد ولاه الشام، فقلت: لا والله لا أستعمل معاوية يومين ثم انصرف من عندي وأنا أعرف فيه أنه يودّ أني مخطىء ثم عاد إليّ الآن فقال إني أشرت عليك أوّل مرة بالذي أشرت وخالفتني فيه ثم رأيت بعد ذلك أن تصنع الذي رأيت فتعزلهم وتستعين بمن تثق به فقد كفى الله وهم أهون شوكة مما كان، قال ابن عباس: فقلت لعلي أما المرة الأولى فقد نصحك وأما المرة الثانية فقد غشك، قال: ولم نصحني قلت لأن معاوية وأصحابه أهل دنيا فمتى ثبتهم لا يبالون من ولي هذا الأمر ومتى تعزلهم يقولون أخذ هذا الأمر بغير شورى وهو قتل صاحبنا ويؤلبون عليك فتنتقض عليك الشام وأهل العراق مع إني لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك وأنا أشير عليك أن تثبت معاوية فإن بايع لك فعليّ أن أقلعه من منزله فقال علي والله لا أعطيه إلا السيف ثم تمثل:

وما ميتة إن متها غير عاجز   بعار إذا ما غالت النفس غولها

فقلت ياأمير المؤمنين أنت رجل شجاع لست صاحب رأي في الحرب أما سمعت رسول الله ﷺ يقول الحرب خدعة، فقال: بلى فقلت أما والله لئن أطعتني لأصدرنهم بعد ورد ولا تركنهم ينظرون في دبر الأمور ولا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك ولا إثم لك، فقال: ياابن عباس لست من هناتك ولا من هنات معاوية في شيء، قال ابن عباس: فقلت له أطعني وألحق بمالك ينبع وأغلق بابك عليك فإن العرب تجول جولة وتضطرب ولا تجد غيرك فإنك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غدا فأبى عليّ، فقال: تشير عليّ وأرى فإذا عصيتك فأطعني. قال: فقلت أفعل أن أيسر مالك عندي الطاعة فقال له عليّ: تسير إلى الشام فقد وليتكها فقال ابن عباس ما هذا برأي معاوية رجل من بني أمية وهو ابن عم عثمان وعامله ولست آمن أن يضرب عنقي بعثمان وأن أدنى ما هو صانع أن يحبسني فيتحكم عليّ لقرابتي منك وإن كل ما حمل عليك حمل عليّ ولكن أكتب إلى معاوية فمنه وعده فقال: لا والله لا كان هذا أبداً، وكان المغيرة يقول نصحته فلم يقبل فغششته وخرج فلحق بمكة وجعل عليّ يتجهز لأهل الشام ويكثر من جمع الرجال إذ جاءه الخبر عن طلحة والزبير وعائشة وأهل مكة بنحو

آخـر وأنهم على الخلاف فـأعلم عليّ الناس ذلك وأن عـائشة وطلحـة والزبير قـد سـخطوا إمارته ودعـوا الناس إلى الإصـلاح، وكان سـبب اجتـماع طلحـة والزبير وعائشة بمكة أن عـائشة كانت خرجت إليهـا وعثمان محـصور ثم خرجت من مكة تريد المدينة فلما كانت بسرف لقيها رجـل من أخوالها من بني ليث يقال له عبيد بن أبي سلمى وهو ابن أم كلاب فقالت له عائشة مهيم، قال: قتل عثمان وبقوا ثمانياً، قالت: ثم صنعوا ماذا، قال: اجتمعوا على بيعة عليّ فقالت ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لصـاحبك ردوني ردوني فـانصرفت إلى مكة وهي تقـول قتل والله عثمان مـظلوماً والله لأطلبن بدمه فقال لها: ولم والله ان أول من أمـال جرفه لأنت ولقد كنت تقولين اقـتلوا نعثلاً فقد كـفر، قالت: إنهم استتـابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولي الأخير خير من قولي الأول فقال لها ابن أم كلاب:

فـمنـك البـداء ومنك الـغـيـر ... ومـنـك الـريـاح ومـنـك المطـر
وأنت أمـــرت بقـــتل الإمـــام ... وقلـت لنـا أنه قـــد كـــفـــر
فـــهـــبنا أطعـناك فـي قـــتله ... وقـــاتلـه عنـدنـا من أمـــــر
ولم يسـقط السـقف من فـوقنا ... ولم ينكـسف شـمـسنا والقـمـر
وقـــد بـايـع النـاس ذا تـدرا ... يزيل الـشـبـا ويقـيم الصـغـر
ويلـبس لـلحــرب أثوابـهـــا ... ومـا من وفـى مـثل من قـد غـدر

فانصرفت إلى مكة فقصـدت الحجر فسترت فيه فاجتـمع الناس حولها فقالت: أيها الناس إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعـبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلما بالأمس ونقموا عليه استـعمال من حدثت سنه وقد استعمل أمثالهم قبله ومواضع من الحمى حمـاها لهم فتابعهم ونزع لهم عنها فلما لم يجدوا حجة ولا عـذرا بادروا بالعدوان فسفكوا الدم الحـرام واستحلوا البلد الحـرام والشهر الحرام وأخذوا المال الحـرام والله لا صبع من عثمـان خير من طباق الأرض أمـثالهم ووالله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً لخلص مـنه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه إذ ماصوه، فقال عبد الله بن عامر الحضرمي: وكان عامل عثمان على مكة ها أنا أوّل طالب فكان أول مجيب وتبعـه بنو أمية على ذلك وكانوا هربوا من المدينة بعد قـتل عثمـان إلى مكة ورفعوا رءوسـهم وكان أول ما تكلم بالحـجاز وتبعهم سعيد بن العاص والوليد بن عقـبة وسائر بني أمية، وقدم عليهم عبد الله بن عامر من البصرة بمال كثير ويعلى بن أمية وهو ابـن منية من اليمن ومعه ستمائة بعير

وستمائة ألف درهم فأناخ بالأبطح وقدم طلحة والزبير من المدينة فلقيا عائشة واتفقوا على الشخوص إلى البصرة فجهزهم يعلى بن منية بستمائة بعير وستمائة ألف درهم وجهزهم ابن عامر بمال كثير ونادى مناديها إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة فمن أراد إعزاز الإسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان وليس له مركب وجهاز فليأت فحملوا ستمائة على ستمائة بعير وساروا فى ألف وقيل فى تسعمائة من أهل المدينة ومكة ولحقهم الناس فكانوا فى ثلاثة آلاف رجل فبعثت أم الفضل بنت الحرث أم عبد الله بن عباس رجلاً من جهينة يدعى ظفرا فأستأجرته على أن يأتى عليا بالخبر فقدام على علىّ بكتابها فلما جاءه الخبر سار فى تعبيته التى تعباها لأهل الشام آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وخرج معه من نشط من الكوفيين والبصريين متخففين فى تسعمائة وهو يرجو أن يدرك أصحاب عائشة فيحول بينهم وبين الخروج أو يأخذهم وساروا حتى انتهوا إلى الربذة فلما انتهوا إليها أتاهم خبر سبق عائشة ومن معها فأقام بها يأتمر ما يفعله وأتاه أبنه الحسن فى الطريق فقال له: لقد أمرتك فعصيتنى فتقتل غدا بمعصية لا ناصر لك فقال له علىّ إنك لا تزال تخن خنين الجارية وما الذى أمرتنى فعصيتك، قال: أمرتك يوم أحيط بعثمان أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ثم أمرتك يوم قتل أن لا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر فإنهم لن يقطعوا أمراً دونك فأبيت على وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحوا فإن كان الفساد كان على يد غيرك فعصيتنى فى ذلك كله، فقال أى بنى قد بايعونى طائعين غير مكرهين فأنا مقاتل من خالفنى بمن أطاعنى حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين فكف عنك يابنى، وأرسل إلى المدينة فأتاه ما يريده من دابة وسلاح وأمر أمره وقام فى الناس فخطبهم وسار من الربذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح والراية مع محمد بن الحنفية وعلىّ على ناقة حمراء يقود فرسا كميتا فلما التقى الجمعان ترددت الرسل بينهما وطال الكلام فى أمر الصلح ووضع الحرب فأبى قوم عائشة إلا القتال وأقبل كعب بن سور فأتى عائشة فقال أدركى فقد أبى القوم إلا القتال لعل الله أن يصلح بك فركبت وألبسوا هودجها الأدراع فلما برزت من البيوت وهى على الجمل بحيث تسمع الغوغاء وقفت واقتتل الناس قتالاً عظيماً جداً.

وقاتل الزبير فحمل عليه عمار بن ياسر فجعل يحوزه بالرمح والزبير كاف عنه ويقول أتقتلنى ياأبا اليقظان فيقول لا يا أبا عبد الله، قال أهل التاريخ: وإنما كف الزبير عنه لقول صاحب الشريعة تقتل عمارا الفئة الباغية قالوا ولولا ذلك لقتله،

وبينما عائشة واقفة إذ سمعت ضجة شديدة، فقالت: ما هذا قالوا ضجة العسكر، قالت: بخير أو بشر قالوا بشر فما فجاءها إلا الهزيمة فمضى الزبير من وجهه إلى وادى السباع وأما طلحة فأتاه سهم فأصابه فشك رجله بصفحة الفرس وهو ينادى إلىّ إلىّ عباد الله الصبر الصبر، ثم دخل البيوت ودمه يسيل وهو يقول اللهم خذ لعثمان منى حتى ترضى، فلما امتلأ خفه دما وثقل قال لغلامه: أردفنى وأمسكنى وأبلغنى مكانا أنزل فيه فدخل البصرة فأنزله فى دار خربة فمات فيها، وقيل أنه اجتاز به رجل من أصحاب علىّ، فقال له: أنت من أصحاب أمير المؤمنين، قال: نعم، فقال: امدد يدك أبايعك له فبايعه فخاف أن يموت وليس فى عنقه بيعة ولما قضى دفن فى بنى سعد وكان الذى رمى طلحة مروان بن الحكم وقيل غيره وأما الزبير فانه مر بعسكر الأحنف بن قيس فلما رآه الأحنف قال: من يأتينى بخبر هذا وأشار إليه فقال رجل اسمه عمرو بن جرموز أنا ثم تبعه فلما لحقه نظر إليه الزبير قال: ما وراءك، قال: إنما أريد أن أسألك فقال غلام للزبير: كان معه أنه معدّ قال الزبير ما يهولك من رجل وحضرت الصلاة فقال ابن جرموز الصلاة الصلاة، فقال الزبير الصلاة ونزل ليصلى فأستدبره ابن جرموز وطعنه فقتله وأخذ فرسه وسلاحه وخاتمه وخلى عن الغلام فدفنه بوادى السباع ورجع إلى الناس بالخبر ثم سار إلى علىّ ودفع إليه سيف الزبير فنظر إليه وقال طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله ﷺ.

وقالت عائشة: لما انجلت الوقعة وانهزم الناس لكعب بن سور خل عن الجمل وتقدم بالمصحف فادعهم إليه وناولته مصحفا فاستقبل القوم فرموه بالسهام فقتلوه ورموا عائشة فى هودجها فجعلت تنادى البقية البقية يابنىّ ويعلو صوتها الله الله اذكروا الله والحساب فلم يمتنعوا عنها فجعلت تحرض الناس فحملت مضر البصرة حتى قصفت مضر الكوفة حتى زحم على وكانت راية على مع ابنه محمد فنخس على قفا ابنه محمد. وقال له أحمل فتقدم وأخذ علىّ الراية من يده. وقال يابنى بين يدى واشتدت الحرب وكثر الهول والكرب وتساقطت النبال تباعاً وأبى أهل الكوفة إلا القتال ولم يريدوا إلا عائشة وتزاحف الناس بعضهم على بعض ونظرت عائشة من يسارها فقالت من القوم عن يسارى فقال لها صبرة بن شيمان بنوك الأزد فصاحت يا آل غسان حافظوا اليوم فجلادكم الذى كنا نسمع به وتمثلت:

وجالد من غسان أهل حفاظها وكعب وأوس جالدت وشبيب

فكان الأزد يأخـذون بعر الجـمل يشمـونه ويقولون بعـر جمل أمّنا ريحـه ريح المسك. وقالت لمن عن يمينها من القوم عن يمينى قال بكر بن وائل قالت لكم بقول القائل

وجـاءوا إلينا في الحـديد كـأنهم   من الغـرّة القـعـسـاء بكر بن وائل

واشتدّ الفريقان فى القتال شدة بالغة فكثرت الجرحى والقتلى فى العسكر جميعاً فقال قوم لا تزال الحرب أو يصرع الجمل وكره القوم بـعضهم بعضاً وأخذ عميرة بن يثربى برأس الجمل فكان لا يتـقدّم إليه أحد إلا قتله حتى قـتل هو دون زمام الجمل ولم يزل الأمر كذلك حتى قتل على خطام الجمـل أربعـون رجـلاً، قالـت عائشة: ما زال جملى معتدلاً حتى فقدت أصوات بنى ضبة، قيل وأخذ الخطام سبعون رجلاً من قريش وكلهم يقتل وأحدق أهل النجدات والشجاعة بعائشة فكان لا يأخذ الخطام أحد إلا قتل وما زال حتى ضاع الخطام ونادى علىّ أعقروا الجمل فإنه إن عقر تفرقوا فضربه رجـل فسقط واجتمع الـقعقاع وزفر على قطـع بطان البعير وحـملا الهودج فوضعاه وفر من كان وراءه من الناس وتمت هزيمة أصـحاب عائشة فلما انهزموا أمر علىّ منادياً فنادى ألا لا تتـبعوا مـدبراً ولا تجهزوا على جـريح ولا تدخلوا الدور ثم رسم إلى نفر أن يحملوا الهودج بين القتلى فوضعوه وليس قربه أحد وأتى علىّ إلى عائشة فقـال كيف أنت ياأمه قالت بخير . قال: يغفـر الله لك قالت ولك فلما كان الليل أدخلها أخـوها محمـد بن أبى بكر البصـرة فأنزلها فى دار عـبد الله بن خلف الخزاعى وتسلل الجرحى من بين القتلى ليلاً ودخلوا البصرة فأقام علىّ بظاهر البصرة ثلاثاً وأذن للناس فى دفن موتاهم قـيل وكانت القتلى زهاء عشـرة آلاف نصفهم من أصحاب علىّ ونصـفهم الآخر من أصحاب عائـشة وقيل ثلاثة عشر ألفاً وقـيل غير ذلك.

ودخل علىّ البـصـرة يوم الاثنين فـبايعـه أهلهـا على راياتهم حـتى الجـرحى والمستأمنة ثم جهز على عائشة بكل مـا ينبغى لها من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك وبعث معها كل من نجـا ممن خرج معها إلا من أحب المقام واختـار لها أربعين أمرأة من نساء البـصرة والمعروفات وسـير معهـا أخاها محمـد بن أبى بكر وخرجت يوم السبت غرة رجب فشيـعها علىّ أميالاً وسرح بنيه معهـا يوماً فكان وجهها إلى مكة ووقف علىّ مودعا لها وحضر الناس فودعتهم، فقالت: وهى خارجة يابنّى لا يعتب بعضنا على بعض أنه والله ما كـان بينى وبين علىّ فى القديم إلا ما يكون بين المرأة

وبين أحمائها وأنه على معتبتي لمن الأخيار، فقال عليّ: صدقت والله ما كان بيني وبينها إلا ذاك وأنها لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة.

قلت : واختلف الكتاب وأهل التاريخ فيما دعا عائشة وعليا إلى هذه الحرب المشئومة وركوب هذا المركب الخشن فمنهم من قال إن الحرب إنما كانت منها أخذا بثأر عثمان لأنها كانت ترمى عليا بقتله أو بالتألب عليه، ومنهم من قال بل لكراهتها فيه وحقدها عليه منذ كانت تحت صاحب الشريعة خصوصاً ما كان عليّ بعد خروجها مع صاحب الشريعة إلى غزوة بنى المصطلق وتشديده على صاحب الشريعة فى طلاقها بعد الذى قاله أهل الإفك فيها، وتحرير الخبر كما روته عائشة، أن صاحب الشريعة كان إذا أراد السفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه فلما كانت غزوة بنى المصطلق أقرع بين نسائه فخرج سهم عائشة فخرجت معه فلما قفل صاحب الشريعة من سفره ذلك وكان قريباً من المدينة بات بمنزل بعض الليل ثم ارتحل بالناس وكانت عائشة قد خرجت لحاجتها وفى عنقها عقد من جزع أظفار أنسل من عنقها ولا تدرى فلما رجعت التمست العقد فلم تجده فخرجت إلى المكانَ الذى كانت فيه تلتمسه فوجدته وجاء القوم الذين يرحلون بعيرها فأخذوا الهودج وهم يظنون أنها فيه وانطلقوا ورجعت هى إلى المعسكر وما فيه داع ولا مجيب فالتفت بجلبابها واضطجعت وهى تنتظر إحدى خلال ثلاث إما هلاكها جوعاً وعطشاً أو أن يفترسها سبع من سباع البر أو يرجع إليها منشد، وبينما هى على هذا الحال إذ أقبل عليها صفوان بن المعطل السلمى وكان قد عرّس وراء العسكر لحاجته فلم يبت مع الناس فوقف عليها وكان يعرفها جيداً قبل أن يضرب الحجاب فقال لها ماخلفك ههنا ثم قرّب بعيره، وقال: اركبى فركبت وأخذ برأس البعير وسارا حتى أتيا الجيش وبينما كان يقودها إذ مر ببعض المنافقين وبينهم عبد الله بن أبيّ الذى كان يدعوه صاحب الشريعة رأس النفاق. فقال: من هذه فقيل له عائشة زوّج النبىّ مع صفوان، فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها. وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها، وقال هو وغيره ما قالوه إفكاً وخاضوا فى الحديث، وعلم بالأمر صاحب الشريعة فأقلقه فقام فى الناس فخطبهم ثم قال، أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهنّ غير الحق ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلا خيراً وما دخل بيتاً من بيوتى إلا معى . اهـ.

وكان قد كبر ذلك عند عبد الله بن أبى ابن سلول فى رجال من الخزرج مع الذى قاله مسطح وحمنة بنت جحش وهما من أهل الإفك، وذلك أن زينب أختها

كانت عند صاحب الشريعة فأشاعت حمنة من ذلك كلاماً كثيراً، فلما قال صاحب الشريعة تلك المقالة وقع الهرج وعلت الضوضاء بين الناس وتشاوروا حتى كاد يكون بينهم شر فنزل صاحب الشريعة ودعا عليّ بن أبى طالب وأسامة بن زيد فاستشارهما فأما أسامة فأثنى خيراً وأما علىٌ فقال: إن النساء لكثير وسل الخادمة تصدقك فدعا صاحب الشريعة بريرة الخادمة يسألها فقام إليها عليّ فضربها ضرباً مبرحاً وهو يقول اصدقى رسول الله فقالت والله ما أعلم إلا خيراً ثم قالت ما قالت، وهبط جبريل بثمان عشرة آية من سورة النور فى براءة عائشة، قال الزمخشرى فى تفسير هذه الآيات: لو قلبت القرآن كله وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ فى شيء تغليظه فى إفك عائشة ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد والعقاب البليغ والزجر العنيف ما أنزل فى إفك عائشة على طرق مختلفة وأساليب مفتنة فأوجز فى ذلك وأشبع وفصل وأجمل وأكد وكرر وجاء بما لم يقع فى وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه فى الفظاعة . اهـ.

وأقامت عائشة على بغضها لعلى والتألب عليه فى خلافته فكانت لا تنكف عن التشنيع عليه بالقول إنه حذف من القرآن وأسقط وبدّل وحرّف فمن ذلك آية المتعة، قالت إنه أسقطها بتة وكان يجلد من يقرؤها وينهى عنها، وكانت عوناً لمن خرج على عليّ من الأحزاب حتى مات.

وبعث عليّ قيس بن سعد أميراً على مصر وقيس هذا كان صاحب راية الأنصار على عهد صاحب الشريعة وكان من ذوى الرأى والبأس فقال له على سر إلى مصر فقد وليتكها وأخرج إلى رحلك واجمع ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها وأحسن إلى المحسن واشدد على المريب وارفق بالعامة والخاصة فإن الرفق يمن، فخرج قيس حتى دخل مصر فى سبعة من أصحابه ودخل المسجد وصعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب عليّ فقرىء على أهل مصر بإمارته ويأمرهم بمبايعته ومساعدته وإعانته على الحق، ثم قام قيس خطيباً فقال: الحمد الله الذى جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين، أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد نبينا فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله وسنته ورسوله فإن نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم، فقام الناس فبايعوا واستقامت مصر واطمأنت القلوب وبعث عليها عماله إلا قريه أسمها خربتا هذه فيها ناس قد أعظموا قتل عثمان واستكبروه وكاتبوا قيساً يدعونه إلى الطلب بدم عثمان وطال بينهم وبينه الأخذ والردّ ثم تهادنوا وكان قيس ذا تدبير وحيلة فلما فاض الخبر بما وقع بين عائشة وعليّ ونهض معاوية بن أبى

سفيــان إلى شق عصا الطاعة كــان معاوية يخشى كثــيراً من قيس المذكور مــخافة أن يقبل عليّ فى أهل العراق وقيس فى أهل مصر فيقع بينهما معاوية فكتب معاوية إلى قيس كتابا يقول فيه سلام عليك، أما بعد فإنكم نقمتم على عثمان ضربة بصوت أو شتيمة رجل أو تسيير آخر واستعمال فتى وقد علمتم أن دمه لا يحل لكم فقد ركبتم عظيمــاً وجئــتم أمراً إدّاً فتب إلــى الله ياقيس فإنك من المجـلبين على عثــمان فــأما صاحبك فإنا استيقنا أنه الذى أغرى الناس وحملهم حتى قتلوه وأنه لم يسلم من دمه عظيم قومك فإن استطعت ياقيس أن تكون ممن يطالب بدم عثمان فافعل وتابعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين إذا ظهرت ما بقيت ولمن أحببت من أهلك سلطان الحجاز ما دام لى سلطان وسلنى ما شئت فإنى أعطيك واكتب إلىّ برأيك . اهـ.

فلما جاءه الكتاب أحب أن يدافعه ولا يبدى له أمراً ولا يتعجل إلى حربه، قال أصحاب التــاريخ: فكتب إليه يقول: أما بعد فقد فهمت مــا ذكرته من قتلة عثمان فذلك شىء لم أقاربه وذكرت أن صاحــبى هو الذى أغرى به حتى قتلوه وهذا مما لم أطلع عليه وذكرت أن عظم عشيرتى لم تسلم فأوّل الناس كان فيه قياماً عشيرتى وأما ما عــرضته من متــابعتك فهذا أمــر لى فيه نظر وفكرة وليس هذا مما يســرع إليه وأنا كاف عنك وليس يأتيك مــن قبلى شىء تكرهه حتى ترى ونرى إن شــاء الله تعالى، قالوا فلما قرأ معاوية كتاب قــيس رآه مقارباً مباعداً فكتب إليه، أما بعد فــقد قرأت كتــابك فلم أرك تدنو فأعدك سلــما ولا متبــاعدا فأعــدك حربا وليس مــثلى يصانع المخادع وينخدع للمكايد ومعه عدد الرجال وأعنة الخيل والسلام، قالوا فلما قرأ قيس كتابه ورأى أنه لا تفيد معه المدافعــة والمماطلة أظهر له ما فى نفسه فكتب إليه، أمــا بعد فالعجب مــن اغترارك بى وطمعك فىّ واستسقــاطك إياى أتسومنى الخروج عن طاعة أولى الناس بالإمــارة وأقولهم بالحق وأهداهم ســبيلاً وأقــر بهم من رسول الله ﷺ وسيلة وتأمرنى بالدخول فى طاعتك طاعة أبعد الناس من هذا الأمر وأقولهم بالزور وأضلهم ســبيلاً وأبعــدهم من رسول الله ﷺ وســيلة ولد ضالين مــضلين طاغوت من طواغيت إبليس. وأما قولك إنى مالىء عليك مصر خيلاً ورجالا فوالله إن لمْ أشغلك بنفسك حتى تكون أهم إليك إنك لذو جد والسلام، فلما رأى معاوية كتابه أيس منه وثقل عليــه مكانه فجعل يكيد له وافتعل كتــاباً عن قيس إليه بالطلب بدم عثمان والدخول معه فى ذلك وقرأه على أهل الشام وطير خبره إلى الآفاق فبلغ ذلك علياً أبلغــه إياه محمــد بن أبى بكر ومحمد بن جــعفر بن أبى طالب وأعلمــته عيــونه بالشام فكبــر عليه هذا الأمر جــدا وأعظمه فدعــا ابنيه وعــبد الله بن جعــفر

فأخبرهم بالخبر، فقال ابن جعفر: ياأمير المؤمنين دع ما يريبك إلى ما لا يريبك اعزل قيسا عن مصر. فقال عليّ: إنى والله ما أصدّق بهذا عنه، فقال عبد الله: أعزله ياأمير المؤمنين فإن كان هذا حقاً لا يعتزل لك فبينما هم على هذا الحال إذ جاءهم كتاب من قيس يخبر أمير المؤمنين بأمر المتحزبين الطالبين بدم عثمان وأنه كف عن مشاغبتهم وقتالهم، فقال ابن جعفر: ما أخوفنى أن يكون ذلك ممالأة منه فمره بقتالهم فكتب إليه عليّ يأمره بقتالهم فلما قرأ الكتاب كتب جوابه، أما بعد فقد عجبت لأمرك تأمرنى بقتال قوم كافين عنك مفرغيك لعدوك ومتى حاددناهم ساعدوا عليك عدوّك فأطعنى ياأمير المؤمنين واكفف عنهم فان الرأى تركهم والسلام، قيل فلما قرأ عليّ الكتاب، قال ابن جعفر: ياأمير المؤمنين ابعث محمد بن أبى بكر على مصر واعزل قيسا فقد بلغنى أن قيسا يقول إن سلطانا لا يستقيم إلا بقتل مسلمة بن مخلد لسلطان سوء فأطاعه عليّ وبعث محمد بن أبى بكر لمصر وقيل بعث قبله الاشتر النخعى فمات بالطريق فبعث محمداً فلما قدم على قيس بمصر قال له قيس ما بال أمير المؤمنين ما غيره أدخل أحد بينى وبينه قال لا وهذا السلطان سلطانك فقال لا والله لا أقيم وخرج منها مقبلاً إلى المدينة وهو غضبان لعزله فجاءه حسان بن ثابت وكان عثمانيا يشمت به، فقال له: قتلت عثمان ونزعك عليّ فبقى عليك الإثم ولم يحسن لك الشكر، فقال له: قيس ياأعمى القلب والبصر والله لو القى بين رهطى ورهطك حربا لضربت عنقك اخرج عنى ثم خاف من مروان بن الحكم بالمدينة فرحل عنها.

ولما قدم محمد بن أبى بكر مصر قرأ كتاب عليّ على أهل مصر ثم قام فخطب فقال: الحمد لله الذى هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق وبصرنا وإياكم كثيراً مما كان عمى عنه الجاهلون، ألا إن أميرالمؤمنين ولأنى أمركم وعهد إلى ما سمعتم وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب فإن يكن ما ترون من إمارتى وأعمالى طاعة لله فاحمدو الله على ما كان من ذلك فإنه هو الهادى له وإن رأيتم عاملاً لى عمل بغير الحق فارفعوه إليّ وعاتبونى فيه فإنى بذلك أسعد وأنتم جديرون، وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال برحمته، ثم نزل ولبث شهراً كاملاً حتى بعث إلى أولئك المعتزلين من الطالبين بدم عثمان، وقال لهم: إما أن تدخلوا فى طاعتنا وإما أن تخرجوا من بلادنا فأجابوه إننا لا نفعل هذه ولا هذه وامتنعوا وأخذوا حذرهم فسير إليهم الحرث بن جمهان الجعفى فى جمع كبير قاتلهم فقاتلوه وقتلوه فبعث إليهم

أيضاً ابن مضاهم الكلبى فقتلوه ووصل الخبر بذلك إلى معاوية فكتب إليه يسبه ويقبح فعاله ويتوعده.

وكتب علىّ إلى معاوية يعلمه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ونكث طلحة والزبير وحربه إياهما ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار من طاعته فاستشار معاوية عمرو بن العاص فى ذلك. وكان قد لحق بمعاوية قبل قتل عثمان بقليل كى لا يقتل عثمان وهو فى المدينة. فقال عمرو اجمع أهل الشام وقاتله أخذا بثأر عثمان حتى تظفر ففعل معاوية ذلك وكان أهل الشام لما قدم عليهم النعمان ابن بشير بقميص عثمان الذى قتل فيه مخضوباً بالدم بأصابع زوجته نائلة إصبعان منها وشىء من الكف وإصبعان مقطوعتان من أصولهما ونصف الإبهام وضع معاوية القميص على المنبر وجمع الأجناد إليه وكلمهم فى أمر القتال والخروج على علىّ وإلزامه بدم عثمان فبكوا جميعاً مدّة وهو على المنبر والأصابع معلقة فيه وأقسم رجال من أهل الشام أن لا يمسهم الماء إلا للغسل من الجنابة وأن لا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن قام دونهم قتلوه وكان هذا كله بحضرة رسول علىّ فرجع الرسول إليه وأخبره بالخبر وأن أهل الشام اجتمعوا على قتاله فكبر الأمر على علىّ ونادى فى عسكره بالخروج فخرجوا وعسكروا بالنخيلة ففرق فيهم الأعطية وجهز معاوية وتجهز الناس وحضهم عمرو بن العاص على القتال، وقال لمعاوية: سر إلى علىّ بنفسك ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك فبالغ معاوية فى التأهب والاستعداد ووقف عمرو وسط القوم وناداهم إنما سار إليكم علىّ فى شرذمة قليلة وقد قتل خليفتكم فالله الله فى حقكم أن تضيعوه وفى دمكم أن تطلوه، فعقد له معاوية لواءولواء لا بنيه عبد الله ومحمد ولواء لغلامه وردان وجاءهم الخبر بأن عليا عقد لواء لغلامه المدعو قنبر فأنشد عمرو بن العاص فى ذلك:

هل يغنين وردان عني قنبرا أو تغنى السكون عني حميرا

إذا الكماة لبسوا السنوّرا

وساروا حتى التقوا جميعاً وسيرّ علىّ جماعة من كبار قومه إلى معاوية ليحتجوا عليه ويدعوه إلى الطاعة فدخلوا عليه وكلموه فى الأمر طويلاً، فقال: ليس بينى وبين علىّ إلا السيف فعادوا وأخبروا عليا بما جرى وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اصطف الفريقان ودارت الحرب بينهما على السهل الخفيف إذ كرهوا أن يجمعوا أهل العراق بأهل الشام فى قتال خوفاً من الاستئصال والهلاك فكانوا يخرجونهم

جماعات قليلة فاقتتلوا على هذا الحال أيام ذى الحجة كلها من سنة ست وثلاثين وربما اقتتلوا فى اليوم الواحد مرتين، ثم عادوا بعد المحرم فى سنة سبع وثلاثين إلى القتال فرتب عليّ أصحابه وحضهم على القتال حتى يموتوا أو يمكنهم الله من عدوهم، وضرب معاوية له قبة عظيمة وألقى عليها الثياب فبايعه أكثر أهل الشام على الموت وأحاط بقبته خيل دمشق ودارت الحرب بين الفريقين فاقتتلا قتالاً عنيفاً وكان معاوية يعلق قميص عثمان وفيه أصابع نائلة زوجته فإذا رأى ذلك أهل الشام ازدادوا غيظاً وحدّة فى أمرهم فإذا أحس منهم بفتور يقول له عمرو بن العاص حرك لها حوارها تحن فيعلق القميص، واشتد أهل الشام فى قتالهم لأصحاب عليّ وأجهزوا عليهم وأطبقوا من كل صوب وحدب وما زالوا كلما انهزمت طائفة من أصحاب عليّ وانكشفت عنه سار إلى استنهاض الأخرى، وكان الأشتر أحد كبار أصحاب عليّ ينادى فى الناس ويقول انصروا أمير المؤمنين وأصدقوا عدوكم اللقاء إن الله مع الصادقين، وكثر القتل فى أصحاب عليّ وكذلك فى أصحاب معاوية واشتد عليّ بمن معه فى القتال فلما رأى عمرو بن العاص ما صاروا إليه، قال لمعاوية هل لك فى أمر أعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعاً ولا يزيدهم إلا فرقة قال: نعم، قال: نرفع المصاحف ثم نقول لما فيها هذا حكم بيننا وبينكم فإن أبى بعضهم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول ينبغى لنا أن نقبل فتكون فرقة بينهم، وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا إلى أجل فأجابه معاوية إلى ما طلب وأمر فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا هذا حكم كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم فلما رآها الناس قالوا: نجيب إلى كتاب الله فقال لهم عليّ إن معاوية وعمرا ومن معهما ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالاً ثم رجالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم والله ما رفعوها إلا خديعة ووهنا ومكيدة، فقالوا له: لا يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله فنأبى أن نقبله، وقال جماعة: أجب إلى كتاب الله عز وجل إذ دعيت إليه وإلا دفعناك برمتك إلى القوم أو نفعل بك ما فعلنا بابن عفان، فقال لهم: احفظوا عنى نهيى إياكم واحفظوا مقالتكم لى فإن تطيعونى فقاتلوا وإن تعصونى فاصنعوا ما بدا لكم، واختلفوا فيما بينهم حتى كادوا يفترقون وسب أهل الكوفة الأشتر وضربوا وجه دابته بسياطهم لأنه كان يحض عليا على القتال وعدم وضع الحرب، ويقول لهم إن رفع المصاحف إنما هى حيلة ومشورة من ابن النابغة يعنى به عمرو بن العاص، فلما رأى عليّ اشتداد الخلاف وتفريق الكلمة سير الأشعث بن قيس إلى معاوية يسأله عما يريد، فقال معاوية: إنما أريد أن نرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به فى

كتابه تبعثون رجلاً ترضون به ونبعث نحن رجلاً نرضى به نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقنا عليه، فرجع الأشعث إلى علىّ وأخبره بما قاله معاوية وفاض الخبر بذلك بين أصحاب علىّ فقالوا: قد رضينا وقبلنا وقال أهل الشام قد رضينا عمرا، وقال أصحاب علىّ: ونحن قد رضينا بأبى موسى الأشعرى فمانعهم على فى ذلك فأصروا على تحكيم أبى موسى، وجاء أبو موسى حتى دخل المعسكر وحضر عمرو بن العاص عند علىّ ليكتبوا القضية بحضوره فكتبوا، بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين فقال عمرو هو أميركم وأما أميرنا فلا، فقال الأحنف لا تمح اسم أمير المؤمنين فإنى أخاف إن محوتها أن لا ترجع إليك أبداً لا تمحها، وإن قتل الناس بعضهم بعضًا قيل فأبى ذلك علىّ ملياً من النهار ثم إن الأشعث بن قيس قال: امح هذا الاسم فمحاه، فقال علىّ: الله أكبر سنة بسنة والله إنى لكاتب رسول الله ﷺ يوم الحديبية فكتبت محمد رسول الله، وقالوا لست برسول الله ولكن أكتب اسمك واسم أبيك فأمرنى رسول الله ﷺ بمحوه فقلت لا أستطيع فقال أرنيه فأريته فمحاه بيده، وقال: إنك ستدعى إلى مثلها فتجيب، فقال عمرو بن العاص: سبحان الله أنشبه بالكفار ونحن مؤمنون ووقع بينه وبين أمير المؤمنين على كلام كثير ثم كتب الكتاب، هذا ما تقاضى عليه علىّ بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان قاضى على على أهل الكوفة ومن معهم، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم إننا ننزل عند حكم الله وكتابه وأن لا يجمع بيننا غيره، وإن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته نحيى ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان فى كتاب الله وهما أبو موسى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عملا به وما لم يجداه فى كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة . اهـ.

ثم أخذ الحكمان من علىّ ومعاوية ومن العسكرين من العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهليهما والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه واتفقوا على أن يكون الحكم فى رمضان أو بعده وشهد بذلك جماعة من أصحاب على وآخرون من أصحاب معاوية وكتب الكتاب يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين واتفقوا على أن يوافى علىّ على موضع الحكمين بدومة الجندل أو بأذرح فى شهر رمضان وتفرقت جموع كثيرة من أصحاب علىّ وسار بمن بقى معه عن صفين إلى الكوفة ونزل بها.

ولما جاء وقت اجتماع الحكمين أرسل علىّ أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانىء الحارثى وأوصاه أن يقول لعمرو بن العاص إن علياً يقول لك إن أفضل الناس

عند الله عزّ وجلّ من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه من الباطل وإن زاده ويحك لا تكن للخائنين خصيماً وللظالمين ظهيراً، وأرسل معاوية عمرو بن العاص فى أربعمائة من أهل الشام حتى توافقوا جميعاً على دومة الجندل باذرح فلما اجتمع عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى. قال عمرو لأبى موسى يا أبا موسى ألا تعلم أن عثمان قتل مظلوماً، قال: أشهد، قال: ألست تعلم أن معاوية وآل معاوية أولياؤه قال: بلى، قال فما يمنعك منه وبيته فى قريش كما قد علمت فإن خفت أن يقول الناس ليست له سابقة وجدته ولىّ عثمان المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة والتدبير وهو أخو أم حبيبة زوج رسول الله ﷺ وكاتبه وقد صحبه وعرض له بسلطان، فقال أبو موسى ياعمرو اتق الله فأما ما ذكرت من شرف معاوية فإن هذا ليس على الشرف تولاه أهله، ولو كان على الشرف لكان لآل أبرهة بن الصباح إنما هو لأهل الدين والفضل مع إنى لو كنت معطيه أفضل قريش شرفاً أعطيته على بن أبى طالب، وأما قولك إن معاوية ولىّ دم عثمان فوله هذا الأمر فلم أكن لأوليه وادع المهاجرين الأولين، وأما تعريضك لى بالسلطان فوالله لو خرج معاوية لى من سلطانه كله لما وليته وما كنت لأرتشى فى حكم الله ولكنك إن شئت أن تحيى اسم عمر بن الخطاب رحمه الله، قال له عمرو وما يمنعك من ابنى وأنت تعلم فضله وصلاحه فقال: ابنك رجل صدق ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة، فقال عمرو: إن هذا الأمر لا يصلح إلا لرجل يأكل ويطعم وكانت فى ابن عمر غفلة فقال له ابن الزبير أفطن فانتبه، فقال والله لا أرشو عليها شيئاً أبداً، وقال يابن العاص إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد ما تقارعوا بالسيوف فلا تردّهم فى فتنة فلما اختلفوا فيمن يتولاها. قال عمرو بن العاص لأبى موسى خبرنى ما رأيك، قال أبو موسى: أرى أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الأمر شورى فيختار المسلمون لأنفسهم من أحبوا، فقال عمرو الرأى ما رأيت فقاما وأقبلا إلى الناس وهم مجتمعون وكان عمرو قد عود أبا موسى أن يقدمه فى الكلام ويقول أنت صاحب رسول الله ﷺ وأسن منى، فقال: حينئذ يا أبا موسى أعلم الناس أن رأينا قد اتفق فتكلم أبو موسى، فقال: إن رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة فقال عمرو صدق وبرّ تقدم يا أبا موسى فقال له ابن عباس ويحك والله إنى لأظنه قد خدعك إن كنتما اتفقتما على أمر فقدمه فليتكلم به قبلك ثم تكلم به بعده فإنه رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا بينكما فإذا قمت فى الناس خالفك، قال بعض الكتاب وكان أبو موسى مغفلاً فقال إنا قد اتفقنا والتفت إلى الناس وقال: أيها

الناس إنا قد نظرنا فى أمـر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثـها من أمر قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه وهو أن نخلع عليا ومعاوية ويولى الناس أمرهم من أحبوا، وإنى قد خلعت عليا ومعاوية ثم تنحى وأقبل عمرو، وقال: إن هذا قد قال ما سمعتموه وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحـبه كما خلعه واثبت صاحبى معاوية فأنه وليّ ابن عفان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه، فعند ذلك وقع الهرج بين الناس وعلت الضوضـاء وتشاتم أبو مـوسى وعمرو بن العـاص وتسابا وضـرب شريح بن هانىء عمرو بن العاص بسوط كان فى يده فقام عليـه ابن لعمرو فضربه كذلك وكثر الصيـاح من الفريقين وطلب أهل الشام أبا مـوسى فهرب إلى مكة وعاد عـمرو بن العاص بأهل الشام إلى مـعاوية فسلموا عليه بالخلافة ورجـع ابن عباس وشريح إلى عليّ وأخبره بما كان فاغتم غماً شديداً وصار إذا صلى الغداة يقنت فيقول اللهم العن معاوية وعمرا وأبا الأعور وحبيبا وعبد الرحمن بن خالد والضحاك بن قيس والوليد فـبلغ ذلك معـاوية فكان إذا قنت أيضـاً سب عليا وابن عـباس والحسن والحسـين والأشـتـر، وتألب أصحاب عليّ على قـتال معاوية وأصحابه وأتوا عليـا فبايعوه . وقالوا: نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت، وكتب عليّ إلى أهل النهر، بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عليّ أميـر المؤمنين إلى زيد بن حصين وعبد الله بن وهب ومن معهما من الناس، أما بعد فإن هذين الرجلين اللذين ارتضيناهما حكمين قد خـالفا كتاب الله واتبـعا هواهما بغـير هدى من الله فلم يعمـلا بالسنة ولم ينفذا القرآن حكما فبـرىء الله منهما ورسوله والمؤمنون فإذا بلغكم كتـابى هذا فأقبلوا إلينا فإنا سائرون إلى عـدوّنا وعدوّكم ونحن على الأمر الأول الذى كنا فيه فكتـبوا إليه، أما بعد فإنك لم تغضب لربك وإنما غضبت لـنفسك فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت الـتوبة نظرنا فيما بيننا وبينك وإلا فقـد نبذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين، فلما قرأ الجواب أيس منهم وسار بمن مال معه حتى نزل على أهل الكوفة واستنصـرهم فاجتمع له منهم زهـاء ثلاثة آلاف مقاتل، وقيل: ثلاثة آلاف ومـائتين وخرج مـعه من أهل الكوفـة أربعون ألف مقـاتل وسبعـة عشر ألـفا من الأبناء ممن أدرك، وثمانية آلاف من الموالى والعبيد فكان جميع أهل الكوفة خمسة وستين ألفاً، فسار بهم عليّ لقتـال من خرج عن دعوته من أهل النهر وغيرهم فـقاتلهم واستظهر عليهم ثم نادى فيمن معه بالخروج لقتال معاوية فراجعه فى ذلك الأشعث بن قيس، وقال: ياأمـير المؤمنين لقـد نفدت نبـالنا وكلت سيـوفنا ونصلت أسنة رمـاحنا وعاد أكثرها قصدا فارجع إلى مصرنا نستعد ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا فإن عدونا

أقوى منا، فأجابه عليّ إلى ذلك وما زالوا حتى نزلوا بالنخيلة فأمر الناس بأن يلزموا المعسكر ويتأهبوا للزحف على العدو وأن يقلوا من زيارة أبنائهم ونسائهم حتى يسيروا إلى عدوّهم فلبثوا على هذا الحال أياماً ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا البيوت إلا نفرا من وجوه الناس، وأصبح عليّ وقد رأى المعسكر خالياً فحزن واشتد به الحزن ودخل الكوفة وقد انكسر عليه رأيه في المسير ولكنه قد كبر عليه الأمر واستعظمه فجعل يستنفرهم ويحثهم على الخروج فلم يطيعوا وبقوا على هذا الحال أياماً فجمع رؤساءهم وكبارهم وقام فيهم، فقال: عباد الله ما بالكم إذا أمرتكم أن تنفروا تثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة وبالذل والهوان من العز خلفا وكلما ناديتكم إلى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت في سكرة وكأن قلوبكم مألوسة وأنتم لا تعقلون فكأن أبصاركم كمه وأنتم لا تبصرون لله، أنتم ما أنتم إلا أسد الشرى في الدعة وثعالب روّاغة حين تدعون إلى البأس إنكم تكادون ولا تكيدون وينتقص أطرافكم وأنتم لا تتحاشون ولا تنام أعينكم وأنتم في غفلة ساهون إلى أن قال، فلم يلتفتوا إلى مقالته وكادوا يخذلونه.

وبينما كان عليّ على هذا الحال من الضعف والوهن وتفريق كلمة أصحابه إذ جاءه الخبر بفساد أهل مصر على محمد بن أبي بكر عامله بها وخروج معاوية بن خديج السكوني بها يطالب بدم عثمان واجتماع الكثير إليه فكبرالأمر على عليّ، قال بعض الكتاب: فكتب إلى الأشتر وهو بنصيبين يستدعيه فلما حضر أخبره خبر أهل مصر، وقال له: ليس لها غيرك فأخرج إليها فإني قد وليتك إياها واستعن بالله فخرج الأشتر يتجهز إلى مصر وأتت معاوية عيونه بذلك فعظم عليه الأمر وخشي عاقبته لأنه علم أن الأشتر إن قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر فأرسل معاوية إلى المقدم على أصحاب الخراج بالقلزم يقول: إن الأشتر قد ولي مصر فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت وبقيت، فقام الرجل من ساعته وسار حتى أتى القلزم وأقام به وخرج الأشتر من العراق يريد مصر فلما انتهى القلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه الضيافة فنزل عنده فأتاه بطعام فأكل فأتاه بشربة من عسل قد وضع له فيها سما فشرب فمات لساعته وجاء الخبر بموته إلى معاوية ففرح فرحاً لا يوصف وقام في الناس خطيباً فقال بعد كلام: قد كانت لعليّ يمينان فقطعت إحداهما بصفين يعني بموت عمار بن ياسر وقطعت الأخرى اليوم يعني بموت الأشتر، وعلم محمد بن أبي بكر بما فعله عليّ من إرساله الأشتر مكانه فكبر عليه الأمر جدا وأرسل إلى عليّ في ذلك فكتب إليه عليّ يقول: أما بعد فقد بلغني

موجـدتك من تسريحى الأشتـر إلى عملك وإنى لم أفعل ذلك إلا اسـتبطاء لك فى الجهـاد ولا ازديادا منى لك فى الجـد ولو نزعت ما تحت يدك لوليـتك ما هو أيـسر عليك مؤنة منـه وأعجب إليك ولاية، إن الرجل الذى كنت وليته أمر مصر كان لنا نصيـحاً وعلى عدوّنا شـديداً وقد استكمل أيامـه ولاقى حمامـه ونحن عنه راضون فرضى الله عنه وضاعف له الثواب أصبر لعدوّك وشد للحرب، وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ما ولاك، فكتب إليه محمد أما بعد فقد انتهى إلىّ كتابك وفهمته وليس أحد من الناس أرضى برأى أمـيرالمؤمنين ولا أجهد على عـدوه ولا أرأف بوليه منى وقد خـرجت فعسكرت وأمنت الناس إلا من نـصب لنا حربا وأظهر لنا خـلافاً وأنا متبع أمير المؤمنـين وحافظه والسلام، وقيل: إنما تولى الأشتر مصر بعـد قتل محمد ابن أبى بكر، وقيل: غـير ذلك، وكان معاوية شديد الخـوف من أهل مصر يهابهم جداً لقربهم منه وشدّتهم على من قام يطالب بدم عثمان ولم يكن يخشى غيرهم لا سيما بعد اختلاف الناس على علىّ بالعراق فجعل يدبر الحيلة فى ذلك ثم دعا عمرو ابن العاص وحبيب بن مسلمة وبسـر بن أرطأة وآخرين وشاورهـم فى أمر مصر ومن بها من أصحاب علىّ فأشار عليه عمرو بن العاص بفتحها والركوب على من بها من الأحزاب حـتى يتم النصر فكاتب معـاوية إلى بعض من خالف عليا بمصـر فى أمر ذلك فمنوه بالنصر واستنهـضوه فأمر عمرو بن العاص ليـتجهز إليها وسير مـعه ستة آلاف رجل فنزلوا على مقربة من أرض مصر فاجـتمع إليه من قام يطالب بدم عثمان فتقـوّت بهم عزيمته وكتب إلـى محمد بن أبى بكر أما بعـد فتنح عنى بدمك يا ابن أبى بكر فإنى لا أحب أن يصيـبك منى ظفر إن الناس بهذه البلاد قد اجتـمعوا على خلافك وهم مـسلموك فـاخرج منها إنى لك مـن الناصحين وبعث مـعه كـتابا من معاوية أيضاً فـأرسل محمد الكتابين إلى علىّ وأخبـره بنزول عمرو بن العاص على حدود مصر وطلب منه المدد لتثاقل الناس وتقاعدهم فوعده علىّ بإرسال نجدة عاجلة وحضه على أن يضم شيعته إليه.

واشتـبك القـتال بين مـحمـد بن أبى بكر وعمـرو بن العاص ومن بمصـر من أصحـاب عثـمان واشتـد شدّة بالغة واجـتمع أهل الشـام حول محـمد وأصـحابه وأخذوهم بالرماح والسيوف من كل صوب وكان كنانة بن بشر على مقدمة أصحاب محمـد فلما رأى ذلك كنانة نزل عن فرسه ونزل مـعه أصحابه فـضارب أهل الشام بسيفـه حتى قتل، وبلغ محـمد بن أبى بكر خبر مـوته فانزعر وتفرق عنـه أصحابه

وأطبق عليه عمرو بمن معه ففر محمد على وجهه حتى انتهى إلى خربة فى الطريق فأوى إليها وساق عمرو بن العاص بمن معه يريد الفسطاط وخرج معاوية بن حديج فى طلب محمد بن أبى بكر فدل عليه رجل فأخرجوه من الخربة وقد كاد يهلك عطشا فقال: يا ابن حديج أسقنى، فقال له. لاسقانى الله إن سقيتك قطرة أبداً إنكم منعتم عثمان شرب الماء والله لأقتلنك حتى يسقيك الله من الحميم والغساق فقتله ابن حديج ثم ألقاه فى جيفة حمار ثم أحرقه بالنار وجاء الخبر إلى علىّ بفتح مصر وقتل محمد بن أبى بكر فحزن كثيراً وحزنت عائشة وجزعت عليه جزعاً شديداً وجعل عمرو يدبر الأمور بمصر وقد أخذ البيعة لمعاوية بن أبى سفيان وجمع إليه كلمة الأحزاب فقويت بهم شوكته واتسعت كلمته وهابه علىّ فأحجم عن تسيير الجند لقتاله بعد أن نادى فيهم بالرحيل، واختلفت كلمة أصحاب علىّ وتفرقوا عنه أو كادوا ومعاوية يبعث البعوث إلى الآفاق لتعم دعوته وتعلو كلمته، فلما دخلت سنة ست وثلاثين للهجرة فرق معاوية جيوشه فى العراق ورسم لهم بقتال كل من لم يذعن لسلطانه فعاثوا وقتلوا ونهبوا وسبوا وفعلوا مالا خير فيه وكذلك فعلوا بأهل البوادى وبلغوا مكة والمدينة وفعلوا بها ما فعلوا وكبر الأمر على علىّ وكاد يسقط فى يده فكانت الأخبار تأتيه فى كل يوم بتثاقل الناس عن الخروج لقتال عدوّه فكان يخطب ويحض ويعذر ويؤنب ويقول ياأيها الناس انصروا من هو على الحق ويحكم المغرور من غررتموه ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب إنا لله وإنا إليه راجعون والناس مع ذلك فى تثاقل وسلطانه فى إدبار، فلما اشتد الحال وعظم الخلاف بين المتحازبين اجتمع عبد الرحمن بن ملجم المرادى، والبرك بن عبد الله التميمى الصريمى، وقيل: اسم البرك الحجاج، وعمرو بن بكر التميمى السعدى وهم من الخوارج فتذاكروا أمر الناس وعابوا عمل ولايتهم ثم ذكروا قتلى النهر فترحموا عليهم. وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم فلو شرينا أنفسنا وقتلنا أئمة الضلالة وأرحنا منهم البلاد لكان فى ذلك المصلحة فقال ابن ملجم ويحكم أنا أكفيكم علياً وكان ابن ملجم هذا من أهل مصر وقال البرك بن عبد الله وأنا أكفيكم معاوية. وقال عمرو بن بكر وأنا أكفيكم عمرو ابن العاص فتعاهدوا أن لا ينكص أحدهم عن صاحبه الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت فأخذوا سيوفهم فسموها واتعدوا لسبع عشرة من رمضان وقصد كل منهم الجهة التى يريد فأتى ابن ملجم الكوفة فلقى أصحابه بالكوفة وكتمهم أمره ورأى يوماً أصحاباً له من تيم الرباب، وكان علىّ قد قتل منهم يوم النهر عدة فتذاكروا قتلى النهر، ورأى معهم امرأة من تيم الرباب

اسمها: قعام، وقد قتل أبوها وأخوها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها أخذت قلبه فخطبها فقالت: لا أتزوّجك حتى تشتفى لى، فقال: وما تريدين، قالت: ثلاثة آلاف وعبداً وقينة وقتل عليّ، فقال: أما قتل عليّ فما أراك ذكرتيه وأنت تريدينني، قالت: بلى، التمس غرّته فإن أصبته شفيت نفسك ونفسي ونفعك العيش معى، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها، قال: والله ما جاء بى إلا قتل عليّ فلك ما سألت. قالت: سأطلب لك من يشد ظهرك ويساعدك وبعثت إلى رجل من قومها اسمه وردان وكلمته فأجابها وأتى ابن ملجم رجلاً من أشجع اسمه شبيب بن بجرة فقال له: هل لك فى شرف الدنيا والآخرة؟ قال: وماذا، قال: قتل عليّ، قال شبيب: ثكلتك أمك لقد جئت شيئاً إدّا كيف تقدرعلى قتله، قال: أكمن له فى المسجد فإذا خرج إلى صلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه، فإن نجونا فقد شفينا أنفسنا وإن قتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها، قال: ويحك لو كان غير عليّ كان أهون، فلما كانت ليلة الجمعة سابع عشرة رمضان سنة أربعين استيقظ عليّ سحراً وقال: لابنه الحسن رأيت الليلة النبيّ ﷺ فقلت: يارسول الله ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد؟ فقال: لى أدع الله تعالى عليهم، فقلت: اللهم أبدلنى بهم خيراً لى منهم وأبدلهم بى شراً لهم منى، ودخل المؤذن فقال: الصلاة فخرج عليّ من الباب ينادى أيها الناس الصلاة الصلاة فاعترضه ابن ملجم فضربه بالسيف فأصاب جبهته ووصل إلى دماغه فشد عليه الناس من كل جانب فأمسك وأوثق وأقام عليّ الجمعة والسبت وتوفى ليلة الأحد وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ومحمد بن الحنفية وصلى عليه الحسن ودفن بدار الإمارة بالكوفة ليلاً وأخفى قبره لئلا ينبشه الخوارج وأما البرك فإنه ضرب معاوية فأصاب أوراكه وكان معاوية عظيم الأوراك فقطع منه عرق النكاح فلم يولد له بعد ذلك ولد فأمر معاوية باتخاذ المقصورة فى الجوامع من ذلك الوقت، وأما عمرو بن بكر فإنه رصد عمرو بن العاص بمصر فاشتكى عمرو بطنه فلم يخرج إلى الصلاة، فصلى بالناس رجل من بنى عامر يقال له خارجة فضربه ابن بكر فقتله وإليه أشار ابن عبدون فى قصيدته الرائية:

فليتها إذ فدت عمرا بخارجة ... فدت عليا بمن شاءت من البشر

وقيل ان عليا كان إذا رأى ابن ملجم يتمثل بهذا البيت

أريد حياته ويريد قتلي ... عذيرك من خليلك من مرادي

وأخذوا ابن ملجم فعذبوه وقطعوه إربا بعد موت عليّ، قال غير واحد، أنه لما

ضربه ابن ملجم أوصى الحسن والحسين وصية طويلة وفى آخرها، يابنى عبد المطلب لا تخوضوا دماء المسلمين خوضاً تقولون قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتلن بى غير قاتلى أضربوه ضربة بضربة ولا تمثلوا به فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إياكم والمثلى»، ولما مات علىّ قتل الحسين ولده عبد الرحمن بن ملجم المذكور فقطع يديه ورجليه وكحل عينيه بمسمار محمى فى النار، قيل: كل ذلك ولم يتأوه ولم يجزع فلما أرادوا قطع لسانه تأوه وجزع فسئل عن ذلك، فقال: والله ما أتأوّه فزعاً ولا جزعاً من الموت وإنما أتأوّه لأن تمر علىّ ساعة من ساعات الدنيا لا أذكر الله تعالى فيها فقطعوا لسانه فمات بعد ذلك، ومات علىّ وعمره سبع وقيل: ثمان وخمسون، وقيل: ثلاث، وقيل: ثمان وستون سنة وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر ويوماً واحداً وكانت مدة إقامته بالمدينة أربعة أشهر ثم سار إلى العراق وقتل بالكوفة. قيل: وكان قبل موته قد بايعه أربعون ألفاً من عسكره على الموت فقتل قبل أن يخرج بهم لقتال عدوّه، وكان يجتمع علىّ مع صاحب الشريعة فى عبد المطلب الجد الأدنى وينسب إلى هاشم فيقال: القرشى الهاشمى ولم يزل اسمه فى الجاهلية والإسلام عليا ويكنى أبا الحسن أسلم وهو ابن سبع سنين، وقيل: ابن تسع، وقيل: ابن عشر، وقيل: ابن خمس عشرة، وقيل غير ذلك والصحيح الأوّل، وشهد المشاهد كلها إلا تبوك فإن صاحب الشريعة خلفه فى أهله، وكان غزير العلم ولما هاجر صاحب الشريعة أقام بعده ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عنه الودائع، وكان لعلىّ شفقة على رعيته فكان متواضعاً ورعاً ذا قوّة فى الدين وكان قوته من دقيق الشعير يأخذ منه قبضة فيضعها فى القدح ثم يصب عليه ماء فيشربه، وقد تفرق عليه الخوارج واعتقد فيه الناس الألوهية، قيل: ولما بلغ عائشة قتل علىّ قالت:

فألقت عصاها واستقرّ بها النوى ... كما قرّ عينا بالإياب المسافر

قالت من قتله: فقيل رجل من مراد فقالت:

فإن يك نائيا فلقد نعاه ... نعيّ ليس في فيه التراب

فقالت زينب بنت أبى سلمة: أتقولين هذا لعلىّ، فقالت: إننى أنسى فإذا نسيت فذكرونى، ومات فى أيامه بنيامين بطرك الإسكندرية بعد أن أقام تسعاً وثلاثين سنة على المشهور وكان فيها من الحوادث والمحن ما مر بك ذكره، فأقيم بعده أغاثو وهو تاسع ثلاثيهم وكان فى أيامه من الحوادث ما سيذكر بعد، ولما مات أميرالمؤمنين علىّ بن أبى طالب خلفه ابنه الحسن.

(الفصل الخامس)
(فى خلافة أمير المؤمنين حسن بن علىّ)

ثم قام بالأمـر بعد أميـر المؤمنين علىّ الحسن ابنه، وكنـيته أبو مـحمد، ولقـبه الذكى وأمه فـاطمة الزهراء بويع له بالخلافـة بعد موت أبيـه فى شهر رمـضان سنة أربعين للهجرة أى سنة إحدى وستين وستمائة ميلادية فكان الناس فى ريب من بيعته لأنه كـان يقول لهم أشـترط عليكم فى بـيعـتى إنكم مطيعـون تسالمون من سـالمت وتحاربون من حاربت، فقالوا: ماهذا لكم بـصاحب وما يريد هذا إلا القتال ثم سار إلى المدائن واستقر بها فبينما هو بالمدائن إذ نادى مناد أن قيساً قتل، وكان الحسن قد جعله على مقدمـة الجيش وهو قيس بن سعد بن عبادة فـخرج الحسن لذلك وخرج معه الكثـير من الناس وانفشلوا وقد نهبوا مـتاع الحسن حتى نازعوه بساطـاً كان تحته فأزداد لهم بغضاً وكاد يسقط فى يده، وكـان بينهم الجراح الأسدى فهزأ الجراح على الحسن وهو يسيـر معه ووجأه بالخنجـر فى فخذه، فقال الحـسن: قتلتم أبى بالأمس ووثبـتم علىّ اليـوم تريدون قـتلى زهداً فى العـادلين ورغـبـة فى القـاسطين ووالله (لتعـلمن نبأه بعـد حين) وسار وهو يريد تسليم الأمـر إلى معاوية بغضـاً فى القوم لخذلهم إياه، ثم كـتب إلى معاوية بتـسليم الأمر إليه واشـترط عليه شروطاً فـأجابه معاوية إلى ما التمسه منه وسير له مـا اشترط عليه، فسلم الأمر إلى معاوية وبايع له لخمس بقين من ربيع الأوّل قال بعض الكتـاب: لأنه رأى المصلحة فى جمع الكلمة وترك القتـال، ويقال أنه أخـذ من معاوية ألف ألف درهـم. وقال قوم: إنه صـالحه باذرح فى جمـادى الأولى وأخذ منه مـائة ألف دينار، ويقال أربعـمائة ألف درهم، وقيل أنه شرط عليـه أن يمكنه من بيت المال يأخذ منه حاجتـه وأن يكون ولى العهد من بعده فـفرح معاوية بذلك فـخلع الحسن نفســه وسلم الأمر إلى معاوية وصـالحه ودخل هو وإياه الكوفة فسمى هذا العام عام الجامعـة لاجتماع الأمة بعد الفرقة على خليفة واحد، وقيل: أنه لما راسل معاوية فى تـسليم الخلافة إليه خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه، وقال: إنا والله ما يثنينا عن أهل الشام شك ولا ندم وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر فشيبت السلامة بالعداوة والصبر بالجزع وكنتم فى سيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم وأصبحتـم اليوم ودنياكم أمام دينكم ألا وقد أصبحتم

بين قتيلين قتيل بصفين تبكون له وقتيل بالنهر وأن تطلبون بثأره، وأما الباقى فخاذل وأما الباكى فثائر ألا وإن معاوية دعانـا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى الله عزّ وجلّ بظبا السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضا، فعند ذلك ناداه الناس من كل جانب البقية البقية فأمضى الصلح، قال الليث: شهدت خطبة الحسن ﷺ حين صالح معاوية وخلع نفسه من الخلافة فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمـا بعد فإن أكيس الكيس التقى وأحمق الحـمق الفجور، وإن هذا الأمر الذى اختلفت أنا ومعاوية فـيه إن كان له فهو أحق به منى، وإن كان لى فقد تركته له إرادة لإصلاح الأمة وحقن الدماء عن سفكها والعار على النار.

قال بعض أصحـاب التاريخ: لما مرض الحسن ﷺ كـتب مروان بن الحكم إلى معاوية بذلك فكتب إليه معاوية أن أقبل المطى إلىّ بخبر الحسن فلما بلغ معاوية موته سمع تكبيره من الخـضراء فكبر أهل الشام لذلك التكبير، فقالت فـاختة بنت قريظة لمعاوية، أقـر الله عينك ما الذى كـبرت لأجله، فقـال: مات الحسن، فـقالت أعلى موت الحسن بن فاطمـة تكبر، فقال: والله ما كبرت شمـاتة فى موته ولكن استراح قلـبى، ودخل عليه ابن عباس فقـال له يا بن عباس: هل تدرى ما حدث فى أهل بيتك ؟فقال لا أدرى ما حـدث إلا إنى أراك مستبشراً وقد بلغنى تكبـيرك فقال مات الحسن. فقال ابن عـباس: يرحم الله أبا محمد ثلاثاً، والله يامعـاوية لا تسدّ حفرته حفرتك ولا يزيد عمره فى عمرك ولئن كنا قد أصبنا بالحسن فلقد أصبنا بإمام المتقين وخاتم النبيين فجبر الله تلـك الصدعة وسكن تلك العبرة وكان الله الخلف علينا من بعده.

وكان الحسن قد سمته أمرأته جـعدة بنت الأشعث فمكث شهرين يرفع من تحته فى اليوم كـذا وكذا مرة طست من الدم وكان يقـول سقيت السم مراراً ومـا أصابنى فيـها ما أصـابنى فى هذه المرة، وكان قد أوصى لأخـيه الحسـين وقال: إذا أنا مت فادفنى مع جدى رسول الله ﷺ إن وجدت إلى ذلك سبيلاً وإن منعوك فادفنى فى بقيع الغـرقد، فلما مـات لبس الحسيـن ومواليه السـلاح وخرجوا ليـدفنوه مع جده فخـرج مروان بن الحكم فى مـوالى بنى أميـة وهو يومئـذ عامل على المدينة فـمنع الحسين من ذلك، وكانت وفاته فى شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين، وقيل: سنة خمسين وصلى عليه سعيد بن العـاص ودفن مع أمه فاطمة، وقيل: دفن بالبقيع فى

قبر بقبة العباس ودفن فى هذا القبـر أيضاً على زين العابدين وابنه محمد الباقر وابن ابنه جعفر بن محمد الـصادق فهم أربعة فى قبر واحد، فكانت خلافة الحـسن ستة أشهر وخمسة أيام، وقيل: ستة أشهر إلا أيامًا، ومات وعمره سبع وأربعون سنة فتم بموته الأمر لمعاوية وانقطع بموته حبل الخلفاء الراشدين وقامت بعدهم الخلافة الأموية فكانت مدة خلافة الراشدين عبارة عن ثلاثين سنة هجرية وبعض أشهر وكان عددهم خمسة خلفاء أولهم أبو بكر وآخرهم الحسن بن علىّ بن أبى طالب.



(المقالة الرابعة)
(فى الخلفاء الأمويين وفيها فصول)

(الفصل الأول)
(فى خلافة معاوية بن أبى سفيان)

لما خلع الحسن نفسه من الخلافة على الشروط التى تقدم الكلام عليها تم الأمر لمعاوية واستقام له الملك وصفت له الخلافة وعلت كلمته وطارت شهرته وكان قد بويع له بالخلافة يوم التحكيم، بايعه أهل الشام واختلف عليه أهل العراق إلى أن صالحه الحسن بن على فأجمع الناس على بيعته فى جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين هجرية أى سنة اثنتين وستين وستمائة ميلادية.

وكان مولد معاوية بالخيف من منى، أسلم قبل أبيه أبى سفيان وصحب صاحب الشريعة وكتب له وكان فى عسكر أخيه يزيد بن أبى سفيان وكان عاملاً لعمر بن الخطاب فى سنة عشرين هجرية على الشام فلم يزل متولياً عليه عشرين سنة، وذلك بقية خلافة عمر بن الخطاب وخلافة عثمان وفى خلافة علىّ متغلباً عليها إلى أن أسلم إليه الحسن الخلافة فاجتمع له الأمر وبعث نوابه إلى البلاد وذلك فى سنة إحدى وأربعين للهجرة أى سنة إحدى وستين وستمائة للميلاد فسمى هذا العام عام الجماعة، قالوا: لأن الأمة اجتمعت فيه بعد الفرقة على إمام واحد.

قال بعض الكتاب: وكانت امرأة استشارت صاحب الشريعة فى أن تتزوّج بمعاوية فقال لها: صعلوك لا مال له ثم بعد هذا القول بإحدى عشرة سنة صار نائب دمشق ثم بعد الأربعين صار ملك الدنيا، فلما استقرت به الخلافة وتصرف فى الأمور خرج عليه فروة بن نوفل الأشجعى الحرورى وورد الكوفة وهو أول الخوارج،

فكتب معاوية إلى أهل الكوفـة لاذمة لكم عندى حتى تكفونى أمره فـقاتلوه وقتلوه بشهرزور، وقيل ببعض السواد، ثم خرج بعده معن الخارجى وهو، معن بن عبدالله رجل من محارب فقبض عليه المغيرة وحبسه وبعث إلى معاوية يخبره أمره فكتب إليه إن شهد أنى خليفة فـ[illegible] سبيله فأحضره المغيرة. وقال له: أتشهـد أن معاوية خليفة وأنه أمير المؤمنين، [illegible]: أشهد أن الله عزّ وجلّ حق **﴿وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القـبور﴾** أمر به فقتل ثم خـرج أبو مريم مولى بنى الحرث بن كعب ومعه امرأتان قطام وكحيلة فكان أوّل من خـرج معه النساء على الخليفة فعاب ذلك عليه بعض قومـه، فقال: قد قاتل النســاء مع رسول الله ﷺ ومع المسلمين بالشام، قال: وسأردّهما فردّهما فوجه إليه المغيرة رجالاً فقاتلوه وقتلوه.

ولما كانـت سنة اثنتين وأربعـين سيـر معاويـة جنداً ضخمـاً لبلاد الروم لـلغزو فاقتتلوا قتالاً شـديداً ثم دخل بسر بن أرطأة أرضهم سنة ثلاث وأربعين، قيل: وبلغ القسطنطينية ثم دخل عـبد الله بن خالد وكان على حمص فشـتى بهم وغزاهم بسر تلك السنة بحراً ثم دخل إليـها عبد الرحمن السـبيعى سنة ست وأربعين فـشتى بها وشتى أبوه على أنطاكيـة، ثم دخلوا سنة ثمان وأربعين فشتى عبد الـرحمن بأنطاكية ودخل عبد الله بن قـيس فى تلك السنة بالصائفة وغزاهم مـالك بن هبيرة سنة تسع وأربعين فشـتى بأرض الروم ودخل عبد الله بن كرز الجبلى بالصـائفة وشتى يزيد بن ثمرة الرهاوى فى بلاد الروم بأهل الشام فى البحر وعقبة بن نافع بأهل مصر كذلك، وسيـر أيضاً فى سنة ثمان وأربعـين للهجرة إلى سنة خـمسين أى سنة ثمان وسـتين وستمائة للمـيلاد جيشاً كثيـفاً إلى قسطنطينية مع سفيـان بن عوف فأوغلوا فى بلاد الروم وألقوا الحصارعلـى المدينة وكان فى الجيش يومئذ ابن عبـاس وعمرو بن الزبير وأبو أيوب الأنصارى الذى شهد بدراً وأحدا وحرب صـفين فمات أيام الحصار ودفن بقرب سور القـسطنطينية، وبعد أن هاجموا المدينة هـجمات كثيرة وشـدوا عليها من كل جانب هزمهم الروم شـر هزيمة وعرقلت النار الإغريقية حـركاتهم فكانت تحرق وتبيـد وتهلك من فوق ومن تحت الماء وكـان معاوية قـد أمر أبنه يزيد بالغزو مـعهم فتثاقـل واعتل فأمسك عنه أبوه وأصاب الناس فى غزوتهم هذه جـوع ومرض شديد وفاض الخبر بذلك وتحدّث الناس فيه فأنشأ يزيد يقول:

مـا إن أبالي بما لاقت جـمـوعـهـم بالفـرقـدونة من حـمى ومن شـوم
إذا اتكأت علـى الأنماط مـرتفــعـاً بديـر مـــرّان عنـدي أم كلـثـــوم

وأم كلثوم هى امرأته ابنة عبد الله بن عامر فبلغ معاوية شعره فأقسم عليه ليلحقن بسيفان من أرض الروم ليصيبه ما أصاب الناس فسار ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه ثم رجع يزيد والجيش إلى الشام، قال أصحاب التاريخ: فكانت هذه أوّل مرة لقيت فيها عساكر المسلمين صداً، وكان معاوية قد عقد لعمرو بن العاص النيابة على مصر فى مدة اختلافه مع أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كما تقدم القول، وكتب إلى مسلمة بن مخلد ومعاوية بن حديج وهما كبراء العاملين على أخذ ثار عثمان بن عفان بمصر يخبرهم بقدوم عمرو بن العاص ومن معه من الجند لأخذ مصر فأجابوه فجهز معاوية عمرو بن العاص فى ستة آلاف فسار إليها واجتمعت عليه العثمانية وهم عشرة آلاف، فكتب عمرو إلى محمد بن أبى بكر ما كتب وكان ما كان من أمر قتل محمد بن أبى بكر وإحراق جثته مما مر بيانه فى محله، فلما تم الأمر إلى عمرو بن العاص ودانت له الأمور كتب إلى معاوية يخبره بما كان من الأمر وأن الله قد فتح عليه بلاد مصر فأقام عمرو أميراً عليها إلى أن مات بها ليلة عيد الفطر سنة ثلاث وأربعين على المشهور ودفن بالمقطم من ناحية الفيح، وكان طريق الناس يومئذ إلى الحجاز فأحب أن يدعو له من مرّ به وهو أول أمير مات بمصر وفى ذلك يقول عبد الله بن الزبير:

ألم تر أن الدهر أخنى بربوة على عمرو السهمي تجبي له مصر
فأضحى نبيذاً بالعراء وضللت مكايده عنه وأمواله الدثر
ولم يغن عنه جمعه المال برهة ولا كيده حتى أتيح له الدهر

ولما مات عمرو بن العاص ولى معاوية على مصر ولده عبد الله بن عمرو المذكور، قال الواقدى: فعمل له عليها سنتين. وقال غيره: بل أشهرا ثم عزله وولى عقبة بن عامر سنة أربع وأربعين فأقام إلى سنة سبع وأربعين فعزله وولى معاوية بن حديج فأقام إلى سنة خمسين فعزله وولى مسلمة بن مخلد وجمعت له مصر والغرب وهو أول وال جمع له ذلك، قال ابن عبد الحكم: حدثنا عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة، عن بعض شيوخ أهل مصر، قال: أول كنيسة بنيت بفسطاط مصر الكنيسة التى خلف القنطرة أيام مسلمة بن مخلد المذكور فأنكر ذلك الجند على مسلمة. وقالوا له: أتقرّ لهم أن يبنوا الكنيسة حتى كاد يقع بينهم وبينه شر فاحتج عليهم يومئذ مسلمة فقال: إنها ليست فى قيروانكم وإنما هى خارجة فى أرضهم فسكتوا عن ذلك فأقام مسلمة أميرا إلى سنة تسع وخمسين، وكان عبد الرحمن بن

عبد الله بن عثمـان بن ربيعة الثقفى المشهور بابن أم حكيم وهى أخت مـعاوية أميراً على الكوفة فأساء السيرة فى أهلها فأخرجوه من بين أظهرهم طريداً فرجع إلى خاله معاوية. فقال: لأوّلينك مصر خيراً منها فـولاه مصر. فلما سار إليها تلقاه معاوية بن حديج على مرحلتين من مـصر فقال ارجع إلى خالك فلعمرى لا تسيـر فينا سيرتك فى أهل الكوفة فرجع ابن أم حكيم ولحقه معـاوية بن حديج وافداً على معاوية فلما دخل عليه وجد عنده أخته أم حكيم وهى أم عـبدالرحمن الذى طرده من مصر فلما رآه معـاوية قال: بخ بخ هذا معـاوية بن حديج فقـالت أم حكيم: لا مرحبـاً تسمع بالمعيدى خـير من أن تراه فقال معاوية بن حـديج: على رسلك يا أم حكيم أما والله لقد تزوّجت فما أكرمت وولدت فما أنجـبت أردت أن يلى ابنك الفاسق علينا فيسير فينا كمـا سار فى أهل الكوفة فمـا كان الله ليريد ذلك ولو فعل لضـربنا ابنك ضرباً يطأطىء منه وإن كره هذا الجالس فـألتفت إليها معاوية فـقال: كفى فاستمـر مسلمة على إمرة مصر إلى أن مات فى خلافة يزيد فى ذى الحجة سنة اثنتين وستين.

ولما كانت سنـة ست وخمسـين بايع الناس يزيد بن معـاوية بولاية عهـد أبيه، وكان الذى أشار على معاوية بذلك المغيرة بن شعبة، وذلك لأن معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة ويستعمل عوضه سعيد بن العاص فبلغه ذلك فقال الرأى أن أشخص إلى معاوية فأستعفيه ليظهر للناس كراهتى للولاية فسار إلى معاوية، وقال لأصحابه حين وصل إليه إن لم أكـسبكم الآن ولاية وإمـارة لا أفعل ذلك أبداً ومـضى حتى دخل على يزيد، وقال له :أنه قـد ذهب أعيان أصـحاب النبىّ ﷺ وآله وكبـراء قريش وذوو أنسـابهم وإنما بقى أبناؤهم وأنت من أفضلـهم وأحسنهم رأياً وأعلمـهم بالسنة والسياسة ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة. قال: أو ترى ذلك يتم قال: نعم فدخل يزيد على أبيه وأخـبره بما قال المغيرة فأحضر المغـيرة، وقال له: ما يقول يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين قد رأيت مـا كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان وفى يزيد منك خلف فاعقد له فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس وخلفا منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة، قال: ومن لى بهذا، قال: أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك، قال: فارجع إلى عمـلك وتحدّث مع من تثق إليـه فى ذلك وترى ونرى فودعـه ورجع إلى أصحـابه فقالوا: مـه، قال: لقد وضعت رجل مـعاوية فى غرز بعـيد الغاية على أمة مـحمد وفتقت عليهم فتقا لا يرتق أبداً وتمثل:

بمثلي شـاهدي النجـوى وغـالى   بي الأعـداء والخـصم الغـضـابا

وسار المغيرة حتى قدم الكوفة وذاكر من يثق إليه ومن يعلم أنه شيعه لبنى أمية أمر يزيد فأجابوا إلى بيعته، فأوفد منهم عشرة، ويقال أكثر من عشرة وأعطاهم ثلاثين ألف درهم وجعل عليهم ابنه موسى بن المغيرة وقدموا على معاوية فزينوا له بيعة يزيد ودعوه إلى عقدها فقال معاوية: لا تعجلوا بإظهار هذا وكونوا على رأيكم، وجعل معاوية يعطى المقارب ويدارى المباعد ويلطف به حتى استوثق له أكثر الناس وبايعه فلما بايعه أهل العراق والشام سار إلى الحجاز فى ألف فارس فلما دنا من المدينة لقيه الحسين بن على أول الناس فلما نظر إليه معاوية، قال: لا مرحباً ولا أهلا بدنة يترقرق دمها والله مهريقه. قال: مهلاً فإنى والله لست بأهل لهذه المقالة قال: بلى وأشر منها ولقيه ابن الزبير فقال: لا مرحباً ولا أهلاً خب ضب تلعة يخرج رأسه ويضرب بذنبه ويوشك والله أن يؤخذ بذنبه ويدق ظهره نحياه عنى فضرب وجه راحلته، ثم لقيه عبد الرحمن بن أبى بكر فقال له معاوية، لا أهلاً ولا مرحباً شيخ قد خرف وذهب عقله ثم أمر فضرب وجه راحلته ثم فعل بابن عمرو نحو ذلك فأقبلوا معه لا يلتفت إليهم حتى دخل المدينة فحضروا بابه فلم يؤذن لهم على منازلهم ولم يروا منه ما يحبون فخرجوا إلى مكة فأقاموا بها، وخطب معاوية بالمدينة فذكر يزيد فمدحه وقال: من أحق منه بالخلافة فى فضله وعقله وموضعه وما أظن قوماً بمنتهين حتى تصيبهم بوائق تجتث أصولهم وقد أنذرت أن أغنت النذر ثم أنشده متمثلاً:

قد كنت حذرتك آل المصطلق وقلت ياعمرو أطعني وانطلق
إنك إن كلفتني ما لم أطق ساءك ما سرك مني من خلق

دونك ما استسقيته فأحس وذق

ثم دخل على عائشة وقد بلغها أنه ذكر الحسين وأصحابه فقال: لأقتلنهم إن لم يبايعوا فشكاهم إليها فوعظته. وقالت له: بلغنى أنك تتهددهم بالقتل. فقال: ياأم المؤمنين هم أعز من ذلك ولكنى بايعت ليزيد وبايعه غيرهم أفترين أن أنقض بيعة قد تمت، قالت: فأرفق بهم فإنهم يصيرون إلى ماتحب إن شاء الله، قال: افعل ومكث بالمدينة ما شاء الله ثم خرج إلى مكة فلقيه الناس. قال بعض الكتاب: فقال أولئك النفر نتلقاه فلعله قد ندم على ما كان منه فلقوه ببطن مر فكان أول من لقيه الحسين فقال له معاوية: مرحباً وأهلا يا بن رسول الله وسيد شباب المسلمين وأمر له بدابة فركب وسايره ثم فعل بالباقين مثل ذلك وأقبل يسايرهم لا يسير معه غيرهم حتى دخل مكة فكانوا أول داخل وآخر خارج ولا يمضى يوم إلا ولهم صلة ولا

يذكر لهم شيئاً حتى قضى نسكه وحمل أثقاله وقرب مسيره، فقال بعض أولئك النفر لبعض: لا تخدعوا فما صنع بكم هذا لحـبكم ما صنعه إلا لما يريد فأعدّوا له جوابا فاتفـقوا على أن يكون المخاطب له ابن الزبيـر فأحضرهـم معاوية وقال: قـد علمتم سيـرتى فيكم وصلتى لأرحـامكم وحملى مـاكان منكم ويزيد أخوكـم وابن عمكم وأردت أن تقدموه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمرون وتجبون المال وتقسمونه لا يعارضكـم فى شـيء من ذلـك فـسكتوا فقال: ألا تجيبـون مرتين، ثم أقبل على ابن الزبير فقال: هات لعمرى إنك خطيبـهم، فقال: نعم، نخيرك بين ثلاث خصال قال: أعـرضهن، قال: تصنع كـما صنع رسول الله ﷺ أو كـما صنع أبو بكر أو كـما صنع عـمر. قـال معـاوية: مـا صنعوا؟ قـال: قبض رسـول الله ﷺ ولم يسـتخلف أحـدا فارتضى الناس أبا بكـر. قال: ليس فـيكم مثل أبى بكر وأخـاف الاختلاف. قالوا: صدقت فاصنع كمـا صنع أبو بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أبيـه فاستخلفه، وإن شـئت فاصنع كما صنع عمـر جعل الأمر شورى فى ستـة نفر ليس فيهم أحـد من ولده ولا من بنى أبيه، قـال معـاوية: هل عندك غير هذا؟ قال: لا، ثم التفت إلى من لم يتكلموا. وقال: فأنتم قالوا: قولنا قوله قـال: فإنى قد أحببت أن أتقدم إليكم أنه قـد أعذر من أنذر إنى كنت أخطب منكم فيقوم إلىّ القائم منكم فيكذبنى على رؤوس الناس فأحمل ذلك واصفح وإنى قائم بمقالة فـاقسم بالله لئن ردّ علىّ أحدكم كلمة فى مقـامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا يبقين رجل إلا على نفسه، ثم دعا صاحب حرسة بحضرتهم، فقال: أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ومع كل واحد سيف فإن ذهب رجل منهم يرد علىّ كلمة بتصديق أو تكذيب فليـضرباه بسيفهما ثم خرجا وخرجوا معه حتى رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال. إن هؤلاء الرهط سادة المسلمـين وخيارهم لا يبتـز أمر دونهم ولا يقضى إلا عن مشـورتهم وأنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوا على اسم الله، فبايع الناس وكانوا يتربصون بيعة هؤلاء النفر ثم ركب رواحله وانصـرف إلى المدينة فبايعه أهل المدينة ثم انـصرف إلى الشام وقد تم له ما أراد وقضى الأمر ولم يختلف فيه اثنان.

وخطب معاوية قبل مرضه فقال: إنى كزرع مستحصد وقد طالت إمرتى عليكم حتى مللتكم ومللتـمونى وتمنيت فراقكم وتمنيتم فـراقى ولن يأتيكم بعدى إلا من أنا خير مـنه، كما أن من قبلى كـان خيراً منى، وقد قـيل من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. اللهم إنى قد أحببت لقاءك فأحـبب لقائى وبارك لى فيه فلم يمض غير قليل

حتى ابتدأ به مرضه فلما مرض المرض الذى مات فيه دعا ابنه يزيد فقال يابنى إنى قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعه أحد فانظر أهل الحجاز فإنهم أصلك وأكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب وانظر أهل العراق فإن سألوك أن تعزل عنهم كل يوم عاملاً فافعل فإن عزل عامل أيسر من أن يشهر عليك مائة ألف سيف وأنظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وعيبتك فإن رابك من عدوّك شيء فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام إلى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم وإنى لست أخاف عليك أن ينازعك فى هذا الأمر إلا أربعة نفر من قريش الحسين ابن عليّ وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبى بكر فأما ابن عمر فأنه رجل قد وقذته العبادة. فإذا لم يبق أحد غيره بايعك . وأما الحسين ابن عليّ فهو رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه فإن خرج وظفرت به فأصفح عنه فإن له رحما ماسة وحقا عظيماً وقرابة مع محمد ﷺ وأما ابن أبى بكر فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله ليس له همة إلا فى النساء واللهو وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب، فإن أمكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير فإن هو فعلها بك فظفرت به فقطعه إربا إربا واحقن دماء قومك ما استطعت . اهـ.

قال ابن الأثير الجزرى: ذكر فى هذه الرواية عبد الرحمن بن أبى بكر وليس ذلك بصحيح، فإن عبد الرحمن بن أبى بكركان قد مات قبل معاوية . اهـ.

وقال بعض أهل التاريخ: إن يزيد كان غائباً فى مرض أبيه وموته وأنّ معاوية أحضر الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المرى فأمرهما أن يؤدّيا عنه هذه الرسالة إلى يزيد ابنه.

قلت: وهذا هو المشهور، ولما حضرته الوفاة جمع أهله. فقال ألستم أهلى؟ قالوا: بلى فداك الله بنا فقال: وعليكم حزنى ولكم كدى وكسبى. فقالوا: بلى فداك الله بنا ؟

قال: فهذه نفسى قد خرجت من قدمى فردوها علىّ إن استطعتم فبكوا وقالوا: والله ما لنا إلى هذا سبيل فرفع صوته بالبكاء ثم قال: فمن تغرّه الدنيا بعدى، قال بعضُ أهل التاريخ: ولما ثقل به الضعف وتحدث الناس أنه الموت. قال لأهله احشوا عينى اثمدا وأسبغوا رأسى دهنا ففعلوا وبرقوا وجهه بالدهن. ثم مهدوا له مجلساً وأسندوه وأذنوا للناس فدخلوا وسلموا عليه قياماً ولم يجلس أحد فلما خرجوا عنه

قالوا: هو أصح الناس فقال معاوية عند خروجهم:

وتجلدي للشـامـتين أريـهم … أني لريـب الدهر لا أتضـعـضع

فسمعه رجل من العلويين فأجابه:

وإذا المنيـة أنشـبت أظفـارها … ألفـيـت كل تميـمـة لا تنفع

قيل إنه أوصى أن تذق قـلامة أظافر صـاحب الشريعة وكـانت عنده وتجعل فى منافذ وجهه وأن يكفن فـى ثوب صاحب الشريعة، ومات بدمـشق فى نصف رجب وقيل فى مستهل رجب سنة ستين هجرية أى سنة ستين وثمانمائة ميلادية وصلى عليه الضحاك بن قـيس لغيبة الخليفـة يزيد ابنه ببيت المقدس، واختلف فى عمـره فقيل ثمـانون، وقيل: خـمس وسـبعـون سنة، وقيل: خـمس وثمـانون، وقيل: ثمـان وثمانون، وقيل تـسعون سنة، وكانت خلافتـه منذ خلص له الأمر تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام، وكان أميراً وخليفة أربعين سنة منها أربع سنين فى خلافة عمر بن الخطاب، وكان مليح الشكل عظيم الهيبة وافر الحشمة يلبس الثياب الفاخرة والعدّة الكاملة ويركب الخيل المسوّمة وكان كثير البذل والعطاء محسناً إلى رعيته كبير الشأن له فى العلم أخبار كثيرة وهو أول من اتخـذ المقاصير وأقام الحرس والحجاب، وأوّل من مشى بين يديه صاحب الشرطة بالحـربة، وأوّل من تنعم فى مأكله ومشربه وملبسه وكان حليماً يجتمع مع صاحب الشريعة فى عبد مناف بن قصى وينسب إلى أمية بن عبد شمس فيقال الأموى.

(الفصل الثانى)

(فى خلافة يزيد بن معاوية)

ثم قام بالأمر بعد معاوية ابنه يزيد بويع له بالخلافة يوم موت أبيه فى رجب سنة إحدى وستين هجرية أى سنة ثمانين وستمائة ميلادية، وقيل: سنة ستين هجرية وقد كان بحمص فقـدم منها وبادر إلى قبر أبيه ثم دخل دمشـق إلى الخضراء وكانت دارا للسلطنة فـخطب الناس بها وبايعوه بالخـلافة وكتب إلـى الآفاق بذلك فبـايعوه ولم يبايعه الحسين بن عـلى ولا عبد الله بن الزبير واختفيا من عامله الـوليد بن عقبة بن أبى سفيان، وأقاما مصرين على الامتناع وبيان ذلك، أنه لما امتنع الحسين وابن الزبير من البيعـة ليزيد خرج الحسين إلى مكة فـلقيه عبد الله بن مطيع. فـقال له: جعلت فداك أين تريد قال: أما الآن فـمكة وأما بعد فإنى أستخـير الله، قال: خار الله لك

وجعلنا فداك فإذا أتيت مكـة فإياك أن تقرب الكوفة فإنها بلدة مشـؤمة بها قتل أبوك وخذل أخوك إلزم الحرم فـإنك سيد العرب لا تعدل بك أهل الحجـاز أحدا ويتداعى إليك الناس من كل جانب ولا تفارق الحرم، فسار الحسين إلى مكة ونزل بها فكان أهلها يختلفـون إليه ويأتونه وعبد الله بن الزبير بها لا يريد إلا خـروج الحسين عنها لأن أهل الحجاز لا يبايعون الزبير مـا دام الحسين باقياً بالبلد، ولما بلغ أهل الكوفـة امتناع الحسين ومن امتنع عن مبايعة يزيد، وأنه سار إلى مكة ونزل بها اجتمع جماعة من كبارهم وكتبـوا إلى الحسين يقولون: بسم الله الرحمن الرحـيم، سلام عليك، فإننا نحمد إليك الله الذى لا إله سواه، أما بعد فالحمد لله الذى قصم عدوّك الجبار العنيد الذى انتزى على هذه الأمة فابتزها أمرها وغصبها دنياها وتأمر عليها بغير رضا منها، ثم قتل خيارها واستبقى شرارها وأنه ليس علينا إمام فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق والنعمان بن بشير فى قصر الإمارة لسنا نجتمع معه فى جمعة ولا عيد ولو بلغنا إقبالك إلينا أخـرجناه حتى نلحقه بالشام إن شـاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وسيروه إليه ثم كتبوا كتاباً آخر وسيروه بعد ليلتين فكتب الناس معه نحواً من مائة وخـمسين صحيفة ثم أرسلوا إليه رسولاً ثالثاً يحثونه على المسير إليهم فتـاقت نفس الحسين عند ذلك إلى الإمـارة وسير مسلم بن عقـيل إلى الكوفة وأمره بكتمان أمره واللطف فإن رأى الناس مجتمعين له عجل إليه بذلك فسـار مسلم حتى أدرك الكوفة وأقبلت الشيعة تختلف إليه فبلغ ذلك النعمان بن بشير وهو يومئذ أمير الكوفة فـخطب فى الناس وحذرهم من العاقبة، وكتب عـبد الله بن مسلم من سعيد الحضـرمى حليف بنى أمية إلى يزيد يعلمه بخبر قدوم مـسلم بن عقيل الكوفة ومبايعة الناس له ويقول له إن كان لك فى الكوفة حاجة فابعث إليك رجلاً قوياً ينفذ أمرك ويعمل مثل عملك فى عدوّك فإن النعـمان ضعيف أو هو يتضعف فخلع يزيد النعمان وولى عبيدالله بن مرجانة فسـار إليها وتمكن من مسلم بن عقيل فقتله وأعلم يزيد بالخبر فـسرّ به جداً وكتب إليه يقـول: بلغني أن الحسين قد توجـه نحو العراق فضع المراصد والمسالح واجترىء واحبس على التهمة وخذ على الظنة غير أن لا تقتل إلا من قاتلك، ولما أراد الحسين المسير إلى الكوفة حسب كتب أهل العراق أتاه الكثير من أشياعه يسألونه العدول عن المسير ويحذرونه العاقبة فلم يقبل وسار وهو لا يعلم ماجرى بمسلم بن عـقيل وبينما هو فى طريقه إلى الـصفاح إذ لقيه الفـرزدق الشاعر فقال له: أعطاك الله سؤلك وأملك فيما تحب، فقال له الحسين: بين لى خبر الناس خلفك، فقال الخبير: سألت قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية والقضاء ينزل

من السماء والله يفعل ما يشاء، فقال الحسين: صدقت لله الأمر يفعل ما يشاء وكل يوم ربنا فى شأن إن نزل القضاء بما نحب فنحمد الله على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر وإن حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد من كان الحق نيته والتقوى سريرته.

وجعل الحسين يرسل الرسل وهو فى الطريق إلى أهل الكوفة يعرفهم بقدومه ويأمرهم بالجد فى أمرهم فكان أصحاب يزيد يقبضون عليهم فيقتلونهم وجاء الخبر إلى الحسين بمقتل ابن عقيل بالثعلبية فتكدر جداً ووثب بنو عقيل مع الحسين يطلبون بثأر عقيل، وأتاه أيضاً خبر مقتل أخيه من الرضاعة عبد الله بن بقطر وكان سرحه إلى مسلم بن عقيل من الطريق وهو لا يعلم بقتله فأخذته خيل الحصين وأعلم الحسين الناس بخبر قتل أخيه من الرضاعة ومسلم بن عقيل. وقال: قد خذلنا شيعتنا فمن أحب أن ينصرف فلينصرف ليس عليه منا زمام فتفرقوا يميناً وشمالاً حتى بقى فى أصحابه الذين جاؤا معه من مكة، فلما سار من شراف وانتصف النهار كبر رجل من أصحابه فقال له: مم كبرت، قال: رأيت النخل، يريد نخل العلفة وأنهم قريبون فيها، فقال رجل من بنى أسد: ما بهذه الأرض نخلة قط، فقال الحسين: فما هو قال: هى هوادى الخيل فقال الحسين: وأنا أيضاً أراه ذلك أما لنا ملجأ نلجأ إليه نجعله فى ظهورنا ونستقبل القوم من وجه واحد ثم مال بمن معه إلى ذو حشم وهو جبل هناك فلم يكن بأسرع من أن ظهر أصحاب يزيد وهم ألف فارس فوقفوا مقابل الحسين وأصحابه فى نحر الظهيرة، وكان مقدّم قوم يزيد الحر بن يزيد التميمى فوقع بينه وبين الحسين كلام مما هم فيه ثم سار الفريقان كل فى ناحية حتى أتى الحسين قرية اسمها العقر فنزل بها هو ومن معه وذلك يوم الخميس الثانى من المحرم سنة إحدى وستين فلما كان الغد قدم عليهم عمر بن سعد بن أبى وقاص من الكوفة فى أربعة آلاف وجاء عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس من قبل اليزيد من مرو فنزلوا على الشريعة وحالوا بين الحسين وبين الماء وذلك قبل قتل الحسين بثلاثة أيام فلما اشتد العطش على الحسين وأصحابه أمر أخاه العباس بن علىّ فسار فى عشرين راجلاً يحملون القرب وثلاثين فارساً فدنوا من الماء فقاتلوا عليه وملؤا القرب وعادوا، ثم بعث الحسين إلى عمر بن سعد عمرو بن قرظة بن كعب الأنصارى أن ألقنى الليلة بين عسكرى وعسكرك فخرج إليه عمرو فاجتمعا وتحادثا طويلاً ثم انصرف كل واحد منهما إلى عسكره فتحدث الناس فى ذلك. وقالوا: إن الحسين قال لعمر اختاروا منى واحدة من ثلاث إما أن أرجع إلى المكان الذى أقبلت منه أو

أضع يدى فى يد يزيد بن معاوية فيرى فيما بينى وبينه رأيه وإما أن تسيروا بى إلى أىّ ثغر من ثغور المسلمين شئتم فأكون رجلاً من أهله لى ما لهم وعلىّ ما عليهم، فكتب عمر إلى ابن زياد عامل يزيد يعلمه بالخبر ويسأله أن يجاوب الحسين إلى خصلة من هذه الثلاث فلما علم ابن زياد ما فى كتاب عمر وقد وحرضه شمر بن ذى الجوشن على أن لا يمكّن الحسين من شىء مما سأل كتب ابن زياد إلى عمر يقبح فعله ويقول له: إنى لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه ولا لتطاول ولا لتقعد له عندى شافعا انظر فإن نزل هو وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعثه إلىّ سالمًا، وإن أبوا فازحف إليهم واقتلهم ومثل بهم فإن قتل الحسين فأوطىء الخيل صدره فإنه عاق شاق قاطع ظلوم أو تعتزل ويكون الأمر لذى شمر وسلم الكتاب لشمر المذكور فلما جاء عمر الكتاب ركب والناس معه بعد العصر وساروا إلى الحسين فأرسل لهم الحسين العباس فى عشرين فارساً فتقررت القاعدة بينهم على أن يلتقوا فى غداة غد فافترقوا على ذلك وباتوا ليلتهم تلك فلما كانت عشية الليلة سمعته أخته زينب وهو فى خباء له يقول وعنده حوىّ مولى أبى ذر الغفارى يعالج سيفه:

يادهر أف لك من خليل ... كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب أو طالب قتيل ... والدهر لا يقنع بالبديل
وإنما الأمر إلى الجليل ... وكل حيّ سألك السبيل

فأعادها مرتين أو ثلاثاً فلما سمعته لم تملك نفسها أن وثبت تجر ثوبها حتى انتهت إليه وصاحت واثكلاه ليت الموت أعدمنى الحياة اليوم ماتت فاطمة أمى وعلى أبى والحسين أخى ياخليفة الماضى وثمال الباقى، فلما سمعها قام إليها وقال ياأخية لا يذهبن حلمك الشيطان فقالت: بأبى أنت وأمى استقتلت نفسى لنفسك الفداء فترقرقت عيناه. وقال: لو ترك القطا لنام فلطمت وجهها. وقالت: واويلتاه أفتغصبك نفسك اغتصاباً فذلك أقرح لقلبى وأشد على نفسى ثم لطمت وجهها وشقت جيبها وخرت مغشية عليها فقام الحسين فصب الماء على وجهها، وقال: اتق الله وتعزى بعزاء الله واعلمى أن أهل الأرض يموتون وأهل السماء لا يبقون وإن كل شىء هالك إلا وجه الله أبى خير منى وأمى خير منى وأخى خير منى ولى ولهم ولكل مسلم برسول الله ﷺ أسوة ثم قال لها ياأخية إنى أقسم عليك لا تشقى علىّ جيبًا ولا تخمشى علىّ وجها ولا تدعى علىّ بالويل والثبور وإن أنا هلكت، وأصبح الحسين وقد أمر أصحابه أن يقربوا بعض بيوتهم من بعض وأن يدخلوا

الأطناب بعضها فى بعض ويكونوا بين أيدى البيوت فيستقبلون القوم من وجه واحد والبيوت على أيمانهم وعن شمائلهم ومن ورائهم وباتوا ليلتهم تلك وفى غداة السبت وقيل الجمعة يوم عاشوراء خرج عمر بن سعد فيمن معه من الناس وعبى الحسين أصحابه وهم اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً فجعل زهير بن القيس فى ميمنة أصحابه وحبيب بن مطهر فى ميسرتهم وأعطى رايته العباس أخاه وجعلوا البيوت فى ظهورهم ثم ركب دابته ودعا بمصحف فوضعه أمامه ونادى الحسين عمر وأصحابه ونهاهم عن قتاله وبالغ فى النهى. وقال: دعونى أنصرف إلى مأمنى من الأرض فقال له قيس بن الأشعث: أو لا تنزل على حكم ابن عمك يعنى ابن زياد فإنك لن ترى إلاما تحب فقال له الحسين: أنت أخو أخيك أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل لا والله ولا أعطيهم بيدى عطاء الذليل ولا أقر إقرار العبد ثم التفت إلى القوم وقال عباد الله ﴿إنى عذت بربى وربكم أن ترجمون﴾ أعوذ بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ثم أناخ راحلته ونزل عنها وخرج زهير بن القين أحد أصحابه على فرس له فى السلاح فقال مقالة طويلة ونهى أصحاب يزيد عن القتال وجعل يعرّض بذكر ابن زياد ويسبه فغضب القوم ومالوا على زهير بالسب والشتم وقالوا والله لا نبرح حتى نقتل صاحبك ومن معه ونبعث به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله بن زياد.

ورتب عمر أصحابه وأحكم ترتيبهم ثم اشتبك القتال بين الفريقين وحمى الوطيس وكثر الرمى بالنبال والحجارة وسالت الدماء وحملت رجال عمر بن سعد على أصحاب الحسين فأعملوا فيهم السيف حتى أفنوهم وأشتد العطش بالحسين فدنا من الفرات ليشرب فرماه حصين بن نمير بسهم فوقع فى فمه فجعل يتلقى الدم بيده ورمى به إلى السماء. وقال اللهم إنى أشكو إليك ما يصنع بابن بنت نبيك، اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بددا ولا تبق منهم أحداً. ثم إن شمر بن ذى الجوشن أقبل فى نفر نحو العشرة من رجالهم نحو منزل الحسين فحالوا بينه وبين رحله وأحاطوا بالحسين وهو يطاردهم ويدفعهم عنه فنادى شمر فى الناس ويحكم ماذا تنتظرون بالرجل اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم فحملوا عليه من كل جانب وطعنه سنان بن أنس النخعى برمح فوقع يتخبط فى دمه ونزل إليه فذبحه وأخذ رأسه فرفعه إلى خولى وسلب الحسين ما كان عليه ومال الناس على الفرش والحلل والإبل فانتهبوها ونهبوا ثقله ومتاعه وما على النساء حتى إن كانت المرأة لتنزع ثوبها من ظهرها فيؤخذ منها ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية ثم انتهوا إلى

علىّ بن الحسين زين العابديـن فأراد شمر قتله فمنع عمـر بن سعد قتله ومنع الناس من الدخول إلى بيـوت النساء وانتـدب عمر بن سـعد المذكـور عشرة من أصـحابه فداسوا الحسين بخيولهم حتى رضوا ظهره وصدره وكان عدة من قتل مع الحسين من أصحابه اثنين وسـبعين رجلاً منهم من أولاد علىّ أربعـة العباس وجعفـر ومحمـد وأبو بكر ومن أولاد الحسين أربعة ثم إن عبيد الله بن زياد جهز علىّ بن الحسين ومن كان مع الحسيـن من النساء إلى يزيد بن معاوية وهو يومئذ بدمـشق مع شمر بن ذى الجوشـن فـى جمـاعـة مـن أصحابـه فسـاروا حتـى قـدموا دمشق ودخلوا على يزيد ابن مـعاوية ومـعهم رأس الحـسـين فرمى به بين يدى يـزيد ثم تكلم شمـر بن ذى الجوشن فقال ياأمـيرالؤمنين: ورد علينا هذا يعنى الحسين فى ثمانيـة عشر رجلاً من أهل بيته وستين من شيعته فـسرنا إليهم وسألناهم النزول على حكم أميرنا عبيد الله ابن زياد أو القتال، فاختاروا القتـال فغدونا عليهم عند شروق الشمس وأحطنا بهم من كل جانب فلمـا أخذت السيـوف مأخذها جـعلوا يلوذون كما يلوذ الحـمام من الصقور فمـا كان إلامقدار جزر جزور أو نومة قائل حـتى أتينا على آخرهم فهاتيك أجسادهم مجردة وثيابهم مزملة وخدودهم معفرة تسقى عليهم الرياح زوّارهـم العقبان ووفودهم الرخم.

فلما سمـع يزيد ذلك دمعت عيناه وقال: ويحكم قـد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسـين لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو كنت صاحبـه لعفوت عنه. ثم قال يرحم الله أبا عبد الله وتمثل بقول الشاعر:

يفلـقن هامـا مـن رجـال أعـزة   علينـا وهم كـانوا أعـق وأظلمـا

ثم أمر بـالذرية فأدخلوا دار نسـائه. وكان يزيد إذا حـضر غداؤه دعـا علىّ بن الحسين وأخاه عمر بن الحسين فأكلا معه ثم وجه الذرية صحبة علىّ بن الحسين إلى المدينة ووجـه رجلاً فى ثلاثين فـارسا يسـير أمامـهم حتى انتـهوا إلى المديـنة، قال أصحاب التاريخ: وكـان بين وفاة صاحب الشريعة وبين اليوم الذى قتل فـيه الحسين خمـسون عامـا. وقيل: أن الحسيـن لما وصل كربلاء سأل عن اسم المكان فـقيل له كربلاء فقال: ذات كرب وبلاء لقد مر أبى بهذا المكان عند سيره إلى صفين وأنا معه فوقف وسأل عنه فأخبروه باسمه فقال ههنا محط رحالهم وههنا مهراق دمائهم فسئل عن ذلك فقال نفرمن آل محمد: ينزلون ههنا ثم أمر بأثقاله فحطت فى ذلك المكان،

وكان قتل الحسين يوم عاشوراء سنة ستين للهجرة. وقيل إحدى وستين أى نحو سنة ثمانين وستمائة ميلادية ذكره أبو حنيفة فى الأخبار الطوال وقتل مع الحسين فى هذه الواقعة سبعون رجلاً وقتل معه العباس بن علىّ وأمه أم البنين بنت حزام وقتل جعفر ابن على وأمه أم البنين أيضاً وقتل عبد الله بن على وأمه أم البنين أيضاً وقتل عثمان ابن علىّ وأمه أم البنين أيضاً وقتل محمد بن علىّ وأمه أم ولد وقتل أبو بكر بن علىّ وأمه ليلى بنت مسعود الدارمية وقتل علىّ بن الحسين بن علىّ وأمه ليلى ابنة أبى مرة بن عروة الشقفى وقتل عبد الله بن الحسين بن علىّ وأمه الرباب ابنة امرىء القيس الكلبى وقتل أبو بكر ابن أخيه الحسن وقتل القاسم بن الحسن وقتل عون ابن أبى جعفر بن أبى طالب وقتل محمد بن عبد الله بن جعفر وقتل جعفر بن عقيل ابن أبى طالب وقتل عبد الرحمن بن عقيل وقتل عبد الله بن عقيل وقتل مسلم بن عقيل بالكوفة كما تقدم القول وقتل عبد الله بن مسلم بن عقيل وقتل محمد بن أبى سعيد بن عقيل، وفى هذه السنة أى سنة ستين دعا ابن الزبير إلى نفسه بالخلافة بمكة وعاب يزيد بشرب الخمر واللعب بالكلاب والتهاون بالدين وأظهر ثلبه وتنقصه فبايعه أهل تهامة والحجاز، فلما بلغ يزيد ذلك ندب له الحصين بن نمير السكونى وروح ابن زنباع الجذامى، وضم إلى كل واحد جيشاً واستعمل على الجميع مسلم بن عقبة المزى وجعله أمير الأمراء ولما ودعهم. قال: يا مسلم لاتردّون أهل الشام من شىء يريدونه بعدوهم وأجعل الطريق على المدينة فإن حاربوك فحاربهم فإن ظفرت بهم فأبحها ثلاثاً فسار مسلم بن عقبة حتى نزل الحرّة فخرج أهل المدينة وعسكروا بها وأميرهم عبد الله بن حنظلة وهو غسيل الملائكة فدعاهم مسلمة ثلاثاً فلم يجيبوه فقاتلهم فغلب أهل الشام وقتلوا أمير المدينة عبد الله بن حنظلة وسبعمائة من المهاجرين والأنصار ودخل مسلم المدينة وأباحها ثلاثة أيام ثم شخص بالجيش إلى مكة وكتب إلى يزيد بما صنع بالمدينة فلما بلغ مسلم (هرشى) اعتل ومات فتولى أمرة الجيش الحصين بن نمير السكونى فسار حتى وافى مكة فتحصن منه ابن الزبير فى المسجد الحرام بجميع من كان معه فنصب الحصين المنجنيق على أبى قبيس ورمى به الكعبة فبينما هم كذلك إذ ورد الخبر للحصين بموت يزيد بن معاوية، فأرسل إلى ابن الزبير يسأله الموادعة فأجابه إلى ذلك وفتح الأبواب. واختلط العسكران يطوفان بالبيت فبينما الحصين يطوف ليلة بعد العشاء إذ استقبله ابن الزبير فأخذ الحصين

بيده. وقال له سرّا: هل لك فى الخروج معى إلى الشام فأدعو الناس إلى بيعتك فإن أمرهم قد فرج ولا أدرى أحداً أحق بها اليوم منك ولست أعصى هناك فاجتذب ابن الزبير يده وقال وهو يجهر بقوله دون أن أقتل بكل واحد من أهل الحجاز عشرة من أهل الشام فقال الحصين: لقد كذب الذى يزعم أنك من دهاة العرب أكلمك سراً فتكلمنى علانية وأدعوك إلى الخلافة وتدعونى إلى الحرب ثم انصرف بمن معه إلى الشام.

ومات يزيد بن معاوية فى ربيع الأول سنة أربع وستين أى سنة ثلاث وثمانين وستمائة للميلاد ودفن بمقبرة باب الصغير، وكانت ولايته ثلاث سنين وستة أشهر وقيل: وثمانية أشهر، وترك من البنين أحد عشر ذكراً لأمهات شتى، ومما يحكى عن نجابته وشدة حذقه ما قاله محمد بن عبيد الله بن عمرو العتبى قال: نظر معاوية ومعه امرأته ابنة قرظة إلى يزيد وأمه ترجله فلما فرغت منه قبلته فقالت ابنة قرظة لعن الله سواد ساقى أمك، فقال معاوية: أما والله لما تفرجت عنه وركاها خير مما تفرّجت عنه وركاك، وكان لمعاوية من ابنة قرظة عبد الله وكان أحمق فقالت له لا والله ولكنك تؤثر هذا، فقال: سوف أبين لك ذلك فأمر فدعى له عبد الله فلما حضر قال: أى بنىّ إنى أردت أن أعطيك ما أنت أهله ولست بسائل شيئاً إلا أجبتك إليه فقال: حاجتى أن تشترى كلبا فارهاً وحماراً، فقال: أى بنىّ أنت حمار وأشترى لك حمار قم فأخرج، ثم أحضر يزيد وقال له مثل قوله لأخيه فخر ساجداً، ثم قال: حين رفع رأسه الحمد لله الذى بلغ أمير المؤمنين هذه المدة وأراه فى هذا الرأى حاجتى أن تعتقنى من النار لأن من ولى أمر الأمة ثلاثة أيام أعتقه الله من النار فتعقد لى العهد بعدك وتولينى العام الصائفة وتأذن لى فى الحج إذا رجعت وتولينى الموسم وتزيد لأهل الشام كل رجل عشرة دنانير وتفرض لأيتام بن جميح وبنى سهم وبنى عدى لأنهم حلفائى، فقال معاوية: قد فعلت وقبل وجهه، ثم نظر إلى امرأته ابنة قرظة وقال كيف رأيتى، فقالت: أوصه به ياأمير المؤمنين قيل ففعل، وله لطائف أخرى واستعمل فى أيامه على مصر فى أواخر سنة اثنتين وستين سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدى فبقى إلى خلافة الزبير وعزل.

ومات فى أيامه أغاثو بطرك الإسكندرية تاسع ثلاثيهم بعد أن أقام سبع عشرة سنة ولم يحدث فى أيامه شىء يذكر فأقيم بعده يوحنا وهو الأربعون من بطاركتهم وأصله من مدينة سمنود وفى أيامه صارت الشدة على النصارى وعظم عليهم الخطب

واشتد الكرب وكثـر البلاء وتتبعهم أهل الفساد بالقـتل والنهب والسلب فكان حازماً وقوراً صبوراً لا يتزعزع، حسن السياسة كثير التفكر ولما مات يزيد تولى الخلافة بعده ابنة معاوية.

(الفصل الثالث)

(فى خلافة معاوية بن يزيد بن معاويـــة بـــن أبـــى سفيان)

ثم قام بالأمـر بعد يزيد مـعاوية ابنه بويع له بالخـلافة يوم موت أبـيه سنة أربع وستين هجرية أى نحو ثلاث وثمانين وستمائة ميلادية فأقام فيها أربعين يوماً، وكان خيراً من أبيه فيه دين وعقل، وقيل: أقام خمسة أشهر وأياماً ثم خلع نفسه عن رضا ورغبـة، قال أصحـاب التاريخ: إن معاوية بن يزيد هذا لما خلع نفسـه صعد المنبر فجلس طويلاً ثم حمد الله وأثنى عليه بأبلـغ ما يكون من الحمد والثناء ثم ذكر النبىّ بأحسن ما يذكر به ثم قال: أيها النـاس مـا أنـا بالراغب فى الائتـمار عليكم لعظيم ما أكرهه منكم وإنى لأعلم أنكم تكرهوننا أيضاً لإنا بلينا بكم وبليتم بنا إلا أن جدى معاوية ﷺ قد نازع فى هذا الأمر من كان أولى به منه ومن غيره لقرابته من رسول الله ﷺ وعظم فضله وسابقته أعظم المهاجرين قـدراً وأشجعهم قلباً وأكثرهم علماً وأولهم إيماناً وأشـرفهم منزلة وأقـدمهم صحـبة ابن عم رسول الله ﷺ وصـهره وأخوه زوّجـه ﷺ ابنته فاطمـة وجعله لها بعـلاً باختيـاره لها وجعلهـا له زوّجة باختيـارها له أبو سبطيه وسيـدى شباب أهل الجنة وأفضل هذه الأمـة تربية الرسول وابنى فاطمة البتول مـن الشجرة الطيبة الطاهرة الزكية فركب جـدى معه ما تعلمون وركبـتم معـه ما لا تجهلـون حتى انتظمت لجدى الأمـور فلما جـاءه القدر المحـتوم واخترمـته أيد المنون بقى مرتهنا بعمله فريداً فى قـبره ووجـد مـا قدمـت يداه ورأى ما ارتكبه واعتـداه ثم انتقلت الخلافة إلى يزيد أبى فتقلد أمركم لهـوى كان أبوه فيه ولقد كان أبى يزيد بسوء فعله وإسرافه على نفسه غير خليق بالخلافة على أمة محمد فركب هواه واستحسن خطاه وأقدم على ما أقدم من جراءته على الله وبغيه على من استـحل حرمـته من أولاد رسول الله ﷺ فـقلّت مدته وانقطع أثره وراجـع عمله وصارحليف حـفرته رهين خطيئـته وبقيت أوزاره ومـعايبه وحـصل على سدم وندم

حيث لا ينفعه الندم وشغلنا الحزن له عن الحزن عليه فليت شعرى ماذا قال: وماذا قيل له: هل عوقب بإساءته؟ وجوزى بعمله وذلك ظنى، ثم اختنقته العبرة فبكى طويلاً وعلا نحيبه، ثم قال: وصرت أنا ثالث القوم والساخط علىّ أكثر من الراضى وما كنت لا تحمل آثامكم ولا يرانى الله جلّت قدرته متقلداً أوزاركم وألقاه بتبعاتكم فشأنكم أمركم فخذوه ومن رضيتم به عليكم فولوه فلقد خلعت بيعتى من أعناقكم والسلام، فقال له مروان بن الحكم: وكان تحت المنبر أسنة عمرية ياأبا ليلى، فقال أعزب عنى أعن دينى تخدعنى فوالله ما ذقت حلاوة خلافتكم حتى أتجرع مرارتها ايتنى برجل مثل رجال عمر ﷺ على أنه ما كان من حين جعلها شورى وصرف بها عمن لا يشك فى عدالته ظلوماً والله لئن كانت الخلافة مغنما لقد نال أبى منها مغرما ومأثماً ولئن كانت سوءًا فحسبه منا ما أصابه، ثم نزل فدخل عليه أقاربه وأمه فوجدوه يبكى فقالت له أمه: ليتك كنت حيضة ولم أسمع بخبرك، فقال: وددت والله ذلك، ثم قال: ويلى إن لم يرحمنى الله، ثم إن بنى أمية قالوا لمؤدّبه عمر المقصوص أنت علمته هذا ولقنته إياه وصرفته عن الخلافة وزينت له حب علىّ وأولاده وحملته على ما وسمنا به من الظلم وحسنت له البدع حتى نطق بما نطق. وقال بما قال، فقال: والله ما فعلته ولكنه مجبول ومطبوع على حب علىّ فلم يقبلوا منه ذلك وأخذوه ودفنوه حياً حتى مات.

وتوفى معاوية بن يزيد بعد خلعه نفسه بأربعين ليلة وقيل: بتسعين وكان عمره ثلاثاً وعشرين سنة، وقيل: إحدى وعشرين سنة، وقيل: ثمان عشرة ولم يعقب واجتمع بنو أمية وانتخبوا مروان بن الحكم ليقوم بالأمر بعده وكان ذلك فى سنة أربع وستين للهجرة.

(الفصل الرابع)

(فى خلافة مروان بن الحكم المعروف بالطريد)

ثم قام بالأمر بعد معاوية مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بويع له بالخلافة بالجاسية سنة أربع وستين للهجرة أى سنة ثلاث وثمانين وستمائة للميلاد ثم دخل الشام فأذعن أهلها له بالطاعة. وكان يقال له بن الطريد لأن صاحب الشريعة كان قد طرد أباه إلى الطائف وردّه عثمان حين ولى وكان مروان قد لحق صاحب الشريعة وهو صبى وولى نيابة المدينة مرات، وهو

قاتل طلحة أحد العشرة، وكان كاتب السر لعثمان وبسببه جرى عليه ماجرى كما تقدم الكلام عنه، ولما بويع لمروان بالشام قام أهل مكة بمبايعة عبدالله بن الزبير وكان مروان وقتئذ بالمدينة فقصد السير إلى عبد الله وممانعته ثم سار مع من سار من بنى أمية إلى الشام، وبايع لابن الزبير أهل البصرة واجتمعت له أهل الحجاز واليمن وبعث إلى بلاد العراق فبايعه أهلها وبايع له فى الشام سرا الضحاك بن قيس وبحمص النعمان بن بشير الأنصارى وبقير بن زمر بن الحارث. قال بعض أهل التاريخ: ولو صانع الزبير بنى أمية قليلاً لاستقر له الأمر، وكان ابن الزبير شجاعاً كثير العبادة هذا ما كان من أمر ابن الزبير، أما ما كان من أمر بنى أمية فإنهم لم يقبلوا به وكان مروان كما تقدم القول بالشام فاجتمع بنو أمية وافترق أهل الشام إلى يمانية مع مروان وإلى قيسية مع الضحاك بن قيس وجرت بينهما أمور يطول شرحها ثم اقتتلوا بمرج راهط قتالاً شديداً فانهزم الضحاك وأصحابه شر هزيمة وقتل كثيرمن فرسان قيس، وقتل الضحاك وقتل معه أيضاً ثمانون رجلاً من أشراف أهل الشام وذلك فى المحرم سنة خمس وستين وقيل: فى أواخر سنة أربع وستين، ودخل مروان دمشق وذهب إلى دار الخلافة واجتمع إليه الناس وانحاز له زفر بن الحرث وكان بقنسرين يبايع لابن الزبير واستوثق الشام لمروان، والحجاز والعراق واليمن لابن الزبير فلما استقر مروان بالشام ودانت له أمورها سار إلى مصر فقدمها وعليها عبد الرحمن بن جحدم القرشى يدعو إلى ابن الزبير فخرج إلى مروان فيمن معه فبعث مروان عمرو بن سعيد من وراء عبد الرحمن حتى دخل مصر فأمسى عبد الرحمن وكأنه بين منتطح عنزين فلما أحس بذلك رجع خائباً فبايع الناس مروان ودانت له الأمور بمصر أيضاً كما دانت له بالشام.

وفى هذه الأيام هدم ابن الزبير الكعبة وحفر أساسها وأدخل الحجر الأسود فيها وأعادها إلى ماكانت عليه، فأمر مروان قومه بأن لا يحجوا إلى هناك بل إلى جامع عمر بالقدس وانقسم عرب الشام مع مروان وبنى فاطمة فقام مروان ومزق الفاطميين وأبادهم وتفرغ لحرب الشيعة من العجم فبددهم أيضاً من سهول عين وما زال حتى استتب له الأمر ودانت له المصاعب، فلما كانت سنة خمس وستين هجرية رسم بالبيعة لابنيه عبد الملك وعبد العزيز، وكان السبب فى ذلك أن عمرو بن سعيد بن العاص لما هزم مصعب بن الزبير عندما وجهه أخوه عبد الله إلى الشام لقتال معاوية ومن معه من الأحزاب ورجع عمرو إلى دمشق ظافراً غانماً بلغ مروان أن عمرا يقول أن الأمر لى من بعد مروان فأكبر ذلك جدا وأرسل فى طلب حسان بن مالك بن

بحدل فلما حضر إليه أخبره بخبر عمرو وما يقوله، وقال: إنى أريد أن أبايع ولدى عبد الملك وعبد العزيز، فقال له حسان: أنا أكفيك عمرا فلما اجتمع الناس عند مروان عشيا قال: أنه قد بلغنا أن رجالا يتمنون أمانىّ، قوموا فبايعوا لعبد الملك وعبد العزيز من بعده فقاموا جميعاً لساعتهم وبايعوا عن آخرهم وكان مروان قبلا قد حلف أنه يعهد لخالد بن يزيد فعتب عليه خالد فغضب وسماه ابن زانية، وكان مروان متزوّجا بأم خالد بن يزيد المذكور فقام خالد ودخل على أمه فأخبرها بما كان من مروان فقالت له: لا يعلمن ذلك منك إلا أنا أنا أكفيكه فدخل عليها مروان فقال لها هل قال لك خالد فىّ شيئاً؟ فقالت: لا إنه أشد لك تعظيما من أن يقول فيك شيئاً فصدقها ولبث أياما، ثم إنه نام عندها ليلة فقامت عليه ووضعت على وجهه رداء مشرباً بالسم وفوق الرداء وسادة ثم جلست فوقها حتى مات فكانت خلافته عشرة أشهر، وقيل: تسعة أشهر وعمره ثلاثة وستون سنة، وقيل: إحدى وستون سنة، روى الحاكم فى كتاب الفتن والملاحم من المستدرك عن عبد الرحمن بن عوف قال: كان لا يولد لأحد مولود إلا أتى به رسول الله ﷺ فيدعو له فأدخل عليه مروان بن الحكم فقال: هو الوزغ ابن الوزغ الملعون ابن الملعون . اهـ.

وكان مروان قصيراً أحمر أوقص يكنى أبا الحكم وأبا عبد الملك، قيل: وأعتق فى يوم واحد مائة رقبة وهو أوّل من قدّم الخطبة فى صلاة العيد قبل الصلاة ولما مات بويع لولده عبد الملك فى اليوم الذى مات فيه.

(الفصل الخامس)

(فى خلافة عبد الملك بن مروان)

ثم قام بالأمر بعد مروان ابنه عبد الملك بويع له بالخلافة يوم موت أبيه سنة ست وستين للهجرة أى سنة خمس وثمانين وستمائة للميلاد وهو أوّل من سمى بعبد الملك فى الإسلام وأوّل من ضرب الدراهم والدنانير بسكة الإسلام، وكان على الدنانير قبل ذلك نقش بالرومية وعلى الدراهم نقش بالفارسية، قيل: أنه لما أتته الخلافة كان قاعداً والمصحف فى حجره فأطبقه وقال هذا آخر العهد بك، وكان عامله بمصر أخوه عبد العزيز بطاعة عبد الملك ولم يكد يستتب له الأمر بالشام ومصرحتى خرج فى سنة ست وستين المختار من العلوية بالكوفة وأراد الأخذ بثأر الحسين فبايعه الناس واجتمع إليه خلق كثير واستولى على الكوفة وأراد الأخذ بدم

أهل البيت وطلب شمر بن ذى الجوشن فظفر به وقتله وأحاط بدار خولى الأصبحى صاحب رأس الحسين وقتله وأحرقه بالنار، ثم قتل عمرو بن سعد بن أبى وقاص صاحب الجيش الذى قتل الحسين وقتل جعفر بن عمرو المذكور وبعث برأسيهما إلى محمد بن الحنفية بالحجاز واتخذ له كرسيا وادّعى أن فيه من السر ماكان فى تابوت عهد بنى إسرائيل ومن خبر هذا الكرسى ما هو غريب، قال الطفيل بن جعدة بن هبيرة: أضقنا إضاقة شديدة، يعنى أنه كان فى حاجة للقوت، فخرجت يوماً فإذا جار لى زيات عنده كرسى ركبه الوسخ فقلت فى نفسى لو قلت للمختار فى هذا شيئاً فأخذته من الزيات وغسلته فخرج عود نضار قد شرب الدهن وهو يبض، قال الراوى: فقلت للمختار إنى كنت أكتمك شيئاً وقد بدا لى أن أذكره لك، إن أبى جعدة كان يجلس على كرسى عندنا ويروى أن فيه أثراً من علىّ قال: سبحان الله أخرته إلى هذا الوقت ابعث به فأحضرته عنده وقد غشى فأمر لى باثنى عشر ألفا ثم دعا الصلاة جامعة فاجتمع الناس، فقال المختار: إنه لم يكن فى الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن فى هذه الأمة مثله وأنه كان فى بنى إسرائيل التابوت وأن هذا فينا مثل التابوت فكشفوا عنه وقامت السبئية فكبروا ثم لم يلبثوا أن أرسل المختار الجند لقتال ابن زياد وخرج بالكرسى على بغل وقد غشى فقتل أهل الشام مقتلة عظيمة فزادهم ذلك فتنة وكبر اعتقادهم فى ذلك الكرسىّ وارتفعوا حتى تعاطوا الكفر. قال ابن جعدة: فندمت على ما صنعت . اهـ.

ثم أرسل المختار عسكرا لقتال عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان وكان عبيد الله والياً على البصرة فولاه يزيد على الكوفة فقدم عليها ليرى ما كان الناس عليه وهو الذى قتل مسلم بن عقيل بن أبى طالب الذى كان الحسين قد أرسله إلى الكوفة ليأخذ له البيعة كما تقدّم بيان هذا كله فى محله وكان المختار قد استولى على الموصل لما أرسل لقتال عبيد الله وقدّم على الجيش إبراهيم بن الأشتر فاقتتلوا قتالاً شديداً وانهزم أصحاب ابن زياد وقتل وكان القاتل له إبراهيم المذكور وأخذ رأسه ثم أحرقوا جثته بالنار ورميت بالتراب.

وولى ابن الزبير أخاه مصعبا على البصرة فاستدعى مصعب المهلب بن أبى صفرة من خراسان فأتاه بمال ورجال كثيرة وسارا إلى قتال المختار وحصراه فى قصر الإمارة بالكوفة. وما زالا يقاتلانه حتى قتل المختار وأصحابه وكانوا سبعة آلاف، وكان عبد الملك بن مروان يراقب الفرص ويتحين انتفاعها فلما علم بظفر مصعب وقتله للمختار خشى استفحال أمر مصعب واتساع كلمته فتجهز وسار فى جيش

عظيم إلى العراق فالتقى الجمعان واقتتلا وكان أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك سراً فتخلفوا عن مصعب، وقتل مصعب وأبنه بدير الجاثليق عند نهر دجيل وله من العمر ست وثلاثون سنة وكان مصعب هذا صديق عبد الملك قبل خلافته فدخل عبد الملك الكوفة وبايعه الناس واستوثق ملك العراق واستناب عليها أخاه بشر بن مروان وكر راجعاً إلى دمشق ثم جهز الحجاج بن يوسف الثقفى فى جيش لحرب ابن الزبير وكان السبب فى تسيير الحجاج المذكور دون غيره أن الحجاج قال لعبد الملك: قد رأيت فى المنام أنى أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فابعثنى إليه وولنى قتاله فبعثه فى ثلاثة آلاف من أهل الشام وكتب معه أماناً لابن الزبير ومن معه إن أطاعوا فسار فى جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين ولم يتعرض للمدينة ونزل الطائف فكان يبعث الخيل إلى عرفة ويبعث ابن الزبير أيضاً فيقتتلون بعرفة فتنهزم خيل ابن الزبير فى كل ذلك وتعود خيل الحجاج بالظفر، ثم كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه فى دخول الحرم وحصر ابن الزبير ويخبره بضعفه وتفرّق أصحابه ويستمدّه فكتب عبد الملك إلى طارق يأمره باللحاق بالحجاج فقدم المدينة فى ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين وأخرج عامر بن الزبير عنها وجعل عليها رجلاً من أهل الشام اسمه ثعلبة فكان ثعلبة يخرج المخ وهو على منبر صاحب الشريعة ثم يأكله ويأكل عليه التمر ليغيظ أهل المدينة، وكان مع ذلك شديدا على أهل الزبير، وقدم طارق على الحجاج بمكة فى سلخ ذى الحجة فى خمسة آلاف فحاصر الحجاج ومن معه ابن الزبير ونصب المنجنيق على أبى قبيس وهو جبل هناك ورمى به الكعبة وحج ابن عمر تلك السنة فأرسل إلى الحجاج يقول اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فإنك فى شهر حرام وبلد حرام وقد منعت الناس عن الطواف فبطل الرمى حتى عاد الناس من عرفات وطافوا وسعوا فنادى منادى الحجاج انصرفوا إلى بلادكم فإنا نعود بالحجارة على ابن الزبير الملحد فكانت الحجارة تقع بين يدى ابن الزبير وهو يصلى فلا ينصرف وكان أهل الشام يقولون عند الرمى بالمنجنيق هذه العبارة.

«يابن الزبير طالما عصيكا * وطالما عنيتنا اليكا * لتجزين بالذى أتيكا»

يعنون عصيت وأتيت، وطال القتال بين الفريقين واشتد الشاميون أصحاب الحجاج على ابن الزبير وأصحابه فغلت الأسعار عنده وأصاب الناس مجاعة شديدة حتى ذبح فرسه وقسم لحمها فى أصحابه وبيعت الدجاجة بعشرة دراهم والمدّ الذرة بعشرين درهما، وكانت بيوت ابن الزبير مملوءة قمحاً وشعيراً وذرة وتمرا، وكان أهل الشام ينتظرون فناء ما عنده وكان يحفظ ذلك ولا ينفق منه إلا بما يمسك الرمق

ويقول نفوس أصحابى قوية ما لم يفن، فلما كان قبيل مقتله تفرّق الناس عنه وخرجوا إلى الحجاج بالأمان فكانوا نحو عشرة آلاف فلما تفرّق أصحابه عنه خطب الحجاج الناس وقال: قد ترون قلة من مع ابن الزبير وما هم عليه من الجهد والضيق. ففرح أصحاب الحجاج واستبشروا وتقدّموا فملؤا ما بين الحجون إلى الإبواء فهال ابن الزبير الأمر ودخل على أمه فقال يا أماه قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا فما رأيك فقالت أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له، فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قاتل معك وإن قتلت كنت على حق، فلما وهن أصحابك ضعفت فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين كم خلودك فى الدنيا القتل أحسن، فقال: ياأماه أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى، قالت: يابنى إن الشاة لا تتألم بالسلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبل رأسها وخرج يقاتل الحجاج وطارقاً وأصحابهما فكانت مدّة القتال أربعة أشهر وقيل: سبعة، وبينما هو يحمل عليهم سقطت عليه شرافة من شراريف المسجد فخرّ منها فبادروا إليه واحتزوا رأسه وذلك يوم الثلاثاء من جمادى الآخرة من السنة المذكورة وله ثلاث وسبعون سنة، وسير الحجاج رجلين إلى عبد الملك بالخبر فلما شاع الخبر بين أهل الشام كبروا وفرحوا بقتله وأمر الحجاج بجثته فصلبوها على الثنية اليمنى بالحجون، قيل: وكان ابن الزبير قبل موته بقى أياماً يستعمل الصبر والمسك لئلا ينتن فلما صلب ظهرت منه رائحة المسك فقيل: إن الحجاج صلب معه كلباً ميتاً فغلب على ريح المسك، وقيل: بل صلب معه سنورا، قال بعض أصحاب التاريخ: ولما قتل عبد الله ركب أخوه عروة ناقة ليس لها مثيل فسار إلى عبد الملك فقدم الشام قبل وصول رسل الحجاج بخبر قتل عبد الله فأتى باب عبد الملك فاستأذن فأذن له فلما دخل سلم عليه بالخلافة فردّ عليه عبد الملك السلام ورحب به وعانقه وأجلسه على السرير فقال عروة:

متت بأرحام إليك قريبة ولا قرب للأرحام ما لم تقرّب

ثم تحدّثا حتى جرى ذكر عبد الله، فقال عروة: إنه كان، فقال عبد الملك وما فعل قال: قتل فخر ساجداً، فقال عروة: إن الحجاج صلبه فهب جثته لأمه، فقال: نعم، وكتب إلى الحجاج يعظم صلب عبد الله وكان الحجاج لما غاب عروة كتب إلى عبد الملك يقول له أن عروة كان مع أخيه فلما قتل عبد الله أخذ مالا من

مال الله فهرب فكتب إليه عبد الملك أنه لم يهرب ولكنه أتاني مبايعاً وقد أمنته وحللته مما كان وهو قادم عليك فإياك وعروة، وعاد عروة إلى مكة وسلم إلى الحجاج كتاب عبد الملك فأنزل الحجاج جثة عبد الله ودفعها إلى أمه فغسلته ودفنته، وقيل: ألقيت جثته في مقابر اليهود ثم دخل الحجاج مكة فأخذ البيعة من أهلها لعبد الملك بن مروان وأمر بكنس المسجد الحرام من الحجارة والدم وسار إلى المدينة، وكان عبد الملك قد استعمله على مكة والمدينة، فكانت خلافة ابن الزبير بالحجاز واليمن تسع سنين لا غير.

ودانت لعبد الملك الأمور فعلت كلمته وكبرت هيبته وقاتل الخوارج من أصحاب العباسيين وأقام المستشفيات للمرضى والخانات للغرباء بدمشق فامتدّت في عهده وكثرت بعد ذلك في جميع بلاد المسلمين وقد كانت لا تعرف قبله، ولما كانت سنة اثنتين وثمانين هم عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز من ولاية العهد ومبايعة ابنه الوليد. وكان عبد العزيز يومئذ عاملاً على مصر فكلم قبيصة بن ذؤيب في ذلك، وكان قبيصة المذكور صاحب الخاتم فنهاه قبيصة عن ذلك. وقال: لا تفعل فإنك تبعث على نفسك صوت عاد ولعل الموت يأتيه فكف عبد الملك عن أخيه وفي نفسه ما فيها وبينما هو على هذا الحال إذ دخل عليه روح بن زنباع وكان روح هذا أجل الناس عند عبد الملك فكلمه عبد الملك في ذلك، فقال: ياأمير المؤمنين لو خلعته ما انتطح فيه عنزان وأنا أوّل من يجيبك إلى ذلك ففرح عبد الملك. وقال: نصبح إن شاء الله وبات روح عند عبد الملك ليلته تلك فدخل عليهما قبيصة بن ذؤيب وقد جاءه الخبر بموت عبد العزيز فلما دخل سلم عليهما. فقال عبد الملك: ما وراءك ياقبيصة. قال: آجرك الله في عبد العزيز أخيك. قال : هل توفي؟ قال: نعم. فاسترجع ثم أقبل على روح. وقال: كفانا الله ما كنا نريد. فقال قبيصة: ياأمير المؤمنين إن الرأي كله في الأناة. فقال عبد الملك: وربما كان في العجلة خير، وكانت وفاة عبد العزيز في جمادى الأولى في مصر سنة خمس وثمانين فضم عبد الملك عمله إلى ابنه عبد الله وولاه مصر، وكان حين ولي على مصر حدثاً فكان أهل مصر يسمونه تكيس. قاله ابن خلكان. وقيل: أن الحجاج كتب إلى عبد الملك يزين له بيعة الوليد وسير إليه في ذلك وفداً فلما أراد عبد الملك خلع عبد العزيز والبيعة للوليد كتب إلى عبد العزيز يقول: رأيت أن يصير هذا الأمر لابن أخيك فأبى فكتب إليه ليجعل الأمر له ويجعله له أيضاً من بعده، فكتب إليه عبد العزيز إني أرى في ابني أبي بكر ما ترى في الوليد، فكتب إليه عبد الملك ليحمل له خراج

مصر فأجـابه عبد العزيز، إنى وإياك ياأمير المؤمنين قد بلغـنا سنا لم يبلغها أحد من أهل بيـتك إلا كان بقـاؤه قليلاً وإنـا لا ندرى أينا يأتيه الموت أوّلا فـإن رأيت أن لا تفسد علىّ بقية عمرى فافعل فرق له عبد الملك وتركه، وكان عبد الملك قبل الخلافة متعبداً ناسكاً عالماً تقياً واسـع العلم حازماً لا يكل أمره إلى سواه محباً للفخر مقداماً على سـفك الدماء ولذلك كـان عمـاله الحجاج بـالعراق ومحـمد بن يوسـف أخو الحجاج باليمن ومحمد بن مـروان بالجزيرة وكل من هؤلاء ظلوم غشوم جبار، قـال الليث بن سـعـد، وعبـد الله ابن عبد الملك أول من نقل فى عـمالته على مـصر الدواوين إلى العربية وإنما كانت بالقبطية. (قلت): وقد قال بعض أصحاب التاريخ: أنها بقيت بالقبطيـة والعربية معاً زمناً طويلاً حتى زالت القـبطية من جميع الدواوين وبقيت العربية فاشـية إلى يومنا الذى نحن فيه، وهو أول من نهى الناس عن لبـاس البرانس وشدّد فى المنع وأقام إلى سنة تسعين هجرية أى سنة عشر وسبعمائة ميلادية حتى عزله أخوه الوليد.

ومن غريـب ما سمع فـيمـا حكاه ابن خلكان أن علىّ بن عـبد الله بن عـباس ومحمدا ابنه دخلا على عبد الملك بن مروان وعنده قائف فأجلسهما ثم قال للقائف: أتعرف هذا؟ قـال: لا، ولكن أعرف من أمره أن هذا الذى معـه ابنه وأنه يخرج من عقـبة فراعنة يملكون الأرض لا يناويـهم مناو إلا قتلوه فتـغير لون عـبد الملك. ثم قال: زعم راهب إيـليا وكـان قـد رآه عندى أنه يخـرج من صلبـه ثلاثة عشـر ملكاً ووصفهم بصـفاتهم، وذكر أبو حنيفة فى الأخـبار الطوال أن عبد الملك أوصى ابنه الوليد لما ثقـل فى مرضه فـقال: ياوليد لا ألفـينك إذا وضعتنـى فى حفرتى تعـصر عينيك كالأمـة الولهاء بل اتزر وشمر وألبس جلد النمر وادع الناس إلى البـيعة فمن قال برأسه كذا أى لا فقل بالسيف كذا أى اضرب عنقه. اهـ.

وكان عبد الملك طويل العنق رقيق الوجـه مشدود الأسنان بالذهب شديد البخل يلقب برشح الحـجر لبخـله ويلقب أيضاً بأبى ذباب لبـخره. وكـان يلقب بحمـامة المسجد لقبه به ابن عمر، قيل لابن عمر: أرأيت لو تفانى أصحاب صاحب الشريعة فمن نسأل بعدهم. فقال سلوا هذا الفتى يعنى عبد الملك، وحج بالناس عبد الملك فخطب الناس بالمدينة فقـال بعد حمد الله والثناء عليه، أما بعد فـإنى لست بالخليفة المستضعف يعنى عـثمان ولا بالخليفة المداهن يعنى معاويـة ولا بالخليفة المأفون يعنى يزيد ألا وإنى لا أداوى هذه الأمة إلا بالسيف حتى تستقيم لى قناتكم وإنكم تحفظون أعمال المهاجرين الأولين ولا تعملون مثل أعمالهم وأنكم تأمروننا بتقوى الله وتنسون

ذلك من أنفسكم والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه ثم نزل فأكبر الناس أمره، ومات عبد الملك في شوّال سنة ست وثمانين وقيل سنة خمس وثمانين هجرية أى سنة أربع وسبعمائة ميلادية وله ثلاث وستون سنة وقيل ستون سنة وخلف سبعة عشر ولدا ولى الخلافة منهم أربعة وكانت خلافته إحدى وعشرين سنة وخمسة عشر يوماً منها ثمان سنين مزاحماً لابن الزبير ثم انفرد بالملك إلى أن مات وكان عاقلاً حازماً أديبا لبيبا عالما. قال عمران بن موسى المؤدّب: كان يروى أن عبد الملك المذكور لما اشتد مرضه. قال: ارفعوني على شرف ففعلوا ذلك فتنسم الروح ثم قال: يادنيا ما أطيبك إن طويلك لقصير وإن كبيرك لحقير وإن كنا منك لفي غرور وتمثل بهذين البيتين:

إن تناقش يكن نقاشك يارب عذاباً لا طوق لي بالعذاب
أو تجاوز فأنت رب صفوح عن مسيء ذنوبه كالتراب

ويروى أن هذه الأبيات تمثل بها معاوية.

وفي أيامه مات يوحنا بطرك الإسكندرية فكانت مدته ثمان سنين وفي أيامه صارت الشدّة على النصارى وكبر عليهم الأمر وعظم الخطب. وكانت أيام هذه الشدائد طويلة فأقيم بعده إيساك وهو إسحق وكان متأصلاً وهو حادى أربعيهم وأصله من إقليم الغربية فأقام سنتين وأحد عشر شهراً. وفي رواية سنتين فقط ومات وكان تقياً وهو الذى أعاد الصلح بين ملك الحبشة وملك النوبة وعمل على إعزاز الدين وجمع المتشردين من المسيحيين، فأقيم بعده سيمون وهو سمعان وكان متأصلاً من إقليم الشرقية ويلقب بالسرياني وهو ثاني أربعيهم فأقام بطركا سبع سنين وقيل سبع سنين وستة أشهر ومات وفي أيامه قدم رسول أهل الهند في طلب أسقف يقيمه لهم فامتنع من ذلك حتى أذن له الخليفة ففعل وكان ورعاً تقياً جداً صالحاً متعبداً ذكر أنه دعا الله سبحانه وتضرع إليه. فأحيا على يديه قسيسا كان ميتاً وخلا الكرسي بعده ثلاث سنين بغير بطرك، ثم قدّم المتأصلون بعده الأكسندروس من أهالي نباموسير وهو ثالث أربعيهم وكان راهباً في دير الزجاج مرت به متاعب وشدائد عظيمة للغاية وقد صودر فيها مرتين أخذ منه فيهما ستة آلاف دينار نقرة فكانت أوّل جزية أخذت من الرهبان خلافاً للعهد، قال أصحاب التاريخ: واشتد عبد الله بن عبد الملك بن مروان على القبط بمصر وضيق عليهم واقتدى به قرة بن شريك أيضاً في ولايته على مصر فقتلا وأحرقا وخربا وأراقا الدماء بجوار وأنزلا بالنصارى شدائد لم يبتلوا بمثلها فكانت أيامهما كلها بلايا وإحنا ورزايا ومحنا.

ولما مات عبد الملك بن مروان تولى الخلافة بعده ولده الوليد.

(الفصل السادس)

(فى خلافة الوليد بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعد عبد الملك ابنه الوليد بعهد منه بويع له بالخلافة يوم مات والده فى شوّال سنة ست وثمانين للهجرة أى سنة خمس وسبعمائة للميلاد ولم يدخل دار الخلافة حتى صعد المنبر فقال: الحمد لله إنالله وإنا إليه راجعون والله المستعان على مصيبتنا بأمير المؤمنين والحمد لله على ما أنعم به علينا من الخلافة قوموا فبايعوا فكان أول من عزى نفسه وهناها وقيل أنه لما صعد المنبر حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس لا مقدّم لما أخر الله ولا مؤخر لما قدّم وهذا كان من قضاء الله وسابق علمه وما كتب على أنبيائه وحملة عرشه، وهو الموت وقد صار إلى منازل الأبرار ولى هذه الأمة بالذى يحق لله عليه فى الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل وإقامة ما أقام الله من منار الإسلام وأعلامه من حج البيت وغزو الثغور وشن الغارة على أعداء الله فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً، أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فإن الشيطان مع الفرد أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ومن سكت مات بدائه، ثم نزل وجعل يتصرف فى الأمور وفتح الفتوحات العظام مثل الهند والأندلس واتسع ملكه فى الأندلس وإفريقية اتساعاً عظيماً بما منحه لأهلها من الحرية والمساواة حتى ضعفت النصرانية فيها وانحسمت أو كادت تنحسم منها وانمحت آثارها من إفريقية كلها وصار نصارى أسبانيا يختتنون ويمتنعون من شرب الخمر وأكل الخنزير ونحو ذلك من المحرمات الإسلامية حتى كان يقال لهم ميزارابى ومعناها (أنصاف عرب) وحارب الروم وغزاهم عدة غزوات وامتد حكمه فى مسافة مائة يوم من المشرق إلى المغرب من التتارية الهندية إلى الأقيانوس وقد وصلت فتوحات العرب يومئذ إلى العجم والشام وإفريقية وسردينيا وأسبانيا ونحوها وامتدوا إلى نواحى الصين وكان أهل سروقة وقرطبة وغيرهما يتكلمون بالعربية وهى فاشية بينهم.

ورسم الوليد بالإقلاع عن استعمال اليونانية وأرقامها فى الحساب فامتدت لذلك الأرقام الهندية التى تلقتها العرب عن الهنود وراجت بذلك الأمور الحسابية واتسع نطاق الرياضة ونحوها. وكان الوليد يركب المركوب الحسن الجيد ويتقى الركوب

والسفر فى الحرب فى أيام معلومة فى كل شهر وينهى عن ذلك. قال الحافظ ابن عساكر وكان الوليد عند أهل الشام من أفضل خلفائهم بنى مساجد بدمشق وأعطى الناس وفرض للمجذومين. وقال: لا تسألوا الناس وأعطى كل مقعد خادماً وكل أعمى قائداً. وكان يبر حملة الكتاب ويقضى عنهم ديونهم وبنى الجامع الأموى وهدم كنيسة مارى يوحنا وزادها فى الجامع المذكور وذلك سنة ست وثمانين فى ذى القعدة وذكر أنه كان فى الجامع وهو يبنى اثنا عشر ألف مرخم وتوفى الوليد ولم يتمه فأتمه سليمان أخوه فكان جملة ما أنفق على بنائه أربعمائة صندوق فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار. وكان فيه ستمائة سلسلة ذهبا للقناديل. وما زالت إلى أيام عمر بن عبد العزيز فجعلها فى بيت المال واتخذ عوضها صفرا وحديداً وبنى قبة الصخرة ببيت المقدس وبنى المسجد النبوى ووسعه حتى دخلت حجرة صاحب الشريعة فيه قيل وله آثار حسنة كثيرة جداً، قلت: وقوله أن الوليد بنى قبة الصخرة فيه نظر وإنما بنى قبة الصخرة عبد الملك بن مروان فى أيام فتنة ابن الزبير لما منع عبد الملك أهل الشام من الحج خوفاً من أن يأخذ منهم ابن الزبير البيعة له فكان الناس يقفون يوم عرفة بقبة الصخرة إلى أن قتل ابن الزبير وكان الوليد أراد أن يخلع أخاه سليمان ويبايع لولده عبد العزيز فأبى سليمان فكتب إلى عماله ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه إلا الحجاج وقتيبة وخواص من الناس فكتب الوليد إلى سليمان يأمره بالقدوم عليه فأبطأ فعزم الوليد على المسير إليه ليخلعه وأخرج خيمه ففاجأته المنية قبل أن يسير إليه. وكان موته فى خامس عشر جمادى الآخرة سنة ست وتسعين للهجرة أى سنة أربع عشرة وسبعمائة للميلاد عن ست وأربعين سنة وقيل ثمان وأربعين وقيل خمسين سنة وترك أربعة عشر ولداً وحمل على أعناق الرجال ودفن فى مقابر باب الصغير وتولى دفنه عمر بن عبد العزيز فكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر وقيل عشر سنين وروى أن عمر بن عبد العزيز قال: لما لحدت الوليد ارتكض فى أكفانه وغلت يداه إلى عنقه نسأل الله العافية.

واستعمل على مصر فى خلافته بعد عزله لأخيه عبد الله كما تقدم قرة بن شريك العبسى فقدمها يوم الاثنين ثالث عشر ربيع الأول فقال فى ذلك أحد الشعراء:

عجب ما عجبت حين أتانا   أن قد أمرت قرة بن شريك
وعزلت الفتى المبارك عنا   ثم ضللت فيه رأي أبيك

وكان قرة ظلوماً غشوماً عسوفا قيل كان يدعو بالخمر والملاهى فى جامع مصر، أخرج أبو نعيم فى الحلية. قال: قال عمر بن عبد العزيز الوليد بالشام والحجاج بالعراق وقرة بمصر وعثمان بن حيان بالحجاز امتلأت والله الأرض جورا. وقال ابن عبد الحكم أنبأنا سعد بن عفير أن عمال الوليد بن عبد الملك كتبوا إليه أن بيوت الأموال قد ضاقت من مال الخمس فكتب إليهم أن ابنوا المساجد فأول مسجد بنى بفسطاط مصر المسجد الذى فى أصل حصن الروم عند باب الريحان قبالة الموضع الذى يعرف بالقالوس يعرف بمسجد العيلة، وأقام قرة والياً بمصر إلى أن مات سنة ست وتسعين فولى بعده عبد الملك بن رفاعة القينى فأقام إلى سنة تسع وتسعين فى خلافة سليمان بن عبد الملك ومات ولما مات الوليد خلفه أخوه سليمان بن عبد الملك.

(الفصل السابع)

(فى خلافة سليمان بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعد الوليد أخوه سليمان وذلك لأن أباهما عقد لهما جميعاً بالأمر من بعده فبويع له بالخلافة يوم موت أخيه الوليد فى خامس عشر جمادى الآخرة سنة ست وتسعين هجرية أى سنة أربع عشرة وسبعمائة ميلادية وكان سليمان بالرملة فلما جاءته الخلافة عزم على الإقامة بها ثم توجه إلى دمشق وكمل عمارة الجامع الأموى وجهز أخاه مسلمة بن عبد الملك فى سنة سبع وتسعين إلى غزو الروم فانتهى إلى القسطنطينية فنازلها على عهد انسطاسيوس قيصر. وكان عدد أصحاب مسلمة مائة وعشرين ألفا من العرب والعجم وحارب فى طريقه طيان وعمورية وفرغانة من آسية الصغرى ودخل بوغاز كليبولى وتجاوز البحر من المكان المدعو ممر العرب ودخل أوروبا وقطع على سواحل بحر مرمرة إلى أن قابل القسطنطينية من الجنوب وأقام مضارب جنوده وأعلن الحرب على الروم وألقى على المدينة الحصار وكان انسطاسيوس قيصر قد علم قيام العرب عليه فاستعدّ لقتالهم وأمر الروم بالتأهب لحصار ثلاث سنين وأن يترك الذين لا قدرة لهم بالقسطنطينية وملأ الساحات والأهراء بالذخائر وأصلح الأسوار وحصنها وجعل عليها المنجنيقات والدوافر لرشق النار الرومية والسهام والأحجار ونحوها ثم لم يلبثوا أن بعثوا بقوم ليحرقوا عمارة العرب ويناوشوا العدو قبل أن يناوشهم هو فلم يفلحوا إذ افتتنوا

وقتلوا رئيسهم وتركوا راياتهم فى رودس وتفرّقوا فى تلك الأطراف أشتاتاً إلى أن قام الملك ثودوسيوس ولم يكن أهلاً لهذا المنصب إذ كان من آحاد الحرّاس على بيت المال وكان ساذجاً غير مدرّب فعفا عن أولئك القوم ولم يؤاخذهم بما فعلوه فلم يستقر به المنصب إلا شهرا وخلع وقام بعده ليون اسوريكوس وكان مهيباً مقداماً عريقًا بالملك فلما قدمت عساكر مسلمة ونظرهم الروم بالقسطنطينية داخلهم الخوف واستولى عليهم الجبن فعرضوا على المسلمين الصلح بأن يؤدّوا لهم الجزية فى كل سنة عن كل نفس دينارا فلم يقبل مسلمة وداخله الطمع وتقوّى حيث قدمت عليه عمارته البحرية من الشام وكانت قد مرت بعمارة المصريين التى كانت يومئذ على ثغور بلاد الفرنسيس وأتت بها فكانت جميعها نحو ألف وثمانمائة سفينة أكبرها كانت تحمل مائة رجل بجهازهم.

أما الروم فإنهم لما شاهدوا تلك السفن الكثيرة أمروا فرفعت السلسلة الحامية للمينا لكى تدخل السفن المذكورة وتستأمن من داخل البوغاز وأمر مسلمة قومه بالتأهب لمصادمة الروم فى تلك الليلة براً وبحراً فتقدمت السفن إلى جانب السلسلة ووقفت متردّدة بين أن تدخل المينا وبين أن تقضى ليلتها فى مكانها خوفاً من الحيلة فبينما هم على هذا الحال إذ اشتعلت النار الإغريقية من كل جانب وتساقطت عليها تساقط المطر فأحرقتها كلها ولم تنج منها واحدة وهلك من فيها من الجند ثم أتى بعد ذلك النبأ بموت سليمان بن عبد الملك وذلك فى سنة تسع عشرة وسبعمائة للميلاد أى سنة تسع وتسعين للهجرة فانفشل من بقى منهم وفترت هممهم وانجلوا عن مواقفهم وكادوا يتمزقون أشتاتًا، وكان سليمان عادلاً حكيماً طويلاً جميلاً به عرج مولعاً بالنساء شديد الغيرة وفى عهده خصى أبو بكر محمد بن عمرو الأنصارى المخنثين بالمدينة قيل وكان العامل على المدينة أبا بكر عمر بن حزم فكتب إليه سليمان يقول أحص من عندك من المخنثين واتفق أن نقطة من السطر الأول وقعت على الحاء فصارت خاء فخصاهم ، ومما يحكى من محاسنه أن رجلاً دخل عليه فقال يا أمير المؤمنين أنشدك الله والأذان فقال له سليمان أما أنشدك الله فقد عرفناها ـ فما الأذان قال قوله تعالى **﴿فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾** فقال له سليمان ما ظلامتك فقال ضيعتى الفلانية غلبنى عليها عاملك فلان فنزل سليمان عن سريره ورفع البساط ووضع خده على الأرض وقال والله لا رفعت خدّى من الأرض حتى يكتب له بردّ بيعته فكتب الكتاب وهو واضع خدّه وقيل إنه أطلق من سجن الحجاج ثلثمائة ألف ما بين رجل وامرأة وصادر آل الحجاج وأعمل فيهم القتل والتشريد

واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيراً ومشيراً وأراد أن يستكتب يزيد بن أبى مسلم وزير الحجاج فقال له عمر بن عبد العزيز سألتك الله يا أمير المؤمنين لا تحى ذكر الحجاج باستكتابك يزيد فقال يا عمر إنى لم أجد عنده خيانة فى درهم ولا دينار فقال يا أمير المؤمنين إن إبليس أعف منه فى الدرهم والدينار وقد أغوى الخلق كلهم جميعاً فأضرب سليمان عما عزم عليه.

وفى كامل المبرد وغيره أن يزيد هذا دخل على سليمان بن عبد الملك وكان يزيد دميماً قبيحاً فقال له سليمان قبح الله رجلاً أجرّك رسنه وأشركك فى أمانته فقال يا أمير المؤمنين لا تقل هذا قال ولم قال لأنك رأيتنى والأمر عنى مدبر ولو رأيتنى والأمر علىّ مقبل لاستحسنت ما استقبحت منى ولاستعظمت ما استصغرت منى فقال له سليمان ويحك أو قد استقر الحجاج فى قعر جهنم بعد أم لا فقال يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك فى الحجاج قال ولم قال لأن الحجاج وطأ لكم المنابر وأذل لكم الجبابرة وأنه يأتى يوم القيامة عن يمين أبيك ويسار أخيك فحيثما كانا كان.

وكان سليمان فصيحاً بليغاً أديباً محسنا لعلم العربية مترفعا عن سفك الدماء. قال ابن خلكان فى ترجمته أنه كان يأكل فى كل يوم نحو مائة رطل شامى، ولما ولى رد الصلاة إلى ميقاتها الأول، وكان من قبله من خلفاء بنى أمية يؤخرونها إلى آخر وقتها ولذلك قال محمد بن سيرين أن سليمان افتتح خلافته بخير افتتحها بإقامة الصلاة لميقاتها واختتمها باستخلافه لعمر بن عبد العزيز وذكر المفضل وغيره أن سليمان بن عبد الملك خرج من الحمام فى يوم الجمعة فلبس حلة خضراء واعتم بعمامة خضراء وجلس على فراش أخضر وبسط ما حوله بالخضرة ثم نظر فى المرآة وكان جميلاً فأعجبه جماله فشمر عن ذراعيه. وقال: كان فينا نبينا محمد ﷺ نبياً ورسولاً وكان أبو بكر رضي الله عنه صدّيقاً. وكان عمر رضي الله عنه فاروقاً. وكان عثمان رضي الله عنه حيياً. وكان على رضي الله عنه شجاعاً وكان معاوية رضي الله عنه حليماً. وكان يزيد صبوراً. وكان عبد الملك سائساً. وكان الوليد جباراً وأنا الملك الشاب ثم خرج لصلاة الجمعة فوجد حظية له فى صحن الدار فأنشدته هذه الأبيات:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان
ليس فيما بدا لنا منك عيب عابه الناس غير أنك فاني

فلما فرغ من الصلاة ودخل داره. قال لتلك الحظية ما قلت لى فى صحن الدار وأنا خارج؟ قالت: ما قلت لك شيئاً ولا رأيتك وأنى لى بالخروج إلى صحن الدار.

فقال إنا لله وإنا إليه راجعون نعيت إليّ نفسى فما دارت عليه جمعة أخرى حتى مات. وقيل إنه صعد المنبر وخطب وأن صوته ليسمع فى أقصى المسجد فأخذته الحمى فما زال صوته يختفى حتى لم يسمعه من تحته. وقال ابن خلكان أنه حم ومات من ليلته وقيل: إنه مات بذات الجنب. وقيل إنه قبل موته أكل زنبيلين من التين والبيض ألطفه بهما بعض المسيحيين فأمر بأن يقشر البيض وجعل يأكل بيضة وتينة حتى أتى على الزنبيلين ثم أتوه بمح وسكر فأكل فاحتم ومرض ومات، مات فى عاشر صفر سنة ثمان وتسعين هجرية. وقيل سنة تسع وتسعين بمرج دابق من أرض قنسرين وله تسع وثلاثون سنة وقيل خمس وأربعون سنة وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر واستعمل فى أيامه على مصر عبد الملك بن رفاعة القينى إلى سنة تسع وتسعين التى مات فيها سليمان.

(الفصل الثامن)

(فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز)

ثم قام بالأمر بعد سليمان الخليفة الراشد أبو حفص عمر بن عبد العزيز بويع له بالخلافة يوم مات سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين هجرية أى سنة سبع عشرة وسبعمائة ميلادية وكانت خلافته بعهد من سليمان له وذلك أنه لما كان سليمان بدابق ومرض مرضه الذى مات فيه عهد فى كتاب كتبه لأحد أولاده وهو غلام لم يبلغ أشدّه فعلم رجاء بن حيوة بالخبر فدخل عليه وقال له ما تصنع يا أمير المؤمنين إن مما يحفظ الخليفة فى قبره أن يستخلف على الناس الرجل الصالح. فقال سليمان يا رجاء إنى مستخير الله وسأنظر ولم أعزم ولبث سليمان يوماً أو يومين ثم مزق الكتاب ودعا رجاء فقال له يا رجاء ما ترى فى ولدى داود. فقال رجاء هو غائب عند القسطنطينية ولا ندرى أحيّ أم لا. قال: فمن ترى؟ قال: رجاء رأيك ياأمير المؤمنين قال: فكيف ترى فى عمر بن عبد العزيز. قال: رجاء فقلت: أعلمه والله خيراً فاضلاً سليماً. فقال سليمان: هو على ذلك ولئن وليته ولم أول أحدا سواء لتكونن فتنة ولا يتركونه أبداً يلى عليهم إلا أن يجعل أحدهم بعده. قال وكان عبد الملك قد عهد إلى الوليد وسليمان أن يجعلا أخاهما يزيد ولى عهد فأمر سليمان أن يجعل يزيد بن عبد الملك بعد عمر وكان يزيد غائباً فى الموسم. قال رجاء فقلت رأيك فكتب سليمان، بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير

المؤمنين لعمر بن عبد العزيز إني قد وليتك الخلافة بعدى ومن بعدك يزيد بن عبد الملك فاسمعوا له وأطيعوا واتقوا الله ولا تختلفوا فيطمع فيكم، قال: وختم الكتاب ثم أرسل إلى كعب بن جابر العبسي صاحب شرطته. فقال: ادع أهل بيتى فجمعهم كعب فلما اجتمعوا . قال سليمان لرجاء اذهب إليهم بكتابى وأخبرهم بما فيه ومرهم فليبايعوا من وليت فيه ففعل رجاء فلما علموا ما فى الكتاب. قالوا: ندخل فنسلم على أمير المؤمنين ثم دخلوا فقال لهم سليمان فى هذا الكتاب الذى فى يد رجاء بن حيوة عهدى فاسمعوا وأطيعوا لمن سميت فيه فبايعوا عمر رجلاً رجلاً ثم تفرقوا وثقل المرض بسليمان فمات. قال رجاء بن حيوة فغمضته وسجيته وأغلقت الباب وأجلست على الباب من أثق به ثم خرجت فأرسلت إلى كعب بن جابر فجمع أهل بيت سليمان فى مسجد دابق فقلت بايعوا فقالوا: قد بايعنا مرة قلت وأخرى هذا عهد أمير المؤمنين فبايعوا الثانية. قال فلما بايعوا بعد موته رأيت أن قد أحكمت الأمر فقلت قوموا إلى صاحبكم فقد مات.

ذكر غير واحد عن محمد المروزى. قال: أخبرت أن عمر بن عبد العزيز ﷺ لما دفن سليمان بن عبد الملك وخرج من قبره سمع للأرض هدّة أو رجة. فقال ما هذه؟ فقيل هذه مراكب الخلافة قرّبت إليك ياأمير المؤمنين لتركبها. فقال مالى ولها نحوها عنى وقرّبوا إلىّ دابتى فقرّبت إليه فركبها فجاء صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة على عادة الخلفاء قبله فقال له تنح عنى مالى ولك إنما أنا رجل من المسلمين ثم سار مختلطا بين الناس حتى دخل المسجد فصعد المنبر فاجتمع إليه الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه. ثم قال: أيها الناس إنى ابتليت بهذا الأمر بغير رأى منى فيه ولا طلبة ولا مشورة من المسلمين وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم غيرى فصاح المسلمون صيحة عظيمة قد اخترناك ياأمير المؤمنين ورضيناك أميرنا باليمن والبركة فلما سكتوا حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه. ثم قال، أوصيكم بتقوى الله فإن تقوى الله تعالى خلف من كل شيء وليس من تقوى الله خلف واعملوا لآخرتكم فإن من عمل لآخرته كفاه أمر دنياه وآخرته وأصلحوا سرائركم يصلح الله علانيتكم وأكثروا ذكر الموت وأحسنوا له الاستعداد قبل أن ينزل بكم فإنه هاذم اللذات وإنى والله لا أعطى أحدا باطلاً ولا أمنع أحداً حقا، يا أيها الناس من أطاع الله وجبت طاعته ومن عصى الله فلا طاعة له، أطيعونى ما أطعت الله فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم، ثم نزل ودخل دار

الخلافة فأمر بالستور فهتكت وبالبسط فرفعت وأمر ببيع ذلك وإدخال ثمنه فى بيت مال المسلمين. ثم ذهب يتبوأ مقيلاً فأتاه ابنه عبد الملك فقال ما تريد أن تصنع ياأبت؟ قال يابنى أقيل قال تقيل ولا تردّ المظالم. قال: أى بنى إنى قد سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان فإذا صليت الظهر رددت المظالم. فقال ياأمير المؤمنين من أين لك أن تعيش إلى الظهر فقال ادن منى يابنى فدنا منه فقبله بين عينيه. وقال الحمد لله الذى أخرج من ظهرى من يعيننى على دينى فخرج ولم يقل وأمر مناديه أن ينادى ألا كل من كانت له ظلامة فليرفعها قيل فتقدم إليه ذمى من أهل حمص فقال ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله. قال: وما ذاك. قال: إن العباس بن الوليد اغتصبنى أرضى والعباس جالس فقال عمر ما تقول ياعباس. فقال إن أمير المؤمنين الوليد أقطعنى إياها وهذا كتابه فقال عمر ما تقول ياذمى. قال ياأمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى. فقال عمر كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد أردد إليه أرضه ياعباس فردها إليه ثم جعل لا يدع شيئاً مما كان فى يد أهل بيته من المظالم إلا رده مظلمة مظلمة فلما بلغ الخوارج سيرته وما رد من المظالم اجتمعوا. وقالوا: ما ينبغى لنا أن نقاتل هذا الرجل وبلغ عمر بن الوليد خبر رد الضيعة التى كانت للذمى كتب إلى عمر بن عبد العزيز، إنك قد زريت على من كان قبلك من الخلفاء وعبت عليهم وسرت بغير سيرتهم بغضا لهم وشيناً لمن بعدهم من أولادهم وقطعت ما أمر الله به أن يوصل إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جوراً وعدواناً ولن تترك على هذا الحال والسلام، فلما قرأ كتابه كتب إليه (بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى عمر بن الوليد السلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، أما بعد فقد بلغنى كتابك أما أوّل شأنك ياابن الوليد فأمك بنانة أم السكون كانت تطوف فى سوق حمص وتدخل فى حوانيتها ثم الله أعلم بها ثم اشتراها زيان من بيت مال المسلمين فأهداها لأبيك فحملت بك فبئس المولود ثم نشأت فكنت جباراً عنيداً تزعم أنى من الظالمين إذ حرمتك وأهل بيتك مال الله الذى فيه حق القرابة والمساكين والأرامل وأن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعملك صبياً سفيها على جند المسلمين تحكم فيهم برأيك ولم يكن له فى ذلك نية إلا حب الوالد لولده فويل لأبيك ما أكثر خصماءه يوم القيامة وكيف ينجو أبوك من خصمائه وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من جعل لغالية البربرية فى خمس العرب نصيباً فرويدا ياابن بنانة فلو التقت حلقتا البطان وردّ الفىء لأهله لتفرّغت لك

ولأهل بيتك فوضعتهم على المحجة البيضاء فطالما تركتم الحق وأخذتم فى الباطل ومن وراء ذلك ما أرجو أن أكون رأيته من بيع رقبتك وقسم ثمنك بين اليتامى والمساكين والأرامل فإن لكل فيك حقاً والسلام على من اتبع الهدى ولا ينال سلام الله القوم الظالمين.

قيل: إنه وقع في زمانه غلاء عظيم فقدم عليه وفد من العرب فاختاروا رجلاً منهم لخطابه فتقدم إليه وقال: يا أمير المؤمنين إنا وفدنا إليك من ضرورة عظيمة وراحتنا في بيت المال وماله لا يخلو إما أن يكون لله أو لعباده أولئك فإن كان لله فالله غنى عنه وإن كان لعباده فآتهم إياه. وإن كان لك فتصدّق به علينا إن الله يجزى المتصدّقين، قيل فتغرغرت عينا عمر بالدموع. وقال هو كما ذكرت وأمر بحوائجهم فقضيت فهمّ الأعرابى بالانصراف فقال عمر كما أوصلت أيها الرجل حوائج عباد الله إليّ فأوصل حاجتى وفاقتى إلى الله فقال الأعرابى إلهى اصنع بعمر بن عبد العزيز كصنيعه فى عبادك قيل فما استتم كلامه حتى ارتفع غيم عظيم وأمطرت السماء مطراً كثيراً فجاء في المطر بردة كبيرة فوقعت على جرة فانكسرت فخرج منها كاغد مكتوب فيه، هذه براءة من الله العزيز الغفار لعمر بن عبد العزيز من النار، قلت ولعل هذا من مبالغات الكتاب تذكرة وعبرة.

ولما استقامت لعمر الأمور ودانت له الخلافة لم يوجه عنايته إلى تتميم الغزوات التى بدأ بها سليمان وترك مسلمة بمن معه من المسلمين فى حصار قسطنطينية طول الشتاء كراهة فى مسلمة وكان ذلك الشتاء قارساً جداً شديداً دامت فيه الثلوج مغطية للأرض مائة يوم فمات خلق كثير من المسلمين ولبثوا على هذا الحال يقاسون العناء حتى دخل الربيع وورد على من بقى منهم الخبر بقدوم عمارتين فيهما من الرجال والذخائر شيء كثير لنجدتهم إحداهما أربعمائة سفينة مشحونة قمحاً من الإسكندرية وثانيهما ثلثمائة وستون سفينة من إفريقية ولكنه لم يتم فرحهم بمقدم تلك العمارة حتى شاع الخبر ثانية بأنه حل بهما ماحل بالعمارة الأولى فلم يحصلوا منهما إلا على ما قل ففشا الجوع والمرض فى جند المسلمين وعادوا يأكلون ما يجدونه من الميتة وغيرها واستنصر ليون قيصر الروم على من بقى منهم بالبلغاريين واستأجرهم لذلك فجاءه منهم عدد كثير واقتتلوا مع المسلمين قتالاً عنيفاً فقتلوا منهم زهاء عشرين ألفاً وطيروا الأخبار بتجهيز الفرنجة براً وبحراً للنجدة فتشددت بذلك عزائم الروم وخافت العرب جداً ولبثوا يتوقعون الشر من كل جانب فوردت إلى مسلمة الأخبار بأن يرجع

بمن معه من المسلمين فقام على الفور وسار بمن بقى معه وهم قليلون فمر بمضيق كليبولى من حيث أتى فلم يعارضه معارض فلما وصل بتينة قام عليه أهلها وقتلوا ممن كان معه خلقاً كثيراً ولم يصل من جميع تلك العمارة الكبيرة إلا خمسة فقط جاءت بالأخبار إلى الإسكندرية فكانت مدة حصار مسلمة لقسطنطينية فى هذه الغزوة ثلاثة عشر شهراً. قال أهل التاريخ: وكان إخفاق مسلمة فى غزوته هذه سبباً فى منع العرب من تخطى أوروبا من جهة المشرق ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا فشنوا الغارة على بلاد الفرنسيس من جهة المغرب بمعاونة عرب الأندلس وجعلوا يتهدّدونها فى كل آونة ولا ينكفون عن مناوشتها كلما تمكنوا من ذلك، وكان عمر يكره الحرب جداً ولا يهتم بالفتوحات فلم يضم إلى دولته فى خلافته إلا جرجان وطبرستان وكتب فى سنة مائة هجرية إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين وقد كانت سيرته وأجناده وصلت إليهم فأسلم حيشبة بن زاهر وتسمى بعض ملوكهم من هذا الحين بأسماء العرب. وكان عمر قد استعمل على ذلك الثغر عمرو بن مسلم أخا قتيبة بن مسلم فغزا بعض الهند فظفر وبقى ملوك السند مسلمين على بلادهم أيام عمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك. فلما كان أيام هشام ارتدوا عن الإسلام وكان سببه ما سيذكر فى محله إن شاء الله.

وتحالف بنو أمية لأسباب عدّة على بغض عمر بن عبد العزيز فرشوا عبداً أسود فسقاه السم. وروى أنه دعا بخادمه الذى سقاه السم فقال له ويحك ما حملك على أن سقيتنى السم قال: ألف دينار أعطيتها قال هاتها فجاء بها فأمر بطرحها فى بيت المال وقال لخادمه أخرج بحيث لا يراك أحد ولما ثقل به مرضه قالوا له لو تداويت. قال لو كان دوائى فى مسح أذنى ما مسحتها نعم المذهوب إليه ربى، قال مسلمة بن عبد الملك دخلت على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أعوده فى مرضه الذى مات فيه فإذا عليه قميص وسخ فقلت لفاطمة بنت عبد الملك يافاطمة اغسلى قميص أمير المؤمنين فقالت نفعل إن شاء الله تعالى ثم عدت فإذا القميص على حالته فقلت يافاطمة ألم آمرك أن تغسلى قميص أميرالمؤمنين فإن الناس يعودونه فقالت والله ما له قميص غيره. قال: وكان عمر رضي الله عنه كثيراً يتمثل بهذه الأبيات

نهارك يامغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم
يغرّك ما يفنى وتفرح بالمنى ... كما غرّ باللذات في النوم حالم
وشغلك فيما اليوم تكره غبه ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وكان مـرضه بدير سمـعان بأرض حمص، وكـانت شكواه عشرين يومـاً فلما احتـضر قال أجلسـونى فأجلسوه فـقال، إلهى أنا الذى أمـرتنى فقـصرت ونهيـتنى فعصيت ولكن لا إله إلا الله وتوفى لخمس وقيل لست مـضين وقيل لعشرة بقين من رجب الفرد سنة إحدى ومائة للهجرة وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر. وقيل وهو ابن أربعين سنة وقـبره بدير سمعـان ظاهر يزار فكانت مدّة خلافـته سنتين وخمـسة أشهر وكـان يقال له أشج بنى أميـة وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عـمر بن الخطاب فعمر جدّه من قبل أمه وهو تابعى روى الحديث عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد وروى عنه جماعة ومولده بمصر سنة إحدى وستين، قال الإمام أحمد ليس أحد من التابعين قوله حجة إلا عمر بن عبد العزيز . اهـ.

وكان عمـر عفيفاً زاهداً ناسكاً عـابداً مؤمناً تقياً صـادقاً وهو أوّل من اتخذ دار الضيـافة وأول من فرض لأبناء السـبيل وأزال ما كـانت بنو أمية تذكـر به عليا على المنابر من اللـعن وجـعل مكان ذلك: ﴿**إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون**﴾ فقال فيـه كثير عزة لذلك:

وليت ولـم تسـبب عليـا ولـم تخف ... بريا ولـم تقبـل مـقـالة مـجـرم
وصـادقت بـالقـول الفعـال مع الذي ... أتيت فـأمـسى راضيـاً كل مـسلم
فـما بين شـرق الأرض والغرب كلهـا ... مناد ينـادي من فـصيـح وأعـجـمي
يقـول أمـيـر المؤمنين ظلمـتـني ... بأخـذك ديناري وأخـذك درهـمي
فـاربح بـهـا من صـفـقـة لمبـائع ... وأكـرم بهـا من بيـعـة ثم أكـرم

قال مـيمون بن مهـران قال عمـر بن عبد العـزيز لما وضعت الوليد فى حـفرته نظرت فإذا وجهه قد اسودّ فإذا مت ودفنت فاكشف عن وجهى. قال ميمون ففعلت فرأيته أحسن مما كان أيام تنعمه ورثاه الشعراء فأكثروا فى رثائه وبالغوا جداً.

واستعمل على مصـر فى خلافته أيوب بن شرحبيل الأصبحى فـأقام بها عاملاً إلى سنة إحدى ومائة وعـزل فى خلافـة يزيـد بن عـبد الملك، وبـعد مـوت عمـر ابن عبد العزيز خلفه فى الملك يزيد بن عبد الملك بن مروان.

(الفصل التاسع)

(فى خلافة يزيد بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعد عمر بن عبد العزيز يزيد بن عبد الملك بن مروان بويع له بالخلافة يوم مات ابن عمه عمر سنة إحدى ومائة للهجرة أى سنة تسع عشرة وسبعمائة للميلاد بعهد له من أخيه سليمان فى ذلك فلما ولى قال خذوا بسيرة عمر ابن عبد العزيز فساروا بسيرته أربعين يوماً فدخل عليه أربعون رجلاً من مشايخ دمشق وحلفوا له أنه ليس على الخلفاء حساب ولا عقاب فى الآخرة وخدعوه بذلك فانخدع لهم وكان طائفة من جهال الشاميين يعتقدون ذلك، قال بعض أهل التاريخ: إن يزيد هذا هو المعروف بالفاسق وهو غلط وإنما الفاسق ولده الوليد كما اشتهر . اهـ.

وقيل أنه لما احتضر عمر بن عبد العزيز قال له اكتب إلى يزيد فأوصه بالأمة. قال: بماذا أوصيه إنه من بنى عبد الملك ثم كتب إليه، أما بعد فاتق يايزيد الصرعة بعد الغفلة حين لا تقال العثرة ولا تقدر على الرجعة إنك تترك ما تترك لمن لا يحمدك وتصير إلى من لا يعذرك والسلام، ولما استقرت بيزيد الخلافة عمد إلى كل ما عمده عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فردّه ورد المكوس التى أزالها عمر ابن عبد العزيز عن أهل اليمن وغير ذلك وجهز جيشاً عظيماً لقتال يزيد بن المهلب ابن أبى صفرة وسيره مع أخيه مسلمة والعباس ابن أخيه. وكان ابن المهلب قد كثرت لومه واجتمع إليه من أهل الكوفة والبصرة والثغور وغيرها فالتقى مسلمة بأهل الشام وابن المهلب فى لومه وعسكره الجرار فاقتتلوا قليلاً وكان يزيد بن عبد الملك قد أمر بإحراق جسر كان على الفرات ليأخذوا الطريق على ابن المهلب وأصحابه فلما علا دخان الحريق سأل أصحاب ابن المهلب عنه فقيل لهم حرق الجسر فانهزموا فقيل لابن المهلب انهزم الناس فقال لم انهزموا هل كان قتال ينهزم من مثله فقيل له قالوا أحرق الجسر فلم يلبث أحد فقال قبحهم الله بق دخن عليه فطار ثم خرج ومعه أصحابه. وقال أضربوا وجوه المنهزمين ففعلوا ذلك بهم وبينما هو على هذا الحال إذ جاءه الخبر بموت أخيه حبيب فاغتم غما شديداً واستقل وتقاعس عن الحرب فتسلل عنه من يكره القتال وبقى معه جماعة من جنسه فانقض عليه أهل الشام وعلى أصحابه فقتلوه وقتلوا أخاه محمد بن المهلب وآخرين معه واختلفوا فيمن قتله

واحتزوا رأس يزيد بن المهلب وأتوا بهـا إلى مسلمة فسيـرها إلى يزيد بن عبد الملك وأسر أهل الشام من أصحاب يزيد بن المهلب خلقا فسيرهم مسلمة إلى الكوفة فجاء كتاب يزيد بن عبـد الملك إلى محمد بن عمرو بن الوليد يأمره بضـرب رقابهم فأمر صاحب شرطته أن يخرجهم عشـرين عشرين وثلاثين ثلاثين فقام نحو ثلاثين رجلاً من تميم فـقالوا نحن انهـزمنا بالناس فابدؤا بنا قـبل الناس فـضرب رقابهـم ثم جاء محمد بن عمـرو كتاب من عند مسلمة يأمره بترك قتل الأسـرى وأقبل مسلمة حتى نزل الحيرة واجـتمع أهل المهلب بالبصرة فـأعدّوا السفن وتجهزوا للركـوب في البحر وحملوا أموالهم وعيالاتهم حتى وصلوا إلى حيـال وساروا فى البر فسير مسلمة فى أثرهم مدرك بن ضب الكلبى فأدركهم فـى عقبة فعطفوا عليه وقاتلوه واشـتد قتالهم فقـتل أكثر أصـحاب ابن المهلب وقـتل أولاد المهلب عن آخرهم وحـملت رؤوسهم والأسرى إلى مسلمة بالحيرة فبعثهم إلى يزيد بن عبد الملك فسيرهم يزيد إلى العباس ابن الوليد وهو على حلب فنصب الرؤوس وفرح يزيد بقتـل آل المهلب فرحا عظيمًا وقد كـان يتمنى قتلهم وقطع شـأفتهم لعـداوة سابقة بينه وبين يـزيد بن المهلب قبل تولى يزيد بن عـبد الملك الخـلافة، قـال صاحب الكامل إن ابن المهلب خـرج من الحمام أيام سليمان بن عبد الملك وقد تضمخ بالغالية فاجتاز بيزيد بن عبد الملك وهو إلى جانب عـمر بن عبد العـزيز. فقال يزيد قبح الله الدنيـا لوددت أن مثقال غـالية بألف دينار فلا ينالها إلا كـل شريف فسمع ابن المهلب فقـال له بل وددت أن الغالية لو كانت فى جبهة الأسد فلا ينالها إلا مثلى. فقال له يزيد بن عبد الملك لئن وليت يوماً لأقتلنك فقال له ابن المهلب والله لئن وليت هذا الأمر وأنا حىّ لأضربن وجهك بخمسين ألف سيف فهذا كان سبب البغض بينهما وقيل غير ذلك . اهـ.

وكان قـد جىء إلى يزيد بن عـبد الملك بثـلاثة عشـر رجلاً من الأسرى فـلما أدخلوهم عليه وعنده كثير عزة أنشد:

حليم إذا مـا نـال عـاقب مـجـمـلا   أشـد العـقـاب أو عـفـا لم يثـرّب
فـعـفـو أمـيـر المؤمنين وحـسـبـه   فـمـا تأته مـن صـالح لـك يكتب
أسـاءوا فـإن تصـفـح فـإنك قـادر   وأفضل حلم حـسبة حلم مـغضب

فقال يزيد بن عبد الملك هيهـات يا أبا صخر طف بك الرحم لا سبيل إلى ذلك إن الله عزّ وجلّ أقاد بنيهم بأعمالهم الخبيثة ثم أمر بهم فقتلوا وبقى غلام صغير فقال اقتلونى فما أنا بصغير فأمر به يزيد فقتل أيضاً، وكان أهل المهلب مشهورين بالكرم والجود والفتوّة ولهم أخبار طويلة لا محل لذكرها هنا.

وبينما كان مسلمة بن عبد الملك أخـو يزيد والعباس بن أخيه يقاتلان آل المهلب إذ دخل على يزيد بن عبد الملك جماعة من المتقربين إليه. وقالوا: ياأمير المؤمنين إن أهل العراق أهل غدر وإرجاف وقد توجـهنا محاربين والحوادث تحدث ولا نأمن من أن يرجف أهل العراق فيقولون مات أميرالمؤمنين فيفت ذلك فى أعضائنا فلو عهدت إلى عبد العزيز بن الوليد لكان رأياً صواباً فبلغ ذلك مسلمة بن عبد الملك فأتى أخاه يزيد فقـال ياأمير المؤمنين أيما أحب إليك أخـوك أم ابن أخيك فقال بل أخـى فقال فأخوك أحق بالخـلافة فقال يزيد إذا لم تكن فى ولدى فـأخى أحق بها من ابن أخى كمـا ذكرت قال فابنك لم يبلـغ فبايع لهشـام بن عبد الملك ثم بعـده لابنك الوليد. وكان الوليد يومئذ ابن إحدى عشرة سنة فبايع بولاية العهد لهشام بن عبد الملك أخيه وبعده لابنه الوليد بن يزيد وعاش اليزيد حتى بلغ ابنه الوليد أشدّه فكان إذا رآه يقول الله بينى وبين من جـعل هشامـاً بينى وبينك وظلت ولاية العهـد لهشـام حتى ولى الخلافة، وفى أيام يزيد بن عبد الملك ولد أبو العباس عبد الله بن محمد بن على بن محمد بن على فى ربيع الآخر وهو السفاح وقدم على أبيه محمد بن على أبو محمد الصادق من خراسـان وجماعة من أصحابه فـأخرج إليهم أبا العباس مقـمطا بقماط ولفائف ولـه خمسـة عشـر يوماً وقال لهم هذا صـاحبكم الذى يتم الأمـر على يده فقبلوا أطرافه. وقال لهم والله ليتمن الله هذا الأمر حتى تدركوا ثأركم من عدوّكم.

وخرج فى أيام يزيد كـثير من طوائف التـرك وقاتلوا المسلمـين وأجلوا من كان منهم بأرمينية والجـزيرة والمتولى عليهما يومئـذ ابن هبيرة فجهز يزيد الجـراح لقتالهم وردّهم إلى الطاعة فـقاتلهم قـتالاً شديداً وأفـحش فى قتلهم وسـبى ذراريهم وقاتل سائر الخوارج حتى أرجعهم إلى الطاعة وكاتب يزيد بالفتح وطلب المدد فوعده ولكن المنية عـاجلته وكانت وفـاة يزيد بإربل من أرض البلقاء وقيل بالجـولان وحمل على أعناق الرجال إلى دمشق ودفن بين باب الجابية وباب الصغير لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومـائة وله أربعون سنة وقيل خـمس وثلاثون سنة وكانت خلافـته أربع سنين وشهراً وأياماً، ذكر الحافظ ابن عساكر أن سبب موت يزيد بن عبد الملك هذا أنه كان اشتـرى فى أيام أخيه سليمـان جارية من عثمان بن سـهل بن حنيف بأربعة آلاف دينار وكان اسـمها حبـابة وأحبها حـباً شديداً فـبلغ أخاه سليمان ذلك فـقال هممت أن أحـجر على يزيد فبلغ ذلك يـزيد فباعهـا خوفاً من أخـيه سليمـان فلما أفضت الخـلافة إليـه قالت له زوجتـه ياأميـر المؤمنين هل بقى فى نفسك مـن الدنيا شيء؟ قـال نعم فقـالت وما هو؟ قـال حبـابة فاشـترتهـا له وهو لا يعلم وزينتـها

وأجلستها من وراء ستر لها ثم قالت ياأمير المؤمنين هل بقى فى نفسك من الدنيا شيء؟ قال أو ما أعلمتك أنها حبابة فرفعت الستر وقالت هاأنت وحبابة وتركته وإياها فحظيت عنده وغلبت على عقله ولم ينتفع به فى الخلافة وأنه قال يوماً إن بعض الناس يقولون إنه لن يصفو لأحد من الملوك يوم كامل من الدهر وإنى لأكذبنهم فى ذلك ثم أقبل على لذاته واختلى بحبابة وأمر أن يحجب عن سمعه وبصره كل ما يكره فبينما هو على تلك الحالة فى صفو عيشه وزيادة فرحه وسروره إذ تناولت حبابة حبة رمان وهى تضحك فغصت بها فماتت فاختل عقل يزيد وتكدّر عيشه وذهب سروره ووجد عليها وجداً شديداً وتركها أياماً لا يدفنها وهو يقبلها ويسترشفها حتى أنتنت وفاحت فأمر بدفنها ثم نبشها من قبرها وله معها أخبار طوال أضربنا عن إيرادها وغنته يوماً

وبين التراقي واللهاة حرارة ... وما طفئت يوماً بسوغ فتبردا

فأهوى عند سماعه قولها ليطير فقالت ياأمير المؤمنين إن لنا فيك حاجة فقال والله لأطيرن فقالت على من تخلف الأمة والملك. قال عليك والله وقبل يدها فخرج بعض خدمه وهو يقول سخنت عينك ما أسخفك.

ولما عاد من دفنها سمع جارية له تتمثل بعدها

كفى حزناً بالهائم الصب أن يرى ... منازل من يهوى معطلة قفرا

فبكى بكاء مرا واشتدّ به النحيب ولم يعش بعدها إلا خمسة عشر يوماً وكان مرضه بالسل وقال فيها:

فإن تسل عنك النفس أو تدع الهوى ... فباليأس تسلو عنك لا بالتجلد
وكل خليل زارني فهو قائل ... من آجلك هذا هالك اليوم أو غد

قال صاحب الكامل: ولم يعلم بموت يزيد أحد حتى ناحت سلاّمة حظيته، هى حظية أخرى غير حبابة كان يحبها فقالت:

لا تلمنا إن خشعنا ... أو هممنا بخشوع
قد لعمري بت ليلى ... كأخي الداء الوجيع
ثم بات الهمّ مني ... دون من لي بضجيع
للذي حل بنا اليو ... م من الأمر الفظيع
كلما أبصرت ربعا ... خالياً فاضت دموعي
قد خلا من سيد كا ... ن لنا غير مضيع

ثم نادت وا أميـر المؤمنيناه فعلمـوا بموته قال والشـعر لبـعض الأنصار . اهـ.
واستـأمر يزيد على مصر فـى خلافته بشـر بن صفوان الكلبى فـأقام إلى سنة ثلاث ومائة ثم خلعه وولى أخاه حنظلة فأقـام إلى سنة خمس ومائة وهى السنة التى مات فيها يزيد بن عبد الملك ثم عزل ولما مات يزيد خلفه فى الملك هشام بن عبد الملك.

(الفصل العاشر)

(فى خلافة هشام بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعد يزيد أخوه هشام بن عبد الملك بن مروان بويع له بالخلافة يوم مات أخوه يزيد سنة خمس ومـائة هجرية أى سنة ثلاث وعشرين وسبعـمائة ميلادية بعهد منه إليه ولما أتته الخلافة كان بالرصافة فـسجد وسجد أصحابه لما بشر بها وسار إلى دمشق، قال مصعب الزبيرى زعموا أن عبد الملك بن مروان رأى فى منامه أنه بال فى المحراب أربع مرات فدس من يسأل سعيـد بن المسيب وكان يعبر الرؤيا فقال يملك من صلبه أربعة فكان آخرهم هشاماً. اهـ.

فلما كانت السنة الأولى من خلافته سير مسلم بن سـعيد لغزو الترك فعبر النهر وعاث فى بلادهم وخرب وأتلف وأراق الدماء وقفل فتأثره الترك فعبرالنهر ولم ينالوا منه أرباً ثم غزا افشـين فلم يروا بداً من مصالحته على ستـة آلاف رأس وسلموا إليه القلعـة ثم غزا غـزوة أخرى فى سنة ست ومـائة فأبطأ عنه الناس. وكـان ممن أبطأ البخترى بـن درهم فأرسل مسلم نصر بن سيار إلى بلخ وأمـره أن يخرج الناس إليه وكان العـامل على بلخ يومئذ عـمرو بن مسلم فذهـب نصر وأحرق باب البخـترى وزياد بن طريف الباهلـى ومنعهمـا عمرو من دخول بـلخ فقامت بسـبب ذلك فتنة عظيمة فانهـزم نصر المذكور وأمرهم بأن يلحقوا بمـسلم بن سعيد، ولما قطع مـسلم النهر ولحـقه من لحقه من أصـحابه سار إلى بخارى فـجاء كتاب خالـد بن عبد الله القسرى بولايته ويأمره بإتمام الغزوة فسار إلى فـرغانة ويلغه أن خاقان كان قادماً عليه بخيله ورجله فارتحل فلحقه خاقان بعد ثلاث مراحل وأحاط بالمسلمين ونازلهم وقتل المسيب بن بشر الرياحى والبراء من فرسان المـهلب وغيرهما من الأبطال وسار مسلم بالناس ثمـانية أيام والتـرك مطيفون بهـم وكان مسلم قـد أحرق مـا ثقل من أمتـعة المسلمين ما قيمته ألف ألف وأصبحوا فى اليوم التاسع قريب النهر ودونه أهل فرغانة والشاش فأمر مسلم أصحابه أن يختـرطوا سيوفهم ويحملوا على الأعداء فأفرج أهل فرغانة والشاش عن النهر فـعبر مسلم وأصحابه وأتبعهم ابن خـاقان فكان حميد بن

عبد الله على الساقة من وراء النهر مثخنا بالجراح فبعث إلى مسلم بالتربص وعطف على جموع الترك وقاتلهم قتالاً شديداً وأسر قائدهم وقائد الصغد وبينما هو يدبر أمر أصحابه إذ أصابه سهم فمات ثم أتى مسلم وقومه خجندة وقد أهلكهم الجوع.

ولما كانت سنة اثنتين وعشرين ومائة ظهر زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب يريد منصب الخلافة وأقبل إلى الكوفة ولبث بها مستخفياً يتنقل فى المنازل وأقبلت الشيعة تختلف إليه تبايعه فبايعه أناس من وجوه أهل الكوفة. قال أهل التاريخ، وكانت بيعته إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وجهاد الظالمين ونصر أهل البيت أتبايعون على ذلك فإذا قالوا نعم وضع يده على أيديهم ويقول، عليك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله ﷺ لتفين ببيعتى ولتقاتلن عدوى ولتنصحن لى فى السر والعلانية فإذا قال نعم مسح يده على يده ثم قال، اللهم اشهد، فبايعه خمسة عشر ألفاً وقيل أربعون ألفاً فأمرهم بالاستعداد ولما شاع خبر خروجه أتاه سلمة بن كهيل فذكر له قرابته من صاحب الشريعة الإسلامية وحقه فأحسن وبالغ ثم قال له أنشدك الله كم بايعوك؟ قال أربعون ألفاً قال فكم بايع جدك، قال ثمانون ألفاً. قال: فكم قفل معه؟ قال ثلثمائة. قال: أنشدتك الله أنت خير أم جدك؟ قال جدى قال فهذا القرن؟ خير أم ذلك القرن قال ذلك القرن قال أفتطمع أن يفى لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك؟ قال قد بايعونى ووجبت البيعة فى عنقى وأعناقهم قال أفتأذن لى أن أخرج من هذا البلد فلا آمن أن يحدث حدث فلا أملك نفسى؟ فأذن له فخرج إلى اليمامة وأكثر زيد من دعاء الناس إلى بيعته فبايعه ناس كثير منها ورسم لأصحابه فيها بالخروج فخرج معه من كان يريد الوفاء له بالبيعة فعلم يوسف بن عمر بخبره وهو على الحيرة يومئذ وبعث فى طلبه وكان على الكوفة الحكم بن الصلت فخاف جماعة ممن خرج مع زيد واجتمع كبارهم وتكلموا مع زيد فيما هو فيه ثم فارقوه ونكثوا بيعته وقالوا سبق الإمام، يعنون محمد الباقر، وكان قد مات وقالوا جعفر ابنه إمامنا اليوم بعد أبيه فسماهم زيد بن على لذلك الرافضة، قال صاحب الكامل، وهم يزعمون أن المغيرة سماهم الرافضة. اهـ.

وكانت طائفة أتت جعفر بن محمد الصادق قبل خروج زيد فأخبروه ببيعة زيد فقال بايعوه فهو والله أفضلنا وسيدنا فعادوا وكتموا ذلك وخرج زيد فيمن بقى معه من أهل الكوفة واقتتل مع أصحاب يوسف والريان وأهل الشام فتخلى عنه نفر ممن بقى معه فلما رأى زيد خذلان الناس إياه قال لنصر بن خزيمة وقد كان يقاتل مع

زيد أنا أخاف أن يكونوا قد فعلوها حسينية، يعنى كما فعلوا بالحسين، فقال نصر بن خزيمة أما والله لأقاتلن معك حتى أموت وأن الناس فى المسجد فامض بنا نحوهم فساروا حتى انتهوا إلى باب المسجد بعد قتال فجعل أصحابه يدخلون راياتهم من فوق الأبواب ويقولون ياأهل المسجد اخرجوا من الذل إلى العز اخرجوا إلى الدين والدنيا فإنكم لستم فى دين ولا دنيا فرماهم أهل الشام بحجارة من فوق المسجد فانصرفوا ثم عادوا بعد ذلك إلى القتال فاشتد أصحاب يوسف بن عمر على أصحاب زيد بن علىّ واشتد كذلك أصحاب زيد واقتتلوا قتالاً عنيفاً فقتل نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحق الأنصارى بين يدى زيد ورمى زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى فثبت فى دماغه وأحضر أصحابه طبيبا فانتزع النصل فضج زيد ومات لساعته واختلف أصحابه فى أين يدفنونه فقال بعضهم نطرحه فى الماء وقال بعضهم بل نحتز رأسه ونلقيه بين القتلى فمانع ابنه يحيي وقال والله لا يأكل لحم أبى الكلاب فقال بعضهم ندفنه فى الحفرة التى يؤخذ منها الطين ونجعل عليه الماء ففعلوا فلما دفنوه أجروا عليه الماء وقيل إنه دفن بنهر يعقوب سكر أصحابه الماء ودفنوه ثم أجروا الماء وكان معهم مولى لزيد بن علىّ من أهل السند قيل إنه رآهم فلما تفرق الناس وتتبع يوسف بن عمر الجرحي دله السندى المذكور على موضع زيد فنبشه وقطع رأسه وسيرها إلى الحيرة وأمر فصلبوا جثته بالكناسة ومعه نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحق وزياد النهدى وسيروا رأس زيد إلى هشام بن عبد الملك فأمر بها فصلبت على باب دمشق ثم أرسلها إلى المدينة وبقيت الجثة مصلوبة إلى أن مات هشام وولى الوليد فأمر بإنزالها وإحراقها.

وكثرت فى أيام هشام الخوارج والدعاة وكان لهم مع عماله وقائع مشهورة يطول شرحها وكان هشام حازماً عاقلاً صاحب سياسة حسنة ورأى ودهاء وحزم وفيه حلم فكان لذلك موفقاً وكان يوصف بالبخل والحرص ويقال إنه جمع من الأموال ما لم يجمعه خليفة قبله، قال عقال بن شبة دخلت على هشام وعليه قباء فنك أخضر فوجهنى إلى خراسان وجعل يوصينى وأنا أنظر إلى القباء ففطن فقال مالك فقلت رأيت عليك قبل أن تلى الخلافة قباء مثل هذا فجعلت أتأمل أهو هذا أم غيره. فقال هو والله ذلك وأما ما ترون من جمعى المال وصونه فهو لكم، قال وكان محشوا عقلا . اهـ.

وكان حسن الخلق قال مجمع بن يعقوب الأنصارى شتم هشام رجلاً من الأشراف فوبخه ذلك الرجل وقال أما تستحى أن تشتمنى وأنت خليفة الله فى أرضه فاستحى منه . وقال اقتص مني فقال إذا أنا سفيه مثلك. قال: فخذ منى عوضاً من المال قال ما كنت لأفعل قال فهبها لله قال هى لله ثم نكس هشام رأسه واستحى وقال والله لا أعود إلى مثلها أبداً، ذكر صاحب الكامل أن الجعد بن درهم أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام فأخذه هشام وسير به إلى خالد القسرى وهو يومئذ على العراق وأمره بقتله فحبسه خالد ولم يقتله فبلغ الخبر هشاماً فكتب إلى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله فأخرجه خالد من الحبس فى وثاقه فلما صلى العيد يوم الأضحى. قال فى آخر خطبته انصرفوا وضحوا يقبل الله منكم فإنى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم فإنه يقول ما كلم الله موسى ولااتخذ إبراهيم خليلاً تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً ثم نزل وذبحه . اهـ.

وكان هشام شديد التمسك بدينه قيل إنه تفقد بعض ولده فلم يحضر الجمعة. فقال ما منعك من الصلاة قال نفقت دابتى قال أفعجزت عن المشى وأمر فمنعوه الدابة سنة ومات هشام بالرصافة لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة وكان مرضه الذبحة وعمره خمس وخمسون سنة وقيل ست وخمسون فكانت خلافته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وأحدا وعشرين يوماً.

واستعمل على مصر فى خلافته أخاه محمد بن عبد الملك وعزله وولى بعده الحر بن يوسف ثم ولى حفص بن الوليد فأقام إلى آخر سنة ثمان ومائة وولى بعده فى سنة تسع ومائة عبد الملك بن رفاعة ثم صرفه فى سنته وولى أخاه الوليد فأقام إلى أن توفى سنة تسع عشرة فولى بعده عبد الرحمن بن خالد الفهمى فأقام سبعة أشهر وصرف وأعيد حنظلة بن صفوان فى سنة عشرين ثم صرفه وأعاد حفص بن الوليد فأقام ثلاث سنين ثم عزل وكان عبد الله بن الحجاب متولى الخراج بمصر فى سنة سبع ومائة للهجرة أى سنة سبع وعشرين وسبعمائة للميلاد فاشتد على القبط فى تحصيل الخراج شدة بالغة وزاد قيراطاً فى كل دينار فاسترحموه فلم يقبل فانتقض عليه عامة الحوف الشرقى من القبط فحاربهم وقتل وسبى ونهب وخرب وأراق الدماء أبحرا وقد كان قبله فى سنة أربع ومائة للهجرة اشتد أسامة بن زيد التنوخى متولى الخراج عليهم وأوقع بهم وأخذ أموالهم ووسم أيدى الرهبان بخلقة حديد منقوش عليها اسم الراهب وديره وتاريخه فكان إذا وجد أحدهم بغير وسم قطع يده

وشهره وكتب إلى جميع العمـال بأن من وجد من النصارى وليس معه منشور يؤخذ منه عشرة دنانير ثم كان منه بعد ذلك أن كبس دياراتهم وقبض على كثير من الرهبان بغير وسم فضـرب أعناقهم وضرب باقيهم بالسياط حـتى ماتوا تحت الضرب ثم أمر فهدمـوا الكنائس ونهبوا ما فيـها فكانت شدة عظيمة للغـاية ووصل الخبر بذلك إلى هشام بن عبـد الملك فكتب هشام إلى مصر بأن يجرى النصـارى على عوائدهم وما بأيديهم من العهد فلم يعمل حنظلة بن صفوان بما رسم به هشام بل شدد عليهم فى ولايته الثـانية وزاد فى الخراج وأحـصى الناس والبهائم وجـعل على كل رجل منهم وسما صورة أسد وتتبعهـم فمن وجد يده بغير وسم قطع يده فازدادت الشدة وعظم أمرها أياماً كثيرة وكادت تهب الفتنة وتعم سائر البلاد فخاف العمال وانكفوا وسكنت الأحوال.

ومـات فى خلافـة هشام الأكـسندروس بطرك الإسكندريـة فكانت مدته أربعـاً وعشرين سنة قاسى فيها من البـلايا والمحن ما مرّ بك بيانه فخلا الكرسى بعده أربع سنين فأقيم بعده قسـيما أو هو قزمان وهو رابع أربعيهم وأصله من نبا مـوسير فأقام سنة ومات ولم يعرف من أخباره شيء فقام بعده تاودورو وهو خامس أربعيهم وكان فى دير أبو يحنس وفى أيامه أحدثت كنيسة يوقنا بخط الحمرة ظاهر مدينة مصر فقام جماعـة من المسلمين فى سنة سبع عشـرة ومائة للهجرة أى نحـو سنة سبع وثلاثين وسبعمـائة للميلاد على الوليد بن رفاعة أمـير مصر يومئذ بسبـبها وشددوا فى طلب هدمها وكادت الفتنة تنتشر ويعظم ضرامـها وبقى الحال هكذا أياماً كثيرة ثم سكنت، وفى سنة سبع ومائة أى فى خـلافة هشام بن عبد الملك تمـكن ملك الروم يومئذ من إقامة بطرك للملكية بالإسكندرية فمضى ومـعه هدية سنية للغاية إلى هشام فكتب له برد كنائس الملكية إليـهم فأخذوا يومئذ من المتـأصلين كنيسة البشـارة وكان الملكيون أقاموا سبعـاً وسبعين سنة بغير بطرك فى أرض مصر من عـهد عمر بن الخطاب إلى خلافـة هشام بن عبـد الملك فغلب المتأصلون فـى هذه المدة على كنائس مصر كـافة وأقاموا منهم بها أساقفة وبعث إليهم أهل بـلاد النوبة فى طلب أساقفة فسيروا إليهم جماعة فـصارت النوبة من ذلك العهد على مذهب دسقـورس وبقيت كذلك إلى أن تفشت فيها الديانة الإسلامية وعـمت سائر أرجائها فدانت بها إلى هذا الحين، ولـما مات هـشام بن عـبد الملك تولى الخـلافة بعـده ابن أخيـه الوليد بن يزيد المـعروف بالفاسق.

(الفصل الحادي عشر)

(في خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك)

ثم قام بالأمر بعد هشام ابن أخيه الوليد بن يزيد المعروف بالفاسق بويع له بالخلافة في شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة للهجرة أى نحو سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة للميلاد يوم موت عمه هشام بالرصافة. وقد كان أبوه حين احتضر عهد بالأمر إلى هشام أخيه بأن يكون العهد من بعده لولده الوليد. فلما مات هشام بويع له وهو إذ ذاك بالبريه فارا من عمه هشام لأنه كان بينه وبين عمه منافسة بسبب استخفافه بالدين وشربه الخمر واشتهاره بالفسق فهم هشام بقتله ففر منه وصار لا يقيم بأرض خوفاً من هشام فلما كانت الليلة التى قدم عليه البريد فى صبيحتها بالخلافة قلق تلك الليلة قلقاً شديداً. فقال لبعض أصحابه ويحك إنه قد أخذنى الليلة قلق فاركب بنا حتى نتنفس فسارا مقدار ميلين وهما يتحدثان فى أمر هشام وما يتعلق به مما كتبه إليه بالتهديد والوعيد ثم نظرا فرأيا من بعد رهجا وصوتا ثم انكشف ذلك عن بريد يطلبونه فقال لصاحبه ويحك إن هذه رسل هشام اللهم أعطنا خيرهم. فلما قرب البريد منهما وأثبتوا الوليد معرفة ترجلوا وجاؤا فسلموا عليه بالخلافة فبهت . وقال ويحكم أمات هشام؟ قالوا: نعم ثم أعطوه الكتب فقرأها وسار من فوره إلى دمشق وكتب إلى الآفاق بأخذ البيعة فجاءته بيعتهم وكتب إليه مروان بن محمد ببيعته وأستأذنه في القدوم عليه فلما استقرت به الخلافة أجرى على زمنى أهل الشام وعميهم وكساهم وأمر لكل إنسان منهم بخادم وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة وزاد فى العطاء وزاد الوفود . قال صاحب الكامل ولم يسئل فى شىء إلا وقال:

ضمنت لكم إن لم يعقني عائق ... بأن سماء الضر عنكم ستقلع
سيوشك إلحاق بمعن زيادة ... وأعطيه مني عليكم تبرع
فيجمعكم ديوانكم وعطاؤكم ... به تكتتب الكتاب شهرا وتطبع

وقال حلم الوادى المغنى كنا مع الوليد وأتاه خبر موت هشام وهنىء بولاية الخلافة وأتاه القضيب والخاتم ثم قال فأمسكنا ساعة ونظرنا إليه بعين الخلافة فقال غنونى:

طاب يومي ولذ شـــرب السلافـة وأتانـا نعـيّ من بالـرصـــافـــه
وأتانـا البـــريد ينـعي هشـــامـــا وأتانـا بخـــاتم لـلخـــلافـــه
فـاصطبحنا من خـمر عـانة صرفـا ولهـــونـا بقـــينة عـــرافـــه

قال وحلف لا يبرح من موضـعه حتى يغنى فى هذا الشعر وشرب علـيه ففعلنا ذلك ولم نزل نغنى إلى الليل .اهـ.

وعقد في هذه السنة يعنى السنـة التى تولى الخلافة فيها لولديه الحكم وعـثمان البيعة من بعده وجعلهما وليى عهـده أحدهما بعد الآخر وجعل الحكم مقدماً وكتب بذلك إلى الآفاق وجعل يتنسم خبر أولاد الحسين بعد خروج زيد بن عليّ وقتله فى خلافة هشـام عمه، فلما كانت سنة خمس وعشريـن جاء الخبر إلى الوليد بالقبض على يحيى بن زيد بن على بن الحسين بخراسان وقـد كان هرب إليها بعد موت أبيه زيد وسار منها إلى بلخ مختفياً فأقام بها عند الحريش بن عمرو بن داود فكتب الوليد يأمره أن يؤمنوه ويخلوا سـبيله وسبيل أصحـابه فأطلقوهم فساروا إلى نيـسابور وبها عمـرو بن زرارة وكان مع يحيى سبـعون رجلاً فـرأى يحيى تجاراً وجمـاعة من أبناء السبيل فـسلبهم متاعهم وأخـذ هو وأصحابه دوابهم ولحق بالجوزجـان فسار فى أثره سالم بن أحـوز فلحقـه بها فقـاتله قتالاً شـديداً فقتل أصـحاب يحـيى عن آخرهم وأصاب يحـيى بسهم فى جـبهتـه فاحـتزوا رأسه وسلبـوه قمـيصه وصلبـوا جثـته بالجـوزجان، قال صاحب الكامل فلم يزل مصلوباً حـتى ظهر أبو مسلم الخراسانى واستـولى على خراسان فـأنزله وصلى عليه ودفنه وأمر بالنيـاحة عليه فى خـراسان وأخذ أبو مسلم ديوان بنى أمية وعرف منه أسماء من حضر قتل يحيى فمن كان حياً قتله ومن كان مـيتاً خلفه فى أهله بسوء وكانت أم يحـيى ريطة بنت أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنيفة.

وكان الوليد يتظاهر بالكفر والزندقة منهمكا على شرب الخمر واللذات والقصف واللهو قليل الاهتمام بأمور الرعية، قال الحافظ ابن عساكر وغيره انهمك الوليد فى شرب الخمر ولذاته ورفض الآخرة وراء ظهره وأقبل على القصف واللهو والتلذذ مع الندماء والمغنين وكـان يضرب بالعود ويوقـع بالطبل ويمشى بالدف وكان قـد انتهك محارم الله تعـالى حتى قيل له الفاسق وكـان مع ذلك أكمل بنى أمية أدباً وفـصاحة وظرفا وأعرفهم بالنحـو واللغة والحديث وكان جوادا مفضـالا ولم يكن فى بنى أمية أكثر إدماناً للشراب والسماع ولا أشد مجونا وتهتكا واستخفافا لأمر الأمة من الوليد المذكـور، ويقال إنه واقع جـارية له وهو سكران وجاءه المؤذنون يـؤذنون بالصلاة

فحلف أنه لا يصلى بالناس إلا هى فلبست ثيابه وتنكرت وصلت بالمسلمين وهى جنب سكرى. قال ويقال إنه اصطنع بركة من خمر فكان إذا طرب ألقى بنفسه فيها وشرب منها حتى يبين النقص فى أطرافها . اهـ.

ولماكثر مجونه وزاد حبه وولوعه للمعاقرة وشرب الخمر وإتيان المنكرات والاستخفاف بأمور الرعية قام عليه أهل دمشق واجتمعوا على خلعه وبايعوا ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك الملقب بالناقص فخرج عليه يزيد وتغلب على دمشق وكان الوليد يومئذ بناحية تدمر فى الصيد فجهز يزيد عسكرا وسار بهم نحوه فحاربوه إلى أن أحاطوا به بحصن البحرة من أرض تدمر وشددوا فى القتال وأخذوا عليه جميع الطرق وتسوّروا عليه وذبحوه وأتوا برأسه على رمح فأمر به يزيد فنصبوه على صور دمشق، وقيل لما حصره أصحاب يزيد همّ أصحابه بالقتال فنهاهم عن ذلك فأفلتوا من حوله فدخل عليه أصحاب يزيد فى قصره فقال يوم كيوم عثمان فقيل له ولا سواء فقطع رأسه وطيف به فى دمشق ثم نصب على قصره ثم على أعلى سور دمشق، وكان أكثر الناس بغضا إليه وأكبرهم حقدًا عليه أهل اليمن فسعوا فى قتله وأغروا به يزيد حتى ركب عليه وقتله، وقال حمزة بن بيض فى الوليد:

وصلت سماء الضر بالضر بعدما   زعمت سماء الضر عنا ستقلع
فليت هشاماً كان حياً يسومنا   وكنا كما كنا نرجي ونطمع

وقال أيضا:

يا وليد الخنا تركت الطريقا   واضحا وارتكبت فجا عميقا
وتماديت واعتديت وأسرف   ت وأغويت وانبعثت فسوقا
أبدا هات ثم هات وهاتي   ثم هاتي حتى تخرّ صعيقا
أنت سكران ما تفيق فما تر   تق فتقا وقد فتقت فتوقا

وحكى الماوردى فى كتاب أدب الدين والدنيا عن الوليد بن يزيد المذكور أنه تفاءلَ يوماً فى المصحف فخرج له قوله تعالى واستفتحوا وخاب كل جبارعنيد فمزق المصحف وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد   فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر   فقل يارب مزقني الوليد

قال: فلم يلبث إلا أياماً قليلة حتى قتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على أعلى سور بلده . اهـ.

قتل فى جمادى الأولى سنة ست وعشرين ومائة وكانت خلافته سنة واحدة وقيل سنة وشهرين وبموته اضطربت الأمور واختل نظام البلاد واضطرمت نار الفتنة واستنصر على بنى أمية أعداؤهم فزالت هيبتهم وذبلت شوكتهم فلم تقم لهم قائمة بعده كما سيذكر فى محله، ومع ما اشتهر به الوليد من الزندقة والتظاهر بالمنكرات فقد كان له محاسن أخرى فما نقل عنه من حسن الكلام ما قاله لما مات مسلمة بن عبد الملك لهشام وهوجالس للعزاء فقد أتاه الوليد المذكور وهو نشوان يجرّ مطرف خز عليه فوقف على هشام فقال ياأمير المؤمنين إن عقبى من بقى لحوق من مضى، وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن رمى، واختل الثغر فهوى وعلى أثر من سلف، يمضى من خلف، فتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى .اهـ.

فأعرض هشام ولم يحر جواباً وسكت القوم فلم ينطقوا، قيل وقد نزه قوم الوليد مما قيل فيه وأنكروه ونفوه عنه وقالوا إنه قيل عنه وألصق به وليس بصحيح، وكان من فتيان بنى أمية وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم وأشدائهم وله شعر جيد للغاية لا سيما فى الخمر والغزل والعتاب وقد أخذ كثير من الشعراء معانيه فى وصف الخمر فسرقوها وأدخلوها فى أشعارهم وخاصة أبا نواس فإنه أكثرهم أخذا لها، قال المدائنى دخل ابن للغمر بن يزيد أخى الوليد على الرشيد فقال له ممن أنت؟ فقال من قريش قال من أيها؟ فأمسك فقال قل وأنت آمن ولو أنك مروان فقال أنا ابن الغمر بن يزيد فقال رحم الله عمك الوليد ولعن يزيد الناقص فإنه قتل خليفة مجمعا عليه ارفع حوائجك فرفعها فقضاها.

وفى أيامه انتقض القبط بصعيد مصر من جور العمال وشقوا عصا الطاعة فوقعت الحرب بينهم وبين الجند المرابط بمصر واقتتلوا أياماً كثيرة فقتل خلق ثم خرج يحنس القبطى وكان من فحول زمانه وكبار القوم وعظمائهم فى مدينة سمنود فحارب العمال وقاتلهم قتالاً عنيفاً ودامت الفتنة أياماً كثيرة اشتد فيها المسلمون على النصارى شدّة بالغة وطال الأخذ والردّ وعمت الصعيدين ثم انجلت بموت يحنس المذكور وخلق معه فكانت فتنة عظيمة للغاية على جميع النصارى وبموت الوليد بن يزيد تولى الخلافة بعده يزيد بن الوليد بن عبد الملك.

(الفصل الثانى عشر)

(فى خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان)

ثم قام بالأمر بعد الوليد يزيد بن الوليد بن عبد الملك بويع له بالخلافة يوم قتل ابن عمه الوليد سنة ست وعشرين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ميلادية وهو أول خليفة كانت أمه أمة وكان بنو أمية يتحرزون ذلك تعظيماً للخلافة ولما سقط إليهم أن ملكهم يزول على يد خليفة أمه أمة كانوا يتخوّفون من ذلك إلى أن ولى الخلافة الوليد بن يزيد فعلموا أن ملكهم قد انقضى، وكان يزيد المذكور يسمى الناقص وإنما سمى بذلك لأنه نقص أعطيات الناس وردّهم إلى ماكانوا عليه أيام هشام وقيل لنقصان كان فى أصابع رجليه وأول من سماه بهذا الاسم مروان بن محمد، ولما تولى الخلافة خطب الناس فذم الوليد وذكر الحاده وأنه إنما قتله لفعله الخبيث ثم قال: أيها الناس إن لكم علىّ أن لا أضع حجرا على حجر ولا لبنة ولا أكترى نهرا ولا أكثر مالا ولا أعطيه زوجة وولدا ولا أنقل مالا عن بلد حتى أسد ثغره وخصاصة أهله بما يغنيهم فما فضل نقلته إلى البلد الذى يليه ولا أجمركم فى ثغوركم فأفتنكم ولا أغلق بابى دونكم ولا أحمل على أهل جزيتكم ولكم أعطياتكم كل سنة وأرزاقكم فى كل شهر حتى يكون أقصاكم كأدناكم فإن وفيت لكم بما قلت فعليكم السمع والطاعة وحسن الوزارة وإن لم أف فلكم أن تخلعونى إلا أن أتوب وإن علمتم أحد ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيكم وأردتم أن تبايعوه فأنا أول من يبايعه أيها الناس لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . اهـ.

وأقام يزيد فى الخلافة والأمور مضطربة عليه إذ قامت الفتنة على ساقها وهاجت وخرج أهل حمص واختلف أهل فلسطين ووثبوا على عمالهم ووثب سليمان بن هشام بن عبد الملك بعمان وكان قد حبسه الوليد بها فخرج من الحبس وأخذ ما كان بها من الأموال وأقبل إلى دمشق وجعل يلعن الوليد ويسبه وخرج أهل اليمامة أيضاً على عاملهم يوسف ابن عمر واقتتلوا واشتد الاضطراب وعم الخلل ولم يكن لتستقر به الخلافة حتى مرض فى سنة ست وعشرين ومائة هجرية فلما علم جماعة القدرية وهم شيعته بمرضه دخلوا عليه وما زالوا به حتى رسم بالبيعة لأخيه إبراهيم ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ومات لعشر بقين من ذى الحجة وقيل فى ثانى عشر جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة هجريةوهو ابن أربعين سنة وقيل: ست وأربعين وقيل: سبع وثلاثين سنة فكانت خلافته ستة

أشهر وليليتين وقيل ستة أشهر واثنى عشر يوماً وقيل خمسة أشهر واثنى عشر يوماً وكان موته بدمشق وكان يظهر التنسك وقراءة القرآن وأخلاق عمر بن عبد العزيز وكان ذا دين وورع قال الشافعى: ولى يزيد بن الوليد فدعا الناس إلى القدر . اهـ. وهو أول من خرج بالسلاح يوم العيد خرج بين صفين يحملون السلاح وكان آخر ما تكلم لما احتضر واحسرتاه واأسفاه ولما مات تولى الخلافة بعده أخوه إبراهيم بن الوليد.

(الفصل الثالث عشر)

(فى خلافة إبراهيم بن الوليد)

ثم قام بالأمر بعد يزيد أخوه إبراهيم بعهد من يزيد بويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه أخوه سنة ست وعشرين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة للميلاد ولم يثبت له الأمر لاضطراب الأمور ووقوع الخلاف فكان جمعة يسلم عليه بالخلافة وجمعة بالإمارة وجمعة لا يسلم عليه لا بالخلافة ولا بالإمارة. وما زالت الأمور مضطربة والفتنة يمتد لهيبها من بلد إلى آخر إلى أن قتله مروان بن محمد وصلبه وكان مروان المذكور والياً على الجزيرة وأرمينية والموصل وأذربيجان ولاه عليها الوليد خوفاً من خروجه عليه فقد كان حضر فى جيش عظيم لقتال الوليد وردّه عن الملك ولم يبايعه حتى ولاه ما ذكر فخرج فى ثمانين ألفا من أهل الجزيرة وأهل قنسرين وأهل حمص فسير لقتالهم إبراهيم بن الوليد جنداً من دمشق مع سليمان بن هشام فنزل عين الجرف فى مائة وعشرين ألفا ونزلها أيضاً مروان فى ثمانين ألفا ودعاهم مروان إلى الكف عن قتاله وإطلاق ابنى الوليد الحكم وعثمان من السجن وضمن لهم أنه لا يطلب أحداً من قتلة الوليد فلم يجيبوه إلى شىء من ذلك وجدّوا فى قتال بعضهم وكثر القتل بينهم واشتد فانهزم أصحاب سليمان بن هشام ووضع أهل حمص السلاح فيهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأتوا مروان من أسرائهم بمثل القتلى فأخذ مروان عليهم البيعة لولدى الوليد الحكم وعثمان وكانا معتقلين وهرب سليمان بن هشام مع من بقى واجتمعوا مع إبراهيم وعبد العزيز بن الحجاج فقال بعضهم لبعض: إن بقى ولدا الوليد حتى يخرجهما مروان ويصير الأمر إليهما لم يستبقيا أحداً من قتلة أبيهما فأمروا بقتلهما وأخرج يوسف بن عمر فضربت عنقه وأرادوا قتل أبى محمد السفيانى فدخل بيتاً من بيوت السجن وأغلقه فلم

يقدروا على فتحه فأرادوا إحراقه فلم يؤتوا بالنار لإحراقه حتى قيل قد دخلت خيل مروان المدينة فهربوا واختفى إبراهيم وانتهب مروان ما فى بيت المال فكان شيئاً كثيراً.

وكانت خلافة إبراهيم شهرين وعشرة أيام فبايع الناس مروان على ما سيذكر فى محله واستوثق له الأمر قبل ظهور إبراهيم بن الوليد ودخل عليه ونزل له عن الخلافة وذلك سنة سبع وعشرين ومائة هجرية أى سنة أربع وأربعين وسبعمائة ميلادية، واستعمل على مصر فى خلافته حسان بن عتاهية الخبيبى ثم عزله وأعاد حفص بن الوليد فبقى إلى أن عزل فى سنة ثمان وعشرين ومائة هجرية.

(الفصل الرابع عشر)

(فى خلافة مروان بن محمد)

لما قتل إبراهيم بن الوليد بويع لمروان بن محمد المنبوز بالحمار بالخلافة سنة ست وعشرين ومائة هجرية أى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ميلادية، وتحرير الخبر أنه لما دخل مروان دمشق وهرب إبراهيم بن الوليد ومن معه كما تقدّم القول ثار مَن بدمشق من موالى الوليد إلى دار عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك فقتلوا الحجاج ونبشوا قبر يزيد بن الوليد وأخرجوا جثته وصلبوها على باب الجابية وكبرت الفتنة وأتى مروان بولدى الوليد الحكم وعثمان مقتولين وبيوسف بن عمر فدفنهم وأخرج محمد السفيانى من محبسه يجرّ فى قيوده فلما وقف السفيانى بين يديه سلم عليه بالخلافة وقد كان يسلم على مروان إلى ذلك اليوم بالإمرة فأسكته مروان فقال محمد السفيانى: إنهما جعلاها لك بعدهما، قال صاحب الكامل وأنشده شعرا قاله الحكم:

ألا من مبلغ مروان عنّي ... وعمي الغمر طال به حنينا
بأني قد ظلمت وصار قومي ... على قتل الوليد مشايعينا
أيذهب كلهم بدمي ومالي ... فلا غثاً أصبت ولا سمينا
ومروان بأرض بني نزار ... كليث الغاب مفترس عرينا
أتنكث بيعتي من أجل أمي ... فقد بايعتم قبلي هجينا
فإن أهلك أنا وولي عهدي ... فمروان أمير المؤمنينا

ثم قال لمروان: أبسط يدك أبايعك وسمعه جميع من حضر فكان أول من بايع معاوية بن يزيد بن حصين بن نمير وعظماء أهل حمص والناس بعدهم فلما استقر له الأمر رجع إلى أهله بحوران فتقدم إليه جماعة فى طلب الأمان لإبراهيم بن الوليد وسليمان بن هشام فأمنهما فقدما عليه وبايعاه كما تقدم القول، ولم تستقر به الخلافة حتى ظهر الاضطراب وظهر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بالكوفة ودعا الناس إلى نفسه وتغلب على حلوان والجبال وهمدان وأصبهان والرى وكثرت لمومه وخرج إليه عبيد أهل الكوفة وانتقض أهل حمص فقاتلهم مروان ودخل حمص وأعمل فى أهلها السيف وهدم من سورها نحو غلوة وخالف أهل الغوطة فحصروا دمشق ومقدمهم يومئذ يزيد بن خالد فسير إليهم مروان عشرة آلاف من حمص فقاتلوهم قتالاً شديداً وأخذوا مقدمهم يزيد بن خالد المذكور فاحتزوا رأسه وبعثوا به إلى مروان بحمص، واختلف أيضاً أهل فلسطين وانتقضوا فسير لهم مروان عسكراً ومقدمهم أبو الورد فقاتلوهم وشدد أبو الورد فى قتالهم حتى هزمهم وجاء مروان الخبر وهو يومئذ بدير أيوب ففرح بذلك وبايع لابنيه عبيد الله وعبد الله وزوجهما ابنتى هشام بن عبد الملك. قال أصحاب التاريخ: فجمع لذلك بنى أمية واستقام له الشام ماخلا تدمر فسار إليها وأرسل من يقاتلها فاستأمن من بها بعد القتال وهدم سورها، وأرسل مروان إلى الشام بعد ذلك فى طلب الجند لقتال الضحاك بالعراق وقد كان خرج عن طاعة مروان وتقدم مروان إلى فرقيسيا فبينما هو بها إذ رجع عشرة آلاف ممن كان أخذهم من أهل الشام لقتال الضحاك فنزلوا بالرصافة وحببوا إلى سليمان بن هشام بن عبد الملك خلع مروان بن محمد ومنوه بالخلافة إن هو فعل ذلك فأجابهم وسار بإخوته ومواليه معهم فعسكر بقنسرين وكاتب أهل الشام فأتوه من كل وجه وبلغ الخبر مروان فرجع إليه من قرقيسيا واجتمع إلى سليمان بن هشام نحو من سبعين ألفا من أهل الشام وغيرهم وعسكر بقرية خساف من أرض قنسرين فجاءه مروان عند وصوله واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم سليمان ومن معه واتبعتهم خيل مروان تقتل وتأسر واستباحوا عسكرهم فبلغ قتلى أصحاب سليمان زهاء ثلاثين ألفا وقتل إبراهيم بن سليمان وأكثر ولده ومضى سليمان حتى دخل حمص وانضم إليه من بقى من عسكره فتحصن بها ورمم ما تخرّب من أسوارها فتبعه مروان وقاتله فهزمه فخرج سليمان ومضى إلى تدمر فأقام بها ونزل مروان على حمص فحاصر أهلها عشرة أشهر. قال أصحاب التاريخ:

ونصب عليهم نيفاً وثمانين منجنيقا يرمى بها الليل والنهار فلما تتابع عليهم البلاء طلبوا الأمان فأمّنهم.

وفى خلال هذه الخطوب والحروب ظهر أبو مسلم الخراسانى وهو عبد الرحمن صاحب الدعوة العباسية بخراسان وظهر السفاح بالكوفة فلما استقر للسفاح الأمر وظهرت آثار الدعوة لبنى العباس على ما سنذكره فى محله إن شاء الله جهز السفاح عمه عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس لقتال مروان بن محمد فالتقى الجمعان بالزاب زاب الموصل وجعل كل فريق يرتب عسكره ويبالغ فى ترتيبها فقال مروان لعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: ياعبد العزيز إن زالت اليوم الشمس ولم يقاتلونا كنا الذين ندفعها إلى المسيح عليه السلام وإن قاتلونا فأقبل الزوال فإنا لله وإنا إليه راجعون، وأرسل مروان إلى عبد الله بن على مقدّم عسكر السفاح يسأله الموادعة. فقال عبد الله كذب ابن رزيق لا تزول الشمس حتى أوطئه الخيل إن شاء الله فقال مروان لأهل الشام: قفوا لا تبدؤهم بالقتال وجعل ينظر إلى الشمس فحمل الوليد ابن معاوية بن مروان بن الحكم وهو ختن مروان بن محمد على ابنته فغضب مروان من ذلك وشتمه وأمر عبد الله الناس بأن ينزلوا عن خيلهم فنزلوا وأشرعوا الرماح وجثوا على الركب ولم يظهروا عزمًا على القتال فاندفع عليهم أصحاب مروان وقاتلوهم فجعل أهل الشام يتأخرون كأنهم يدفعون فنادى عند ذلك عبد الله بن علىّ يأأهل خراسان يالثارات إبراهيم يامحمد يامنصور واشتد بينهم القتال وحمى الوطيس وضعفت همم أصحاب مروان وتثاقلوا عن القتال فكان مروان ذلك اليوم لا يدبر شيئاً إلا كان فيه الخلل وانفشل عسكره فشلاً عظيماً وانهزموا وانهزم مروان وقطع الجسر فكان من غرق يومئذ عند عبور ذلك الجسر أكثر ممن قتل، وكتب عبد الله بن علىّ إلى السفاح بالفتح وحوى عسكر مروان بما فيه فكان فيه من السلاح والكراع والأموال شيئاً كثيراً للغاية فلما وصل الكتاب إلى السفاح فرح فرحاً لا يوصف وخر ساجداً لله تعالى وأمر لمن شهد الواقعة بخمسمائة دينار ورفع أرزاقهم إلى ثمانين، ولما تمت هزيمة مروان تبعه عبد الله إلى أن وصل نهر الأردن فلقى جماعة من بنى أمية وكانوا نيفًا وثمانين رجلاً فقتلهم عن آخرهم ثم أمر عبد الله بسحبهم فسحبوا وبسط عليهم بساط وجلس هو وأصحابه فوقهم واستدعى بالطعام فأكلوا وهم يسمعون أنينهم من تحتهم فقال عبد الله: يوم كيوم الحسين ولا سواء ولما رأى مروان اشتداد الفتنة واستفحال الخطب وأن الأعداء كادوا يطبقون عليه من كل جانب وكان قد نزل بحوران قام منها قاصداً أبا عون عبد الملك بن يزيد الأسدى الذى ولاه

السفاح على شهر زور فلاقاه جند عبد الله بن عليّ العباسى فمر فى أشهر أمّة بالموصل فرأى الرايات سودًا وهى رايات العباسيين فذهب إلى حوران وأقام نيفا عن عشرين يوماً حتى دنا منه عسكر السفاح فسار إلى حمص ثم إلى دمشق ثم إلى فلسطين وكان السفاح قد كتب إلى عمه عبد الله فتبعه عبد الله إلى دمشق وجهز السفاح أيضاً عمه صالح بن عليّ على طريق السماوة فلحق بأخيه عبد الله وقد نزل دمشق وفتحها عنوة وأباحها ثلاثة أيام ونقض عبد الله سورها فلم يبق فيه حجراً على حجر وهرب مروان إلى مصر فتبعه صالح بن عليّ ومروان ينهزم أمامه حتى أدركه أبو عون وجماعة أصحاب صالح بعد حين فى كنيسة بأبى صير من صعيد مصر وقد تبددت أصحابه ولم يبق معه إلا القليل جداً فقاتلوه ليلاً وكان أصحاب صالح قليلين فخافوا إن هم أصبحوا ورأوا أصحاب مروان قلتهم أهلكوهم فتحالفوا على القتال ليلاً وكسروا أجفان سيوفهم وحملوا على أصحاب مروان فانهزموا وحمل رجل على مروان فطعنه وهو لا يعرفه وصاح صائح صرع أميرالمؤمنين فابتدروه واحتزوا رأسه وبعثوا به إلى صالح فلما وصل إليه أمر أن يقص لسانه فقطعوا لسانه وتركوه لحظة لطيفة فأتت هرة فأخذته فقال صالح: ماذا ترينا الأيام من العجائب والعبر هذا لسان مروان قد أخذته هرة وذلك فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية وقيل ثلاث وثلاثين ومائة أى نحو سنة خمسين وسبعمائة ميلادية وهو ابن ست وخمسين سنة فكانت خلافته خمس سنين وشهرين وعشرة أيام وهو آخرخلفاء بنى أمية فكانوا أربعة عشر خليفة أولهم معاوية بن أبى سفيان وآخرهم مروان الجعدى المنبوز بالحمار وكانت مدّة خلافتهم نيفا وثمانين سنة وهى ألف شهر، ورجع صالح إلى الشام ومعه رأس مروان وخلف أبا عون بمصر فلما رفع صالح رأس مروان إلى السفاح سجد لله شكراً. وذكر أنه بينما كان مروان يحارب على الزاب ترجل عن فرسه لحاجة طبيعية فرجع الفرس إلى الوراء فظن عسكره أنه قتل فوقع فيهم الخوف وانفشلوا وهربوا فصار ذهاب ملكهم مثلاً فقيل: «انتهى ملك بنى أمية ببولة» ولما قتل مروان هرب ولداه عبيد الله وعبد الله إلى أرض الحبشة فقتل عبيد الله قتله الحبشان ونجا عبد الله فى عدد من أصحابه وبقى إلى خلافة المهدى حتى قبض عليه نصر بن محمد بن الأشعث عامل فلسطين وبعث به إلى المهدى، وكان مروان المذكور بطلاً شديدًا شجاعاً ذا هيبة أبيض ربعة أشهل

ضخما كث اللحية وكان حازمًا سياسيًا واستعمل على مصر فى خلافته الحوثرة بن سهيل الباهلى ثم ولى بعده المغيرة بن عبيد الفزارى سنة إحدى وثلاثين ومائة ثم ولى عبد الملك بن مروان مولى لخم سنة ثنتين وثلاثين ومائة فلما قامت الدولة العباسية واستقام الأمر للسفاح على ما سيذكر فى محله وانهزم مروان الحمار وهرب إلى مصر ولى السفاح نيابة الشام ومصر صالح بن علىّ بن عبد الله بن عباس فسار صالح بعد قتل مروان إلى الشام واستخلف على مصر أبا عون عبد الملك بن يزيد الأسدى كما تقدم القول.

(فصل)

(فى كيفية الدعوة لبنى العباس وفى ظهور دولتهم)

لما كان ظهور الدولة العباسية من الأهمية التاريخية بمكان لا سيما وفى ذكر حوادث ذلك الظهور وأصل الدعوة لبنى العباس وما ترتب عليها تذكرة وعبرة رأيت أن لا بأس بإيراد تفصيلها هنا إظهاراً لأصل الدعوة وكيف كان كتمانها بين الأحزاب أعواماً مع كثرة الدعاة وتخلفهم على الناس. قال أصحاب التاريخ: لما كان محمد ابن علىّ بن عبد الله بن عباس نازلاً بأرض الشراة من أعمال البلقاء بالشام خرج أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية إلى الشام يريد لقاء سليمان بن عبد الملك فاجتمع به محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس المذكور فأحسن صحبته واجتمع أبو هاشم بسليمان فأكرمه وقضى حوائجه ورأى من علمه وفصاحته ما حسده عليه وخافه فوضع عليه من وقف على طريقه فسمه فى لبن فلما أحس أبو هاشم بذلك قصد الحميمة وبها محمد بن علىّ بن عبدالله المذكور فنزل عليه فأخبره بخبره وأعلمه أن أمر الخلافة صائر إلى ولد محمد بن علىّ بن عباس المذكور وعرفه ما يعمل وأوصاه بكتمان الأمر وكان أبو هاشم قد أعلم شيعته من أهل خراسان والعراق عند ترددهم إليه أن أمر الخلافة صائر إلى ولد محمد بن علىّ وأوصاهم بقصده بعده. فلما مات أبو هاشم قصدت شيعته محمد بن علىّ وبايعوه وعادوا فدعوا الناس إليه فأجابوهم وسير محمد بن عبد الله إلى الآفاق جماعة فوجه ميسرة إلى العراق ووجه محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وهو أبو محمد الصادق وحيان العطار وخال إبراهيم بن سلمة إلى خراسان وعليها الجراح الحكمى وأمرهم بالدعاء إليه وإلى أهل بيته فلقوا من لقوا ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم إلى محمد بن علىّ فدفعوها

إلى ميسرة فبعث بها ميسرة إلى محـمد بن عليّ ففرح بها واختار أبو محمد الصادق لمحمد بن عليّ اثنى عشر نقـيباً وسبعين رجلاً أُخر فكتب لهم مـحمد بن على كتاباً ليكون لهم مـثالاً وسيـرة يسيرون بهـا وذلك سنة مائة للهجـرة فعمـلوا به وجعلوا يدعون الناس فظهر أمرهم بخراسان فجاء رجل إلى سـعيد بن خزيمة عامل خراسان فقال له: إن ههنا قـوماً قد ظهر منهم كلام قبـيح وأعلمه حالهم فبعث سعـيد إليهم فأتى بهم فـقال: من أنتم؟ قالوا ناس من التـجار. قال فمـا هذا الذى يحكى عنكم قالوا :لا ندرى قـال :جئتـم دعاة قالوا: إن لنا فى أنفـسنا وتجارتنا شـغلا عن هذا فقال: من يعرف هؤلاء فـجاء ناس من أهل خراسان أكثرهم من أهل ربـيعة واليمن فقالوا: نحن نعرفهم وهم علينا إن أتاك منهم شىء تكرهه فخلى سبيلهم فظلوا على ما كانوا عليه من الدعوة إلى محمد بن عليّ وابن خزيمة لاه عنهم.

فلما كانت سنة أربع ومائة هجرية ولد (أبو العباس عبد الله) بن محمد بن عليّ ابن محمد بـن على فى ربيع الآخر وهو السفاح وجاء إلى أبيه مـحمد بن عليّ (أبو محمد الصادق) من خراسان فى عدة من أصحابه فأخرج إليهم محمد بن على ولده أبا العباس المذكور فى خـرقة وله خمسة عشر يومـاً وقال لهم: هذا صاحبكم الذى يتم الأمر على يده فـفرحوا به وقبلـوا أطرافه. وقال لهم والله ليتـمن الله هذا الأمر حتى تدركـوا ثأركم من عدوّكم، قالوا: وكان أول من قدم خـراسان من دعاة بنى العبـاس زياد أبو محمـد مولى همدان فى ولاية أسـيد بعث به محـمد بن على بن عبـدالله بن عباس. وقال له انزل فى اليـمن والطف بمضر ونهاه عن رجل بنيـسابور يقال له غـالب لأنه كان مـفرطا فى حب بنى فاطمـة. ويقال أوّل من أتى خـراسان بكتاب محمد بن على حرب بن عثـمان مولى بنى قيس بن ثعلبة من أهل بلخ فلما قدم زياد دعـا إلى بنى العباس وذكـر سيرة بنى أمـية وظلمهم وأطـعم الناس الطعام فقدم عليه غالب من نيسابور فتناظرا فى تفـضيل آل عليّ وآل العباس ثم افترقا وأقام زياد بمرو شتوة فكان يتخلف إليه من أهلها جماعة فعلم أسيد بخبره فدعاه وقال: ما هذا الذى بلغنى عنك؟ قـال الباطل: إنما قـدمت إلى تجارة وقـد فرقت مـالى على الناس فإذا اجتمـع خرجت فقال له أسيد أخرج عن بلادى فـانصرف من عنده وعاد إلى ما كـان عليه من دعوة الناس فـرفعوا أمـره إلى أسيد ثانيـة وخوّفوه من جـانبه فأحضره وقتله وقتل معه عـشرة من أهل الكوفة ولم ينج منهم إلا صغيران وقيل بل أمر بزياد أن يوسط بالسـيف أى يقطع نصفين فضـربوه بالسيف فلم يعمل فيـه فكبر الناس فقـال أسيد مـا هذا قيل نبا السـيف عنه ثم ضرب أخرى فنبـا السيف عنه ثم

ضربه الثالثة فقطعه اثنين وعرض البراءة على أصحابه فمن تبرأ خلى عنه وذلك قبل الأضحى بأربعة أيام، فقام بالأمر بعدهم رجل من أهل الكوفة يسمى كثيراً فنزل على أبى النجم فكان يأتى إليه كل من تبع مقالة زياد وبقى على هذا الحال سنة أو سنتين، واشتد ابن أسيد والى خراسان على من بها من الأحزاب فقتل وجلد وحبس منهم خلقا ووجه بكير بن ماهان فى نحو سنة ثمان عشرة ومائة هجرية عمار بن يزيد والياً على شيعة بنى العباس فنزل مرو وغيّر اسمه وتسمى بخداش ودعا إلى محمد بن علىّ فتسارع إليه الناس وأطاعوه فلما ظهرت كلمته غير ما دعاهم إليه وأظهر دين الخرّمية ورخّص لبعضهم فى نساء بعض. وقال لهم: إنه لا صوم ولا صلاة ولا حج وأن تأويل الصوم أن يصام على ذكر الإمام فلا يباح باسمه والصلاة الدعاء له والحج القصد إليه وكان يتأوّل بعض آيات القرآن وكان ممن اتبعه على مقالته مالك بن الهيثم والحريش بن سليم الأعجمى وغيرهما فأخبرهم أن محمد بن على بن عبد الله بن العباس أمر بذلك فبلغ خبره أسيد بن عبد الله والى خراسان فظفر به فأغلظ القول لأسيد فقطع لسانه وسمل عينيه ثم صلبه، وكان لما ظهر أمر خداش المذكور وأطاعه من أطاعه من الأحزاب بخراسان أهمل محمد بن على بن عبد الله أمرهم وترك مكاتبتهم ومراسلاتهم فلما قتل خداش وجهوا إليه سليمان ابن كثير ليعلمه أمرهم وما هم عليه فعنفه محمد فى ذلك ثم صرفه إلى خراسان ومعه كتاب مختوم فلما فضوه لم يروا فيه إلا بسم الله الرحمن الرحيم فعظم ذلك عليهم وعلموا مخالفة خداش لأمره ثم وجه إليهم بكير بن ماهان بعد ذلك وكتب معه إليهم يعلمهم كذب خداش فلم يصدقوه واستخفوا به فعاد بكير إلى محمد فبعث معه بعصى مضببة بعضها بحديد وبعضها بنحاس فجمع بكير النقباء والشيعة ودفع إلى كل واحد منهم عصا فعلموا أنهم مخالفون لسيرته فتابوا ورجعوا.

وما زال السر مكتوماً والدعوة إلى ولد العباس جارية والنقباء يعملون على جمع القلوب واستمالة الناس حتى كانت سنة تسع وعشرين ومائة هجرية ظهر أبو مسلم الخراسانى فكان تمام الأمر على يديه. قال جماعة الكتاب: وأبو مسلم هذا هو إبراهيم بن عثمان بن بشار بن سدوس بن جودزده من ولد بزرجمهر الفارسى ويكنى أبا إسحق ولد بأصبهان ونشأ بالكوفة وكان أبوه أوصى إلى عيسى بن موسى السراج فحمله إلى الكوفة وهو ابن سبع سنين .وقال بعضهم: إنه من أهل ضياع بنى معقل العجلية بأصبهان أو غيرها من الجبل وكان اسمه إبراهيم ويلقب حيكان وكان مع أبى موسى السراج صاحبه يخرز الأعنة ويعمل السروج وله معرفة بصناعة الأدم

والسروج فكان يحملها إلى أصبهان والجبال والجزيرة والموصل ونصيبين وآمد وغيرها يتجر فيها فاتصل بإبراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس الإمام أحد الأئمة الاثنى عشر من ولد العباس فتخيل فيه النجابة والفتوّة وتحقق أن الأمر يتم على يديه لبنى العباس فقال له: غيّر اسمك فإنه لا يتم لنا الأمر إلا بتغيير اسمك فسمي نفسه عبد الرحمن بن مسلم ويكنى أبا مسلم وكان له من العمر يومئذ تسع عشرة سنة ثم زوّجه إبراهيم الإمام ابنة عمران بن إسماعيل الطائى المعروف بأبى النجم وهى بخراسان مع أبيها فبنى بها أبو مسلم بخراسان وولدت له ابنتين فاطمة وأسماء وفاطمة هى التى تذكرها الخرمية فى مذهبهم الذى دعاهم إليه خداش، قال ابن خلكان: ونشأ أبو مسلم عند عيسى بن معقل بن عمير أخى إدريس بن معقل جد أبى دلف العجلى برستاق فايق فلما ترعرع اختلف مع ولده إلى المكتب فخرج أديبًا لبيبًا يشار إليه فى صغره ثم إنه اجتمع على عيسى بن معقل وأخيه إدريس بقايا من الخراج تقاعدا من أجلها عن حضور مؤدّى الخراج بأصبهان فأنهى عامل أصبهان خبرهما إلى خالد بن عبد الله القسرى والى العراقين فأنفذ خالد من الكوفة من حملهما إليه بعد قبضه عليهما فتركهما خالد فى السجن فصادفا فيه عاصم بن يوسف العجلى محبوساً بسبب من أسباب الفساد وقد كان عيسى بن معقل قبل أن يقبض عليه أنفذ أبا مسلم إلى قرية من رستاق فايق لاحتمال غلتها فلما اتصل به خبر عيسى بن معقل باع ماكان احتمله من الغلة وأخذ ما كان اجتمع عنده من ثمنها ولحق بعيسى بن معقل فأنزله عيسى بداره فى بنى عجل وكان يختلف إلى السجن ويتعهد عيسى وإدريس ابنى معقل وكان قد قدم الكوفة جماعة من نقباء الإمام محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب مع عدّة من الشيعة الخراسانية فدخلوا على العجليين السجن مسلمين فصادفوا أبا مسلم عندهم فأعجبهم عقله ومعرفته وكلامه وأدبه ومال هو إليهم ثم عرف أمرهم وأنهم دعاة واتفق مع ذلك أن هرب عيسى وإدريس من السجن فعدل أبو مسلم من دور بنى عجل إلى هؤلاء النقباء ثم خرج معهم إلى مكة حرسها الله تعالى فأورد النقباء على إبراهيم بن محمد الإمام وكان قد تولى الإمامة بعد وفاة أبيه عشرين ألف دينار ومائتى ألف درهم وأهدوا إليه أبا مسلم فأعجب به وبمنطقه وعقله وأدبه وقال لهم هذا عضلة من العضل وأقام أبو مسلم عند الإمام يخدمه حضراً وسفرًا ثم إن النقباء عادوا إلى الإمام وسألوه رجلاً يقوم بأمر خراسان فقال: إنى جرّبت هذا الأصبهانى وعرفت ظاهره وباطنه فوجدته حجرًا لا يرض ثم دعا أبا مسلم وقلده الأمر وأرسله إلى

خراسان فكان من أمره ما كان وكان إبراهيم الإمام قد أرسل إلى أهل خراسان سليمان بن كثير بن الحرانى يدعوهم إلى أهل البيت فلما بعث أبا مسلم أمر من هناك بالسمع والطاعة وأمره أن لا يخالف سليمان بن كثير فكان أبو مسلم يختلف ما بين إبراهيم وسليمان. اهـ.

ويقال: إن أبا مسلم المذكور ولد بمدينة جى الأصبهانية وكان أول ظهوره بمرو يوم الجمعة لتسع بقين من رمضان سنة تسع وعشرين ومائة والوالى بخراسان يومئذ نصر بن سيار الليثى من قبل مروان بن محمد المنبوز بالحمار آخر خلفاء بنى أمية فكتب نصر يومئذ إلى مروان يقول:

أرى جذعا ان يثن لم يقو ريض　　عليه فبادر قبل أن يثني الجذع

وكان مروان يومئذ مشغولاً عن أبى مسلم بغيره ممن خرج بالجزيرة وغيرها فلم يجبه عن كتاب نصر بن سيار ولم يكن أبو مسلم يومئذ إلا فى خمسين رجلا فكتب نصر ثانية إلى مروان يقول:

أرى خلل الرماد وميض نار　　ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالزندين تورى　　وإن الحرب أولها كلام
لئن لم يطفها عقلاء قوم　　يكون وقودها جثث وهام
أقول من التعجب ليت شعري　　أأيقاظ أمية أم نيام
فإن كانوا لحينهم نيامًا　　فقل قوموا فقد حان القيام

فلم يرد عليه الجواب ولما علم مروان بخبر إبراهيم الإمام وتخلف الناس إليه وتقربهم منه سير رجلاً للقبض عليه ووصف له صفته وهى صفة أبى العباس لأنه كان يسمع أن فى الكتب أن من كانت هذه صفته يفنيهم ويسلبهم ملكهم، قال ابن أشعث: قال خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك بن مروان أما إذا كان الفتق من سجستان فليس عليك منه بأس إنما كنا نتخوّف لو كان من خراسان يعنى حيث غلب أبو ميسلم. وقال محمد بن على بن عبد الله لنا ثلاثة أوقات موت الطاغية يزيد بن معاوية ورأس المائة وفتق إفريقية فعند ذلك يدعو لنا دعاة ثم تقبل أنصارنا من المشرق حتى ترد خيلهم ويستخرجون ما كنز الجبارون . اهـ.

وقال مروان لرسوله إن اسم الذى تقبض عليه إبراهيم بن محمد فلما وصل الرسول أخذ أبا العباس بالصفة التى قال له عنها مروان. وقد كان إبراهيم مختفيًا

فظهر وأمن جانب الرسـول فقال جماعة لرسول مـروان انك إنما أمرت بالقبض على إبراهيم وهذا الذى قـبضت عـليه عـبد الله فـأخذ الرسـول بقـولهم وخلى عن أبى العبـاس وقبض على إبراهيم فـانطلق به إلى مروان وتحـقق إبراهيم أنه مقـتول فنعى نفسه إلى أهل بيته وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبى العباس عبد الله وبالسمع له والطاعة وأوصى إلى أبى العـباس وجعله الخليفة بعـده فسار أبو العبـاس بمن معه من أهل بيته حتى قدموا الكوفة فى صفـر وشيعتهم من أهل خراسان بظاهرالكوفة. ولما وصل رسول مروان ومعه إبراهيم دخل به على مـروان فقال مروان: ليست هذه الصفة التى وصفت لك فقال هذا إبراهيم الذى سميتـه فأمر به مروان فحبسوه وأعاد جماعة أخر فى طلب أبى العباس.

وكان من تمام حظ أبى مـسلم وقوع الخلاف بين الكرمانى ونصـر عاملى مروان على مرو فسير أبو مسلم النقباء إلـى طخارستان فما دون بلخ ومرو الروذ والطالقان وخوارزم يدعون الناس إلـى طاعة بنى العباس. وقال لهم إن أعـجلكم عدوّكم دون الوقت بالأذى والمكروه فـقـد حل لكم أن تدفعـوا عن أنفـسكم وتجـرّدوا السيـوف وتجاهدوا أعداء الله ومن شغله منكم عـدوّه عن الوقت فلا حرج عليكم أن تظهروا بعد الوقت، وكان قد اشتدّ الخلاف بين الكرمانى ونصر عاملى مروان وقامت الحرب بينهما وحمى وطيـسها فاشتدّت عزيمة أبو مـسلم وبث دعاته بين الناس وأظهر أمره بلا تحاش فأتاه فى ليلة واحدة أهل ستين قرية فـلما كانت ليلة الخميس لخمس بقين من رمضان من السنة أى سنة تسع وعشرين ومـائة عقد اللواء الذى كان الإمام بعث به الذى يسمـونه الظل على رمح طوله ثلاثة عشـر ذراعا وهو يتلو: ﴿**أذن لـلـذيـن يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصـرهم لقدير**﴾ ولبـسوا السـواد هـو وسليمـان ابن كثير وأخـوة سليمان ومواليه ومن كان أجاب الدعوة من أهل سـفيذنج وأوقدوا النيران ليلتهم تلك لشيعتهم وكانت علامتهم فتجمع إليه الناس حين أصبحوا معدّين فقال لهم إنى مـؤوّل لكم الظل والسحاب. أن السحـاب يطبق الأرض وأن الأرض كمـا لا تخلو من الظل كذلك لا تخلو من خليـفة عبـاسى إلى آخر الدهر ففـرحوا بمقالته واشتدت عزائمهم.

وقدم عـلى أبى مسلم الدعـاة بمن أجاب الدعـوة فكان أوّل من قدم عليـه أهل التقادم مع أبى الوضاح فى تسعمائة راجل وأربعة فرسان ومن أهل هرمز فرّه جماعة وقدم مع أبى القـاسم محرز بن إبراهيم الجـوبانى ألف وثلاثمائة راجل وستة عـشر فارسًا ودخلوا جميعاً إلى معسكر أبى مسلم وهم يصيحون بأصوات التهليل والتكبير

وكان أبو مسلم قد عسكر بسفيذنج فلما رأى هذه الجموع فرح بها وحصن حصن سفيذنج ورمه وسد دروب سفيذنج ولبث على هذا الحال إلى يوم عيد الفطر فأمر أبو مسلم فى ذلك اليوم سليمان بن كثير أن يصلى به وبالشيعة صلاة العيد ونصب له منبرا بالعسكر ورسم له أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة. قال بعض الكتاب: وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة قبل الصلاة وبالآذان والإقامة، ورسم له أيضاً بست تكبيرات تباعاً ثم يقرأ ويركع بالسابعة ويكبر فى الركعة الثانية خمس تكبيرات تباعًا ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتح الخطبة بالتكبير ثم يختمها بالقرآن وكان بنو أمية يكبرون فى الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفى الثانية ثلاث تكبيرات فلما قضى سليمان الصلاة نهض أبو مسلم والشيعة إلى طعام قد أعده لهم فأكلوا فرحين مسرورين، ولم يمض إلا القليل حتى خرج الكرمانى ونصر إلى القتال فى واقعة يقال لها واقعة الخندقين فاقتتلوا قتالاً شديداً فلما استيقن أبو مسلم أن كلا الفريقين قد أثخن صاحبه وأنه لا مدد لهم جعل يكتب إلى أصحاب الكرمانى يذم أصحاب نصر وإلى أصحاب نصر يذم أصحاب الكرمانى حتى صار هوى الفريقين معه وأقبل حتى نزل بين خندق الكرمانى وخندق نصر فهابه الفريقان وبعث إلى الكرمانى يقول له: إنى معك ففرح الكرمانى بذلك فانضم أبو مسلم إليه فلما علم نصر بذلك أكبره جدا وأرسل إلى الكرمانى يقول ويحك لا تغتر فوالله إنى لخائف عليك وعلى أصحابك منه وطال بين الفريقين الأخذ والرد فمال الكرمانى إلى مقالة نصر وخرج ليكتب كتاب الصلح بينه وبين نصر فأبصر نصر منه غرّة فوجه إليه نحوا من ثلاثمائة فارس فالتقوا بها واشتد القتال بينهما فطعن الكرمانى فى خاصرته فخر عن دابته فأخذوه وقتلوه وأمر نصر فصلبوا جثته وصلبوا معها سمكة فانضم حينئذ علىّ بن الكرمانى بمن كان مع أبيه إلى عسكر أبى مسلم وقاتلوا نصرا قتالا شديداً وطالت الحرب بين أبى مسلم ونصر بن سيار فكانت سجالا والدعوة قائمة والأحزاب تكثر واختلفت كلمة العرب وتفرقوا عن قتال أبى مسلم وأصحابه بعد أن كانوا يدا واحدة عليه ثم دخل أبو مسلم إلى مرو والقتال قائم فيها بين علىّ بن الكرمانى وأصحابه ونصر بن سيار ومضى أبو مسلم إلى قصر الإمارة وأرسل إلى الفريقين أن كفوا ولينصرف كل فريق إلى عسكره فلم يروا بدّا من الكف عن القتال وصفت مرو لأبى مسلم فأمر بأخذ البيعة من الجند وكان الذى يأخذها أبو منصور طلحة بن رزيق أحد النقباء عالماً بحجج الهاشمية ومعايب الأموية وكان النقباء أثنى عشر رجلاً عدد حوارى المسيح اختارهم محمد بن على من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله إلى خراسان سنة ثلاث ومائة وأربع ومائة، وكانت البيعة: أبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله ﷺ

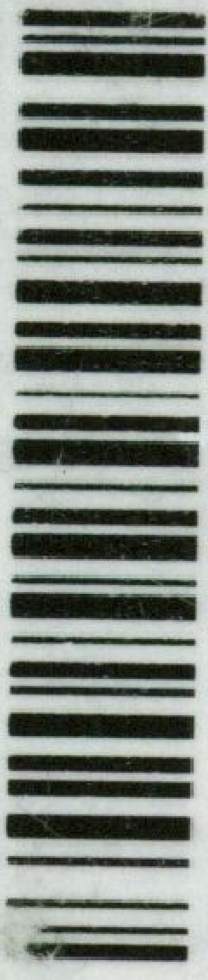
وعليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى إلى بيت الله الحرام وعلى أن لا تسألوا رزقا ولا طعما حتى يبتدئكم به ولاتكم.

ووردت الأخبار إلى أبى العباس بما صار إليه أمر أبى مسلم وكان يومئذ بالحميمة فهم بالمسير منها إلى الكوفة فأعلم أهل بيته بعزمه فوافقوه وخرجوا معه وكانوا أخوه أبو جعفر المنصور وعبد الوهاب ومحمد أبناء إبراهيم الإمام وأعمامه داود وعيسى وصالح وإسماعيل وعبد الله وعبد الصمد بنو علىّ بن عبد الله بن عباس وما زالوا حتى قدموا الكوفة فلقيهم أبو سلمة الخلال أحد مقدمى شيعتهم فأنزلهم دار الوليد بن سعد مولى بنى هاشم وكتم أمرهم عن الناس نحوا من أربعين ليلة فلم يعلم بهم أحد لا من القواد ولا من الشيعة وكان إذا سئل عن الإمام أبى العباس يقول: لا تعجلوا وكان أبو سلمة يميل إلى جعل أمر الخلافة فى آل أبى طالب ولكنه كان يرى دون ذلك صعوبات وجعل جماعة من الشيعة يترددون على الإمام في مخباه ويأتمرون بأمره حتى اتفق جماعة من القواد على أن يلقوا الإمام ويتفقوا معه على ما فيه المصلحة والظهور بعد هذا الانكماش فساروا إليه ودخلوا عليه وسلموا عليه بالخلافة وعزوه فى أخيه إبراهيم الإمام ورجعوا فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول فلبسوا السلاح واصطفوا لخروج أبى العباس وأتوا بالدواب فركب أبو العباس وركب من معه من أهل بيته ودخلوا دار الإمارة فلبث بها برهة لطيفة ثم خرج إلى المسجد فخطب وصلى بالناس ثم صعد المنبر فقال مقالته التى سيأتى ذكرها فى محلها، قيل التقى داود بن على وابنه موسى بأبى العباس وأهل بيته وهم فى طريقهم إلى الكوفة فسألهم داود عن خبرهم فقص عليه أبو العباس قصتهم وأنهم يريدون الكوفة ليظهروا بها ويظهروا أمرهم فقال له داود: يا أبا العباس تأتى الكوفة وشيخ بنى أمية مروان بن محمد بحرّان مطل على العراق فى أهل الشام والجزيرة وشيخ العرب يزيد ابن هبيرة بالعراق فى جند العرب فقال: ياعمى من أحب الحياة ذل ثم تمثل بقول الأعشى:

فما ميتة إن متها غير عاجز … بعار إذا ما غالت النفس غولها

فالتفت داود إلى ابنه موسى. وقال: صدق والله ابن عمك فارجع بنا معه نعش أعزاء ونموت كرماء فرجعوا جميعاً فكان عيسى بن موسى يقول إذا ذكر خروجهم من الجهمية يريدون الكوفة، أن نفرا أربعة عشر رجلاً خرجوا من دارهم وأهلهم يطلبون ما طلبنا لعظيمة همتهم كبيرة أنفسهم شديدة قلوبهم. اهـ. وتمت البيعة بعد ذلك لأبى العباس على ما سيذكر فى محله.




Bibliotheca Alexandrina
1240009